

بلزاك

الملهاة الانسانية

سرافيتا

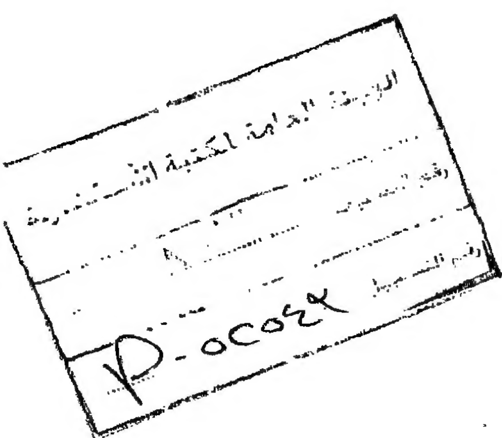
قصة من الدراسات الفلسفية

ترجمة

ميشيل خوري



روايات بلزاك «٢٤»



بلزاك

الملهاة الإنسانية

سرافيتا

قصة من الدراسات الفلسفية

ترجمة

ميشيل خوري



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب:

BALZAC.

La Comédie humaine

Séraphita

Études Philosophiques

الملهاة الإنسانية = La Comedie humaine / بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٢٠٨ص؛ ٢٤سم. - (روايات بلزاك؛ ٢٤).

المحتوى: سرافيتا: قصة من الدراسات الفلسفية.

١- ٨٤٣٫٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الموازي
٤- العنوان الثاني ٥- بلزاك ٦- خوري ٧- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٦٧٠/ ٤/ ٢٠٠٠

روايات بلزاك

« ٢٤ »

سرافيتا

الإهداء

إلى السيدة إفلين دي هانسكا

كونتيسّة رزويسكا

سيدتي :

هوذا المؤلَّف الذي طلبته مني . وأنا سعيد إذ أقدمه لك ، أني استطعت أن أمنحك دليلاً على المودّة الخالصة التي سمحت لي بأن أكنها لك .

إن أتهمت بالعجز ، بعد أن حاولت أن أقتلع من أعماق الصوفية هذا الكتاب ، الذي توخّى ، تحت شفافية لغتنا الجملية ، قصائد الشرق [1] الوضاءة ،

(١) - أشار بيير سيترون إلى أهمية الشرق في حلم بلزاك ، ولاحظ أن الحلم الملائكي يتنضد مع الحلم الشرقي ، فهما هناك مفاهيم رومنسية تنسب إلى طاقة الرغبة التي نعتقد بوجودها في النموذج الشرقي ، المطلق في الخير أو الشر ، وإلى الحبّ وظيفة محتملة مخلّصة . لكن إن كان الشرق يدعم حلم بلزاك الشهواني فهو يغذي أيضاً حلمه السحري ، فلا يقتصر فقط على القصص العربية الرائعة ، بل إن فيه أيضاً علم الطبيعة والحياة السامي الذي يعتقد أن مجوس فارس والهند قد وهبوه ومنهم يستمد فالثورن وبرينفهلد في المعمر المئوي أو دون جوان بلفيدير في اكسير الحياة الطويلة . المعرفة والقدرة . أما لويس لامبر فيعتقد أن كل أفكار الانسان محتواة في أدب الاغريق والعبرانيين والهنود ، كما أن سرافيتا تعرف مبادىء السحر المنتشرة في آسية والشرق أخيراً هو منبع الحلم الصوفي : الشرق المسيحي بلاد اللاهوت والملائكة والسيدة العذراء والطهر المقدس والشرق الاغريقي الافلاطوني بأسطورة الخنثى . والشرق الاسكندري حيث تمتّ توفيقية المذاهب السابقة فأعطت انتشاراً متميزاً للغنوصية .

فالخطأ خطؤك! ألم تأمريني بخوض هذا الصراع الأشبه بصراع يعقوب، بقولك لي إن أي رسم لهذا الوجه، مهما بلغ النقص فيه، بعد أن حَلمتِ به كما حلمت أنا منذ أيام الطفولة، سيكون بالنسبة لك شيئاً ما؟ هوّذا إذاً، هذا الشيء.

لماذا لا يمكن لهذا العمل أن ينتمي حصراً إلى تلك الأرواح النبيلة المصانة، كصيانة روحك، من الصغائر الدنيوية، بالعزلة؟ قد يجيد اولئك طبعه بالوزن الشجيّ المفقود، والذي يجعل منه بين يدي أحد شعرائنا الملحمة المجيدة التي ما تزال فرنسة تنتظرها. إنما سيقبله هؤلاء مني كأحد هذه الدرابزينات المنقوشة بيد فنان ملؤه الإيمان، درابزين درابزينات يعتمد عليها الحجاج ليجتلوا غاية الإنسان وهم يتأملون الهيكل في كنيسة جميلة

أنا، يا سيدتي، خادمك المخلص، فلكِ احترامي

دي بلزاك.

باريس ٢٣ آب ١٨٣٥

I

سرافيتوس

هل من مخيلة لا يملؤها العجب وهي تلقي نظرة على خارطة السواحل النرويجية [1]، لرؤية تلك الفجوات الغريبة ذات التخاريم الطويلة من الغرانيت حيث تزمجر أمواج بحر الشمال دون انقطاع؟ من لم يحلم بتلك المشاهد الجليلة التي تقدمها تلك الشواطىء دون رمال، وبذلك العدد الوافر من الخلجان الصغيرة، والأجوان، والجوينات، التي لا يشبه واحد منها الآخر، وكلّها لجج لا مسالك إليها؟ ألا يمكن القول إن الطبيعة قد راقها أن ترسم بأحرف هيروغليفية لا تُمحى رمز الحياة النرويجيه بإعطائها تلك السواحل مظهر اضلاع سمكة هائلة؟ لأن الصيد يشكّل النشاط الرئيس ويقدم تقريباً كل الغذاء لمجموعات الناس الملتصقين كبقع الحزازيات على هذه الصخور القاحلة. هناك وعلى مدى أربع عشرة درجة طول لا

(١) - كان بامكان بلزاك الاعتماد على عدة خرائط مستقلة للنروج وبلدان الشمال أو موجودة ضمن أطالس عامة أو كتب رحلات، منها على سبيل المثال: آ) رحلة إلى رأس الشمال في ثلاثة أجزاء لآسربي منشور في العام ١٨٠٤. ب) أطلس جميع أقسام العالم وضع من قبل برو يعود للعام ١٨٢٤ وفيه خارطة طبيعية للسويد والنروج جـ) كتاب الخرائط من إعداد مجموعة من الجغرافيين وفيه خرئط طبيعية ونباتية ومناخية منشور في العام ١٨٢٤ أيضاً. د) رحلة في أقسام العالم الخمسة لألبر مونتمون منشور في العام ١٨٢٨.

يصل عدد السكان لأكثر من سبعمئة ألف نسمة. وبفضل المخاطر الخالية من المجد، والثلوج المستمرة التي تدّخرها للمسافرين تلك القمم الحادة لبلاد النرويج التي يسبّب اسمها وحده الاحساس بالبرد، فإنّ مفاتنها السامية بقيت بكراً، تتناسق مع الظواهر الانسانية، البكر أيضاً في الشاعرية على الأقل، التي تمت خلالها القصة التي سنأتي على ذكرها (١).

عندما يكون أحد هذه الخلجان، وهو مجرد شقّ في نظر بطّ العَيْدَر، مفتوحاً بمقدار يتجمد فيه البحر كلياً وهو يتخبط داخل ذلك السجن من الحجر، فإن أبناء البلاد يسمون هذا الخليج الصغير «فيورد»: وهي كلمة عمل جميع الجغرافيين تقريباً على إدخالها في لغاتهم الخالّصة. ورغم التشابه الذي تبديه فيما بينها هذه الأنواع من الأقنية، فإنّ لكل منها مظهره الخاص: فالبحر يتغلغل إلى شقوقها في كل مكان، لكن الصخور تتشقق فيها بشكل متغاير وجروفها الصاخبة تتحدى التعابير الغريبة للهندسة: هنا الصخر قد تسنّن كمنشار وهناك موائده كثيرة الاستقامة لم تعان من إقامة الثلوج فوقها ولا من ذوائب شجرات التنوب الشمالية المهيبة. أما في مكان أبعد فنلحظ كيف دوّرت الكرة الأرضية بعض التعاريج اللطيفة، فشكّلت وادياً جميلاً تؤثثه، بتدرجات طابقية، الأشجار العاتمة الأغصان. منظر يغري بأن

---

(١) - بدأت منذ منتصف القرن الثامن عشر الاهتمامات بالسلتيين ولاقى كتاب «تاريخ السلتيين» (١٧٤٠ - ١٧٥٠) نجاحاً كبيراً وهو من تأليف بلوتيه، وتأسست في العام ١٨٠٣ أكاديمية سلتية في باريس وعمّت أشعار أوسيان كما انتشرت منذ نهاية القرن الثامن عشر الرحلات الى المناطق القطبية ونشر الكتب عنها، كما بدأت الدراسات الاركولوجية التي تذكرّ الاوروبيين بأنهم أبناء الغوت، والنورمان والإسكاندنافيين وجميع هؤلاء الجنود الشماليين الذين شتتوا غول الامبراطورية ودعت الصحف إلى عدم نسيان الأمم الشمالية الطبيعية بسبب الثقافة الواردة من الأمم الجنوبية - بلاد الأغريق - وظهرت مواضيع الشمال في الأدب ومنها القرصان لوالتر سكوت (١٨٢٢) وهان ايسلنده لفيكتور هوغو (١٨٢٣).
اختيار بلزاك لبلاد النروج موطناً لهذه القصة يتعلّق بالتناسب بين الأمكنة والأحداث والشخصيات فالتباين بين الظل والنور وصمت القمم وضجيج الأرض المستيقظة يتناسب مع روحانية الكائن المستنير المتوحد المندفع بالفكر نحو المستويات السامية حيث يتألق البياض وينتصب اللا متناهي الوضاء.

نسمي هذه البلاد سويسره البحار . يقع بين درونتهيم وكريستيانا [1]، أحد هذه الخلجان المسمى سترومفيورد؛ فإن لم يكن السترومفيورد أجمل هذه المناظر، فإنّ له على الأقل الفضل في تلخيص روائع النروج الأرضية، وأنه يستخدم كمسرح لعرض مشاهد قصة سماوية حقاً.

يبدو الشكل العام للسترومفيورد، للوهلة الأولى، بشكل قمع يشرمه البحر، ويبدي الممر الذي تشقه الأمواج للعين صورة صراع بين المحيط والغرانيت، وكل منهما مخلوق جبار هذا بجموده وذاك بحركيته. ولا أدلّ على ذلك من بعض الصخور التي يتكسّر عليها الموج وهي ذات أشكال خارقة، تمنع دخول المراكب إلى الفيورد، وليستطيع أبناء النروج البواسل أن يقفزوا بين الصخرة والأخرى في بعض الأماكن دون أن يخشوّا اللجة المزمجرة على عمق مئة قامة تحتهم وعرض ستة اقدام. وأحياناً ترتبط صخرتان حين يلقى فوقهما بقطعة واهية متزعزعة من حجر

---

(١) - دورنتهيم هي تروندهيم وفق الكتابات الحديثة، وكريستيانا هي أوسلو حالياً، وعائلة سويد نبرغ عاشت فيها مدة طويلة، وقد تردّد بلزاك مدة طويلة في موقع روايته، فقد استوحى أسماء بعض الأمكنة من قراءة رواية «نادوك الأسود أو قاطع طريق النروج» لڤان درڤليد كما استمد من الصحف اسم درونتهيم بمناسبة الحريق الذي شب فيها في العام ١٨٢٧ .

من الصعب تحديد المكان الموصوف في القصة بالضبط، فالنروج تمتد كما ذكر بلزاك على ١٤ درجة عرض أي بين ٥٨ و٧٢ درجة ودرونتهيم تقع على خط عرض ٧٣°، ويرد اسم «قبعة الجليد من قبل مينا» وهي تتوج فالبرغ في سلسلة دوڤر الواقعة على الدرجة ٦٢° في مستو مرفأ ألسند. ومن هذه الكتلة ينطلق نهر ليفلدالن الذي يصب في مندلفيورد الخليج المغلق بجزيرة بنيت عليها كريستيان ساند وهي مدينة مفصولة عن درونتهيم بشاطىء قفر. غير أن وصف بلزاك ينطبق أيضاً وبشكل أفضل على مشهد سونفيورد الواقعة على خط العرض ٦١° شمال مدينة برجن، والفيورد إلى جانبها عريض ويتقدّم إلى داخل الأرض ويتسع بشكل قمع نحو البحر المحاط بالجزر ويتحوّل وهو يتلوّى نحو اليمين فيقطع جبلاً ينخفض في الشرق متدرّجاً، بينما من الجهة الأخرى يمتد واد يتطاول نهر يرتبط بشكبة بحيرات حتى السلاسل الجبلية الفاصلة طولياً بين النروج والسويد، ويلاحظ أن الطريق الممتدة بين كريستيانا ودرونتهيم تدور حول الفيورد. سبق لبلزاك أن رسم على مخطوطته مخططاً تقريباً يتوافق مع المكان الذي سبق وصفه، والخلاصة أن بلزاك وجد في النروج نموذج البلاد المهيبة والباسمة، الملائمة لتلخيص الطبيعة والمتوافقة مع المواضيع الرمزية لروايته، لكنه بحذف أسماء الأمكنة الخاصة، يخلق في روايته وهم الفن

الغنايس الاستحالي، وأحياناً يلقي صيادو البرّ أو البحر باشجار تنوّب بشكل جسر يصل بين الضفتين المقطوعتين شاقولياً والبحر يزمجر دون انقطاع تحتهما. يتوجّه هذا المجاز الخطر نحو اليمين بحركة أفعوانية، حيث يصادف جبلاً ارتفاعه ثلاثمئة قامة عن سطح البحر. يشكل سفحه مصطبة شاقولية طولها نصف فرسخ، فلا يبدأ الغرانيت الصلب بالتحطّم، والتموّج إلا على ارتفاع مئتي قدم تقريباً فوق الماء. لكن الماء الداخل بعنف انما يرتد بالعنف ذاته بقوة، عطالة الجبل، نحو حوافه المقابلة حيث ارتكاسات الموج تطبع انحناءات بسيطة. كان الفيورد منغلقاً في نهايته بكتلة من الغنايس متوّجة بالغابات يسقط منها بشكل شلال جدول يصير نهراً مع ذوبان الثلج فيشكّل بساطاً مائياً واسعاً ينفلت بصخب فيقذف بأشجارالتنوب القديمة والأرزيات العتيقة التي لا تكاد ترى مع سقوط المياه؛ فهذه الاشجار الغاطسة بعنف في عمق لجّة الخليج تظهر مجدداً على سطحه فتتلاقى لتشكل جرزاً صغيرة ثم تمضي لتتهاوى على الضفة اليسرى، حيث يعثر عليها سكان القرية الصغيرة الجاثية قرب ستروم‌فيورد محطمة، مهشمة، وكاملة أحياناً، لكنها عارية دائماً ودون أغصان. يسمى الجبل الذي يتلقى في ستروم‌فيورد هجمات البحر على قدميه وتقصف قمته عواصف الشمال: فالبرغ [1]، فعرفه المغطى دوماً بعباءة من ثلج وجليد، هو الأكثر حدّة في النروج.

أما مجاورته للقطب فتولد على ارتفاع ألف وثمانمئة قدم برداً معادلاً لبرد الجبال الأكثر ارتفاعاً في العالم. وأمّا قمة تلك الصخرة، المتجهة صوب البحر فتنخفض تدريجياً نحو الشرق لتتصل بشلالات لا يسيغ عبر وديان متدرجة حيث لايسمح البرد إلا بنموّ الخلنج وبعض الأشجار العجفاء. والقسم من الفيورد الذي تنطلق منه المياه تحت أقدام الغابة يسمى سيغد الهن، والكلمة يمكن ترجمتها بسفح

---

(١) – أسماء فالبرغ وجرفيس تدفع إلى التفكير ببعض الأسماء الألبية مثل أرلبرغ وهو ممر جبلي في التيرول النمسوية بين بال وانيسبروك، وممر فالبرغ على الحدود بين فرنسة وايطالية وممر تارڤيس بين النمسة وإيطالية. ولعل بلزاك قد استوحى من المناظر التي رآها في سويسره أثناء رحلة إلى جنيف مع المركيزة دي كاستري العام ١٨٣٢ وإلى نيوشاتل مع السيدة هانسكا في العام ١٨٣٣ ومن بعدها إلى جنيف.

السيغ وهو اسم النهر والانحناءة التي تواجه موائد فالبرغ هي وادي جرفيس، وهو منظر جميل تسيطر عليه هضاب مكسوة بالتنّوب والأرزيات، والبتولا، وبعض أشجار السنديان والزان؛ انه المنظر الأغنى والأكثر ألواناً من جميع البسط التي نشرتها طبيعة الشمال فوق تلك الصخور الوعرة. يمكن للعين أن تقع فيها بسهولة على الخط الذي تبدأ منه الأراضي المسخّنة بالأشعة الشمسية بتحمّل الزراعات فتسمح بظهور النباتات النروجية والخلنج في ذلك المكان على درجة من العرض تجعل مياه البحر المرتدة بالفالبرغ تتلاشى وهي تهمس فوق آخر هدب من تلك الهضاب، وهو شاطىء ذو حافة رملية ناعمة تناثرت عليها شذرات الميكا، والحصى الجميلة، والبورفير الأحمر، والرخام المتعدّد الألوان وقد نقلت مياه النهر حصاه من السويد عدا ما يتتشر على هذا الشاطىء من حطام بحري، وقواقع وازهار بحرية جرفتها العواصف سواء من القطب أو من الجنوب.

في أسفل جبال جرفيس تقبع القرية المؤلفة من نحو مئتي بيت من الخشب، حيث يعيش سكان ضائعون هنا، كما تضيع قفائر نحل في غابة، وهم يواصلون العيش دون أن يتزايدوا أو يتناقصوا ساعين وراء تحصيل معيشتهم من قلب تلك الطبيعة المتوحشة. ويلقى الوجود المنسي لهذه القرية تفسيره بسهولة، فقلائل من الرجال اقدموا على المغامرة بعبور الأرصفة ليصلوا إلى شواطىء البحر سعياً وراء صيد السمك الذي يقوم به النروجيون بشكل موسّع على شواطىء أقل خطورة. أما الأسماك العديدة في الفيورد فتكفي جزئياً لغذاء السكان، ومراعي الوديان تؤمن لهم الحليب والزبدة. وبعض الأراضي الخصبة تتيح لهم زراعة الجاودار، والقنب، والبقول، التي يعرفون كيف يحمونها من قساوة البرد وحدة الشمس، العابرة إنّما الرهيبة، وذلك بالمهارة التي يبديها النروجي في ذلك الصراع المضاعف. إن سوء المواصلات سواء البريّة منها حيث الطرقات غير سالكة أو البحرية حيث الزوارق الصغيرة فقط يمكنها التجوّل وحدها عبر المضائق البحرية للفيوردات قد منعتهم من

الإغتناء بالاستفادة من أخشابهم [1]. فتلزمهم مبالغ هائلة لتنظيف قناة الخليج كما لفتح طريق عبر أراضيهم فكافة الطرقات من كريستيانا إلى درونتهيم تلتف حول السترومفيورد، وتعبر السيغ فوق جسر واقع على بعد عدة فراسخ من شلاله، والسفح بين وادي جرفيس ودرونتهيم مكسو بغابات كثيفة وعرة المسالك. أخيراً تتجلى فالبرغ وهي منفصلة عن كريستيانا ببعض الجروف السحيقة، ولربما كان بوسع قرية جرفيس أن تتصل من الداخل بالنروج والسويد بنهر السيغ. لكن لأجلِ أن يتصل السترومفيورد بالحضارة يلزمه رجل عبقري، وقد ظهر هذا العبقري فعلاً في شخص شاعر، سويدي متدين [2] توفي وهو يتغنى باعجاب بجمالات هذه البلاد ويظهر لها أكبر تقدير باعتبارها واحدة من أعمال الخالق الأكثر سحراً.

أما الآن فالناس الذين وهبتهم الدراسة تلك الرؤية الداخلية التي تجلب احاسيسها النشيطة لداخل الروح، تارة فأخرى، المناظر الأكثر تضاداً على الكرة الأرضية، مثلما تجلبها فوق لوحة يتمكنون بسهولة من الأحاطة بمجموع سترومفيورد، وربما عرفوا وحدهم أن يدلفوا إلى تلك الأرصفة المتعرّجة في المجاز، حيث يتخبط البحر، ويهربوا مع أمواجه على طول الموائد الخادة لفالبرغ الذي تختلط أهراماته البيضاء مع السحب الضبابية لسماء رمادية على الدوام بلون اللؤلؤ

---

(١) - يمكن لبلزاك أن يجد معلومات تقنية تتعلق بالنواحي الاقتصادية - الصيد وغذاء الأسماك والمنتجات اللبنية والزراعة في الوديان الخصبة وتدرّج الأنواع النباتية والأشجار الحراجية وفق خطوط العرض، والمرور المفاجىء من البرد الأكثر قساوة إلى الحرّ الشديد أحياناً، وذلك في كتاب الخرائط المطبوع العام ١٨٢٤ لدى رنار في باريس وهو كتاب جغرافي - اقتصادي - أدبي - اداري.

(٢) - انه سويد نبرغ جان بيترزون (١٦٨٨ - ١٧٧٢) وكان يدير في السويد بناء هويسات بحيرات فنير وغوتمبورغ، والأعمال الهيدروليكية في ترولهوتا، ونقل المدفعية الضخمة السويديه على مشارف أسوار فردريشل حيث لقي شارل الثاني عشر الموت. فسويد نبرغ قبل أن يكون من المنورين أصحاب الرؤيا، انصرف إلى العلوم الفيزيائية والطبيعية وعبر عن موهبة في الاعمال التكنولوجية، ولا شك أن بلزاك قد رأى صوراً ليتوغرافية تمثل هويسات القناة الممتدة على مساقط ترولهوتا على نهر غوتا الذي يخرج من بحيرة فينر، ويصب في بحر الشمال، فهذه الصور موجودة في كتاب «رحلة إلى رأس الشمال» تأليف ج. آسري وقد أشاد المؤلف في الكتاب المذكور بهذا الإنجاز الذي لو تويج فيما بعد لوصل بحر الشمال ببحر البلطيق.

تقريباً، ويتأملوا بإعجاب بساط الخليج المثلم، ويسمعوا فيه شلالات نهر السيغ الذي يتدلى كشبكات طويلة ويسقط على جذوع رائعة من أشجار جميلة متناثرة دون ترتيب، منتصبة أو مختبئة بين شظايا من صخور الغنايس. ثم يستريحوا بتأمّل اللوحات الضاحكة التي تقدّمها هضاب جرفيس المنخفضة حيث تتسامق أغنى نباتات الشمال: على شكل فصائل، وبأعداد لا تحصى: هنا البتولا اللطيفة الفاتنة مثل الصّبايا المتمايلة، وهناك ارتال أعمدة من أشجار الزان بجذوعها المعّمرة المكسوة بالطحالب. كل التباينات بمختلف ضروب الخضرة، والسحب البيضاء تتخلل بين أشجار التنّوب القاتمة والأراضي البراح تعج بالخلنج ارجوانية متلونّة إلى ما لا نهاية، وأخيراً جميع الألوان، وجميع العطور لذلك الثراء النبّاتي ذي الأعاجيب المجهولة.

زيدوا في أبعاد تلك المدرّجات، وانطلقوا نحو الغيوم، وتيهوا بين فجوات الصخور حيث تستريح كلاب البحر، فإن أفكاركم لن تبلغ ثراء ذلك الموقع النروجي ولا شاعريته أيستطيع فكركم أن يكون بمثل سعة المحيط الذي يكتنفه؟ وبمثل نزوات الأشكال الساحرة التي ترسمها غاباته، وغيومه، وظلاله، وتغيّرات أنواره؟ أترون فوق مروج الشاطىء، على الثنية الأخيرة التي تتموّج في أسفل هضاب جرفيس العالية، نحو مئتي أو ثلاثمئة منزل مغطاةٌ بالنوفر، وهي أغطية سقوف أعدت من لحاء جذوع أشجار البتولا، بيوتاً هشّة كلها، مسطحة وتشبه دود الحرير، على ورقة توت أخضر القت بها الرياح هناك؟ في أعلى تلك المجموعة من البيوت المتواضعة، الساكنة، ارتفعت كنيسة مبنية ببساطة تتوافق مع بؤس القرية. وهناك مقبرة تحيط بصدر الكنيسة، وعلى بعد قليل منها يقوم منزل الكاهن. وأعلى من ذلك بقليل، على حدبة من الجبل، يقع مسكن، هو المبنى الوحيد في القرية المشاد من حجر، ولهذا السبب سمّاه السكان القصر السويدي. والواقع أن رجلاً غنياً وفد من السويد، قبل ثلاثين سنة من أحداث هذه القصة فأقام في جرڤيس. جاهداً أن يحسّن الثروة فيها، فهذا البيت الصغير، وقد بني بهدف تشجيع السكان على بناء بيوت مماثلة له، كان متميزاً بمتانته، وبجدار سور حجري وهو أمر نادر في

النروج، فرغم توفر الحجارة بكثرة يستخدم الناس الخشب للتسوير حتى تلك التي تحيط بالحقول. كان البيت المحصن ضد الثلوج يرتفع فوق تلّة وسط باحة فسيحة، اما النوافذ فمسقوفة بتلك الأفاريز ذات البروز العريض المستندة على تربيعات من جذوع التنّوب تضفي على ابنية الشمال مظهراً جليلاً[1]. من السهل على المرء أن يلاحظ تحت تلك الملاجىء عري فالبرغ الوحشي، وان يقارن لا نهاية البحر الواسع بقطرة مياه الخليج المزبد، وان يصغي إلى دفقات نهر السيغ الواسعة الذي يبدو بساطه من بعيد ساكناً وهو يتهاوى في سريره الغرانيتي المحاط حتى ثلاثة فراسخ على استدارته بجليديات الشمال، وأخيراً بكل المشهد الذي ستجري فيه الأحداث الفائقة للطبيعة والبسيطة لهذه القصة.

كان شتاء ١٧٩٩ – ١٨٠٠ من أقسى الفصول التي انطبعت في ذاكرة الأوروبيين، وقد تجمّد بحر النروج كلياً داخل الفيوردات حيث من المألوف أن يمنعه عنف الأمواج المتلاطمة من التجمد، وكانت الريح المماثلة في تأثيراتها للرياح الاسبانية الشرقية تكنس جليد ستروموفيورد فتدفع بالثلوج نحو لجة الخليج. ولم يتح منذ مدة طويلة لسكان جَرفيس أن رؤوا في الشتاء مرآة المياه الواسعة تعكس ألوان السماء، وهو مشهد يثير الفضول في حضن تلك الجبال حيث طمست العوارض الارضية تحت طبقات متتابعة من الثلج[2]، وحيث لم تعد تشكل النتوءات الأكثر

---

(١) – هذا النوع من البيوت الخشبية، دون طوابق المكسو ببساط أخضر ينتشر في عموم البلاد الاسكندينافية وتنتشر صوره في كتب ومجلات ذلك العصر ومنها صورة لقرية في لابونية منشورة في مجلة «لوفولور» التي كان بلزاك يتعاون معها في شباط ١٨٣٠ وهي تمثل قرية وكنيستها في أعلى الهضبة، وكذلك تبدو في كتاب «سوينسك فولكت» قرية ببيوتها الصغيرة ذات السقوف المغطاة بالقش أيكون قصر سرافيتا بناءً سويدياً؟ أنه يتميز بصلابته وسوره الحجري وأفاريز نوافذه البارزة. يلاحظ في صور عن فنلندة وسط أحراج التنوب قرية ببيوت من خشب تحيط بها حظائر تميل نحو أسيجة البيوت، كما تلاحظ في ايسلندة إلى جانب البيوت الخشبية، أبنية أكثر أهمية من الحجر وهي طابقية تعلو نوافذها أفاريز وهي وسط باحة واسعة مسوّرة.

(٢) – يشير ج. آسري إلى الإنطباع نفسه مبدياً دهشته من شفافية الجليد الفائقة حيث يشكل فوق مياه النهر مرآة مصقولة، وهو مظهر ناتج عن الريح التي تكنس الثلج وشمس نيسان التي تصقل السطح.

حدّة والوديان الأكثر عمقاً سوى طيّات ضعيفة في ذلك الرداء الذي كست الطبيعة به تلك المناظر التي تبدو رتيبة وباهرة بشكل حزين، أما أسمطة نهر سيغ المتجمدة فجأة فترسم قوساً هائلاً يمكن للسكان أن يمروا تحته بمنأى عن العواصف إذا ما تجرأ أحدهم فغامر وانطلق بعيداً إلى الداخل. لكن أخطار أيّة رحلة مهما قصرت احتجزت في المنازل القناصين الأكثر جرأة، الذين خافوا ألا يتعرفوا تحت الثلج على الممرات الضيّقة المجاورة للهوّات أو الشقوق أو المنحدرات الصعبة [١]، وهكذا فما من مخلوق يتحرّك ضمن هذه الصحراء البيضاء حيث تسود الريح القطبية، وهي الصوت الوحيد الذي يعصف في لحظات نادرة، كانت السماء الرمادية بشكل شبه دائم تعطي للبحيرة ألوان الفولاذ الكامد، وقد يعبر أحياناً طائر من بطّ «ايدر» الفضاء بسلام متسربلاً بزغبه الدافىء الذي تنزلق تحته أحلام الأغنياء الذين لا يعرفون كم من المخاطر يكلفه هذا الريش [٢]؛ لكنه يبدو كالبدوي الذي يعبر وحيداً رمال الصحاري الإفريقية، فالطير لم يرُ ولم يسمَع. في هذا الجو الخَدِر المحروم من الاتصالات الكهربائية. الذي لا يردّد خفق أجنحته، ولا صرخاته الفرحة. أيّ عين متوقدة يمكنها مع ذلك أن تتحمل بريق تلك الهوة المزّينة ببلورات تتوهج، وبالانعكاسات المبهرة للثلوج وهي تكاد لا تتقزّح إلا عند قممها بأشعة شمس

---

(١) - سجلّ جميع رحّالة ذلك الزمن غزارة وتنوّع الشلالات في البلاد الاسكندينافية، وبالنسبة للمنطقة التي تخصّ روايتنا فإن «الأطلس المصوّر» يبين شلال أوغلفوس في مقاطعة برغن، ولرفوس الصغير قرب درونتهيم، ومنظراً قريباً من آلتن على المحيط المتجمد ينطبق في وصفه على ما ذكره بلزاك «خضرة أشجار البتولا، والعشب، ومسقط ماء بشكل أبسطة، وجبال بشكل مدرّج تتغطّى قممها بالثلوج». لكن النموذج الأكثر دقة يوجد في فنلندة وليس في النروج ويبدو أن بلزاك يحوّر هنا وصفاً ذكره ج. آسري عن شلال نهر كيرو قرب قرية ارفنكيل «كان الماء يتفلّت من عقود هائلة من الجليد مهدّبة ومشكوكة بآلاف الأشكال البلورية، وكانت قسوة البرد من الشدة بحيث أن الأبخرة أو إن صح القول، هذا النوع من الغبار الرطب الذي تنثره حركة المياه في الجو يتجمد ويشكل جسوراً حقيقية من الجليد فوق التيار يمكن اجتيازها دون خشية، والأمواج المتصادمة تحتها تضرب بعنف جوانب هذه الجسور وتنبثق فوقها مشكلة سطحاً منزلقاً يضطر الفلاحون إلى العبور عليه زحفاً على بطونهم. كما أن صخور الجليد تشكل من وقت الى آخر عقوداً، فالماء، الابخرة المتجلّدة تتجمع بحيث تشكل جسرين يتجرأ السكان بالمرور فوقهما.

(٢) - الواقع أن لحاف الريش هو «الغطاء المألوف» لدى سكان المناطق الشمالية.

شاحبة كانت تبدو للحظات كمريض مدنف تمسك بحياته؟ كان يحدث غالباً عندما تحجب السماء كتل الغيوم الرمادية، المطرودة كالسرايا عبر الجبال والغابات، تحت سترُ ثلاثية أن تستضيء الأرض من ذاتها. هنالك إذا يصادف البرد بكافة أشكال جلالته وهو مستقرّ أبدياً على عرش القطب اما سمته الرئيسة فالصمت الملكي الذي يعيش فيه الحكام المستبدون. إن كلّ مبدأ متطرّف يحمل في ذاته مظهر النّفي وعلائم الموت: أليست الحياة صراعاً بين قوّتين. فليس هنالك ما يغدر بالحياة. قدرة واحدة تسود دون معارضة هي قوة الجليد غير المنتجة [1]، فحتى ضجيج البحر الواسع الهائج لا يصل إلى ذلك الحوض الأخرس الصاخب خلال الفصول الثلاثة القصيرة، حيث تستعجل الطبيعة بإنتاج المحاصيل الهزيلة الضرورية لحياة ذلك الشعب الصبور، وترفع بعض أشجار التنوب العالية أهراماتها السوداء المثقلة بأكاليل ثلجية، أما شكل فروعها ذات الأغصان المتدلية كاللحى فيتمم حداد تلك القمم، حيث تظهر مع ذلك كأنها نقاط داكنة. كانت كل عائلة قد لزمت جوار النار في منزل مغلق بعناية، وتموّنت بالبسكويت والسمن السائل، والسمك المجفف والمؤونة المعدة مسبقاً لأشهر الشتاء السبعة. ويكاد دخان هذه المنازل لا يرى، فجميعها مدفونة تقريباً تحت الثلوج التي تتقي ثقلها مع ذلك بأخشاب طويلة تمتد من السقف لترتبط على مسافة بعيدة بأعمدة صلبة مشكلة طريقاً مسقوفة حول المنزل وخلال تلك الشتاءات الرهيبة كانت النساء يحكن الصوف أو النسيج ويصبغن الأقمشة ليصنعن منها الملبوسات، بينما ينصرف معظم الرجال إلى القراءة أو الى تلك التأملات الخارقة التي ولّدت النظريات العميقة وأحلام الشمال الصوفية، ومعتقداته، ودراساته الكاملة جداً حول نقطة محدّدة من العلوم حتى كانما ينقّب

---

(١) - يقول ج. آسري: «مايثير عند الوصول إلى أطراف الأرض هو غياب الحياة، فكل شيء منعزل، وعقيم، وحزين يولد القنوط، وحتى زقزقة الطيور في غابات لابونية لاتسمع في هذا المكان المنعزل، الصوت الوحيد الذي يصل إلى الأذن هو هدير الأمواج مهاجمة دون انقطاع الكتل التي تجابه ضرباتها المضاعفة وذكريات مشاغل الناس واهتماماتهم تبدو كالحلم، بل تكاد تنسى طاقة الطبيعة النشطة وأشكالها المختلفة.

فيها بمسبار؛ طبائع نصف رهبانية تلزم الروح بأن تعكف على نفسها، فتعثر فيها على غذائها، وتجعل من الفلاح النروجي كائنا مختلفاً عن السكان الأوروبيين. تلك كانت، في السنة الأولى من القرن التاسع عشر، وفي منتصف شهر آب؛ حال السترومفيورد.

في صبيحة يوم كانت الشمس تلتمع فيه، في قلب هذا المشهد، موهّجة بريق كل الألماسات العابرة، الناتجة عن تبلوّرات الثلج والجليد، مرّ شخصان على الخليج فعبراه وطارا على طول قواعد فالبرغ، فارتفعا نحو القمة من إفريز إلى إفريز. أهما مخلوقان؟ أم هما سهمان؟ من يراهما على هذا العلو يحسبهما بطتي «إيدر» تقصدان سربهما عبر الغيوم. فلا الصيّاد الأكثر تطيّراً، ولا القناص الأكثر جرأة، يمكن أن ينسب إلى مخلوقات بشرية القدرة على الثبات وفق تلك الخطوط الضعيفة المرسومة على سفوح الغرانيت، حيث ينزلق هذان الشخصان مع ذلك بالمهارة المرعبة التي يمتلكها السائرون في نومهم، عندما ينسون جميع شروط ثقالتهم ومخاطر أقل انحراف، فيركضون على حواف السطوح محافظين على توازنهم بفعل قوّة مجهولة.

قالت الفتاة الشاحبة: «أوقفني يا سرافيتوس، ودعني التقط أنفاسي؛ فلم أشأ أن أشاهد أحداً غيرك وأنا أحوّم حول أسوار تلك الهوّة، وإلا ماذا كان سيحلّ بي؟ أأتعبك وأنا المخلوقة الضعيفة؟

- قال الكائن الذي تستند على ذراعه: «كلا، فلنتقدم دائماً يامينا! فمكان وجودنا ليس متينا بما يكفي لنتوقف عليه».

انطلق الأثنان مجدّداً والألواح الطويلة المربوطة بأرجلهم تحدث صفيراً على الثلج، فوصلا إلى أوّل وطيدة رسمتها الصدفة بشكل واضح على سفح تلك الهوّة. استند الشخص الذي نادته مينا باسم سرافيتوس على عقبه الايمن ليرفع لوح الدف الذي يبلغ طوله نحو قامة والضيق كأنّه قدم طفل وقد كان مربوطاً بمداسه برباطين من جلد كلب البحر. هذا اللوح بسماكة إصبعين كان مبطناً بجلد الرنة،

وقد أوقفت أشعار هذا الجلد باحتكاكها بالثلج سرافيتوس فجأة. ثم جرّ قدمه اليسرى التي لا يقلّ طول مزلجها عن قامتين، فدار بسرعة حول نفسه، وأمسك برفيقته الوجلة، فرفعها رغم طول المزلجين المثبتين [1] بقدميها وأجلسها على حافة صخرة بعد أن أزاح الثلج بطرف فروة عباءته وقال لها: «أنت هنا في أمان يامينا، ويمكنك أن ترتعشي كما تشائين».

قالت وهي تنظر إلى القمة: «لقد وصلنا إلى ثلث ارتفاع جبل **طاقية الجليد**[2]، أكاد لا أصدق ذلك!» ولقد اطلقت على تلك القمة التسمية الشعبية المعروفة في النروج.

كانت منبهرة الأنفاس حتى لم تقو على مزيد من الكلام، وابتسمت لسرافيتوس، الذي كان يمسك بها دون أن يجيب، ويده موضوعة على قلبها وهو يستمع إلى وجيبه المرنّ المتسارع كخفقات قلب فرخ طائر قبض عليه فجأة.

قالت: إنّه يخفق غالباً بسرعة دون أن أكون قد ركضت.

أحنى سرافيتوس رأسه دون استخفاف أو برود، ورغم الرّقة التي بدت في هذه الحركة شبه العذبة، فإنّها لم تخف إنكاراً لو صدر عن المرأة لبدا بمثابة دلَع فاتن.

ضمّ سرافيتوس الفتاة بحرارة. واعتبرت مينا هذه الملاطفة بمثابة جواب، فاستمرت في تأمله، وفي اللحظة التي كان سرافيتوس يرفع رأسه فيها، وهو يردّ

---

(١) - قرأ بلزاك في عدة مؤلفات وصف التزلج والزلاجات وهو يستند هنا على ما كتبه مالت - برون الذي تحدّث عن وجود فرقة عسكرية في النروج يطلق عليها اسم: «المتزلجين - الراكضين» يربطون في أرجلهم أخشاباً طويلة وضيّقة للانزلاق على الجليد؛ وهما خشبتان بعرض اليد وثخانة الإصبع، محفورتان قليلا من الأسفل، لمنع الترنّح وللانطلاق بخط مستقيم، طول اللوح المربوط بالقدم اليسرى عشرة أقدام واللوح المخصص للقدم اليمنى ستة أقدام، وهما يربطان بالأرجل بسيور من جلد وأطرافهما من الخلف والأمام مرتفعة ويبّطنان غالباً بالجلد، كما أن اختلاف طول اللوحين يساعد الشخص على الدوران وتغيير الاتجاه.

(٢) - طاقية الجليد: هو فعلاً اسم قمة عالية مشهورة بقيعتها الجليدية كنقطة عالية في النروج.

إلى الخلف بحركة شبه متلهفة خصلات شعره الذهبية المجعّدة ليكشف عن جبينه، أبصر عندئذ علائم السعادة في عيني رفيقته.

قال بصوتٍ، في لهجته الأبوية جاذبية خاصة بالنسبة لكائن ما يزال يافعاً:

«نعم، يامينا، انظري إليّ، لا تخفضي بصرك».

– لماذا؟

– تريدين معرفة ذلك؟ حاولي.

ألقت مينا نظرة سريعة على قدميها، وصرخت فجأة كطفل واجه نمرا، فالشعور الرهيب باللجة قد انتابها، وكانت تلك النظرة كافية لتبث فيها العدوى. فالفيورد الغيور من فريسته، كان ذا صوت جهوري فأصابها بالدوار وهو يرن في أذنيها، كأنه يريد افتراسها بطمأنينة أكبر، وهو يحول بينها وبين الحياة. ثم شعرت بقشعريرة باردة تسري من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها ثم امتدت على طول ظهرها، لتصبَّ سريعاً في أعصابها حرارة لا تُحتَمل، فنبضت بشدة في عروقها وجمدَّت جميع أطرافها بومضات كهربائية كتلك التي تصدر عن ملامسة رعّادة[1]

كانت أضعف من أن تقاوم فشعرت أنها منجذبة بقوة مجهولة إلى أسفل تلك المائدة حيث خيّل إليها أنها ترى وحشا رهيباً يطلق عليها سمّه. وحشاً بأعين مغناطيسية، يبدو شدقه مفتوحاً كانه يسحق فريسته سلفاً.

قالت وقد بدرت منها حركة ميكانيكية لترمي بنفسها: «إنني أموت ياحبيبي سرافيتوس، من غير أن أهوى سواك».

ونفخ سرافيتوس برفق على جبينها وعينيها؛ فبدت فجأة كمسافر تمتَّع بحمام منعش من بعد وعثاء السفر ولم يعد فيها من الآلام الحادة إلا ذكرياتها، بعد أن انقشعت بتلك الأنفاس الملاطفة التي تغلغلت إلى روحها وأفعمتها بفوحانها البلسمي بمثل سرعة انتشار النسمة في الهواء.

---

(١) – الرعادة: جنس سمك بحري مكهرّب إذا مسّه الانسان يخدر يده ويرتعد ما دام السمك حياً.

قالت وشعور من الرعب العذب يداعبها: «من عساك تكون؟ ولكنني أعرف، فأنت حياتي - ثم تابعت بعد توقّف قليل: «وكيف يمكنك أن تشاهد هذه الهوة دون أن تموت؟».

ترك سرافيتوس مينا متشبثة بالغرانيت، وكما يفعل شبح أو ظلّ راح فاستقر على حافة المائدة، حيث غرقت عيناه في عمق الفيورد متحدياً عمقه المذهل. لم يترنح جسمه البتّة، وبقي جبينه أبيض غير متأثر كأنه تمثال من رخام: لجّة تقابل لجّة.

هتفت الفتاة: «سرافيتوس! إن كنت تحبني فعُد، فتعرّضك للخطر يعيد إليّ الآمي». ثم سألته بعد أن شعرت من جديد أنها بين ذراعيه: «من أنت، لتكون لك هذه القوة التي تفوق قوة البشر وأنت في هذا العمر؟»

أجاب سرافيتوس: «ولكنك تنظرين دون خوف إلى مسافات شاسعة أكثر بكثير». وبإصبعه المرفوع دلّها ذلك الكائن الفريد على الهالة الزرقاء التي رسمتها السحب حين تركت فوق رؤوسهم مساحة جليّة شوهدت فيها النجوم خلال النهار بفضل قوانين مناخية ما تزال غامضة [1].

---

(١) - الهالة هي هنا تأثير طبيعي ما يزال دون تفسير، ولنا أن نتساءل إن كان بلزاك قد قرأ في «المجلة المصورة» العام ١٨٣٣ هذ المقال «طيف بروكن» الناتج عن هذه المظاهر المحرضة بواسطة الغيوم: «نرى أحياناً ظلاً تلقيه الشمس المشرقة أو الغاربة على كتلة من الأبخرة البيضاء. المارة على مسافة ما، لكن رأس الظل يكون في أكثر الأحيان محاطاً بحلقة من أشعة منيرة، وغالباً ما يكون هذا الشكل الهوائي أصغر من شكله في الطبيعة، فمقاييسه وأبعاده الظاهرية تتعلق بالظروف المحلية» وكل واحد يرى ظلّه مسقطاً على الغيوم: «ترى الذراعان والرجلان والرأس؛ ولكن ما يدهشنا هو أن هذا القسم الأخير مزيّن بهالة من ثلاثة أو أربعة حلقات تيجانية صغيرة متراكزة ذات لون شديد الحيوية، كل منها بذات تغيّرات قوس قزح. . . أخيراً وعلى مسافة كبيرة نشاهد دائرة واسعة بيضاء تحيط بالجميع. إنّها تبدو وكأنها تمجيد لكل مشاهد.

عندما يبدأ سرافيتوس ومينا بالصلاة، فإن التأثير المناخي يبدو رمزياً؛ وفي لحظة صعود السرافيم يوجد اتصال مع النور الالهي، فالإشعاع المنبثق من رأس الشخصيات البلزاكية أو البريق الذي يحيط بها يرد من الإسقاط المغناطيسي للفكر أو للروح: تأثير فيزيولوجي أو غازي؟! فسرّت الظاهرة بطريقة مستعارة من الرسّامين، لكن بلزاك ينسبها إلى المذهب الغنوسي في «الروح - النور».

قالت مبتسمة: «ياللفرق!»

– أجاب: «أنت على حقّ، لقد ولدنا لنهفو إلى السماء، والوطن كوجه الأم لا يروّع الطفل أبداً».

كان صوته يرن في حنايا رفيقته التي لزمت الصمت. وقال أخيراً: «هيّا تعالي».

انطلق الاثنان في الشعاب الضيقة المرسومة على طول الجبل، وهما ينهبان المسافات ويطيران من طابق إلى طابق، ومن خطّ إلى خطّ، بالسرعة التي وهبت للحصان العربي، وهو طائر الصحراء. وبعد فترة وصلا إلى بساط عشبي تغمره الخضرة والأزهار، حيث لم يسبق لأحد أن جلس عليه فقالت مينا: «ياللسلُّر الجميل [1]، ولكن كيف له أن يقع على هذا الارتفاع؟

قال سرافيتوس: صحيح أن الحياة النباتية النروجية تتوقف لكن إن وقع المرء على شيء من الأعشاب والأزهار فالفضل لتلك الصخرة التي تحميها من برد القطب.

– ثم قال وهو يقطف زهرة: «ضعي هذه الباقة في صدرك يا مينا، خذي هذه المخلوقة العذبة التي لم ترها عين إنسان من قبل، واحفظي هذه الزهرة كذكرى لهذا الصباح الوحيد في حياتك! فأنت لن تجدي بعد الآن دليلاً يوصلك إلى هذا السلُّر.

وقدم لها فجأة نبتة هجينة لمحتها عيناه المماثلتان لعيني نسر بين النمنمات

---

(١) –السلُّر SOELER أو الستِر: كلمة شمالية اعتبرها بلزاك معبرة عن «مرج طبيعي بكر في أعلى القمم» بينما هي في الواقع تطلق على مسكن صغير يتألف من اسطبل وغرفة صغيرة مخصصة لحفظ الحليب وصنع الزبدة والجبن، وغرفة الاقامة، وهذا البيت المتواضع محاط بحقل يخصص كمرعى لقطيع صغير تحرسه امرأة أوالجزّ أعشابه لحفظها كعلف للشتاء في الوديان. وهذا الاستعمال ناتج عن ضرورة تأمين العلف لماشية المنطقة، وهو ما يزال مستمراً، لكن طريقة الاستثمار قد تطورت وتحدثت. بحذف وجود المسكن والأثر البشري، جعل بلزاك موقعاً سحرياً ما هو واقع صنعة فلاّحية.

النجمية، وكواسر الحجر [١]: زهرة هي أعجوبة حقيقية متفتحة تحت نَفَس الملائكة. أمسكت مينا، بتلطّف طفولي، بالباقة ذات الخضرة الشفّافة واللّماعة كأنها زمردة وهي مشكلة من أوراق صغيرة ملتفّة كبوق ذات لون بني فاتح في الأسفل لكنها تنتقل من لون إلى لون إلى أن تنتهي إلى الخضرة في رؤوسها المقسمّة إلى تخريمات ذات دقة لا متناهية. كانت تلك الأوراق متراصّة إلى حد بدت معه مختلطة فشكلت مجموعة من النجميات الجملية وعلت هنا وهناك فوق ذلك البساط أنجم بيضاء تطرز جوانبها شبكة ذهبية وتبرز من قلبها مآبر أرجوانية دون مدقة وفاحت اخيراً رائحة هي مزيج من عطر الورود وأزهار البرتقال [٢]، لكنها بريّة جفولة، فشملت تلك الزهرة الغامضة بشيء لا يدرك كنهه من السرّ السماوي؛ وقد راح

---

(١) - النمنمات النجمية: نوع زهر من الفصيلة القرنفلية لا ساق ظاهرة له" وكاسر الحجر نبتة عشبية تنمو بين الصخور خاصة وتتميّز بتعدّد بتلاتها التويجية.

قدّمت المعلومات عن الأزهار النروجية من قبل العالم النباتي بيرام دي كاندول وقد قابله بلزاك في جينف في نهاية شهر كانون أول ١٨٣٣ ووجّه إليه رسالة شكر في ٥ آذار ١٨٣٤ في الفترة التي استأنف فيها كتابته.

(٢) - يبدو أن بلزاك مغرم بالتعبير بالزهر عن الرموز ففي فالثورن تظهر زهرة خارقة قال عنها «في يديه دائماً العديد من الأزهار، وهذه التي منحها تنشر عطراً هو من التأثير بحيث يواسي التعساء إذا أنهم ينسون حياة الشقاء عند شمّه».

أما فكرة الزهرة الوحيدة واختيارها فيبدو أن بلزاك استوحاها أيضاً من قصة رحلة. ج. آسربي الذي يذكر أنه رأى في فنلندة في أجمة وبين أشجار التنوّب المحيطة بكنيسة كيمي نبتة نادرة هيCYPREPEDIUM BULBOSUM لم يرها أحد من قبل إلا رودبك في ١٦٨٥ وأن لينة ذاته لم يتمكن من دراستها لأنه وصل بعد فصل إزهارها.

تبدو الرمزية في هذه الزهرة على عدة مستويات: فهي غريبة كسرافيتا «الزهرة البشرية اللغز التي قدمتها لنا تلك النبتة الغامضة» وهي تبدو غير طبيعية تضمّ بريق الأحجار الكريمة إلى نضارة النبات، وعطرها الحاوي على شيء سماوي يبدو معبراً عن أفكار: فهي تثير العلاقات بين عدة ممالك في الطبيعة: مستوى الأفكار - والعوالم الطبيعية والروحية وهو توفيق يبدو في أساس مذهب سرافيتا بالذات: في هذه المرحلة من وجودها، وهي نقطة اتصال بين العوالم. هي وحيدة وليست مهيّأة للتكاثر كسرافيتا، فهي استثناء أرضي، موجّهة لحياة أخرى، أخيراً هي هجين فهي علاقة خاصة الخنوثة للكائن الفريد الذي يبيّن الكاتب خنثيته الفيزيائية والفيزيولوجية في الصورة التالية.

سرافيتوس يتأملها بكآبة وكأن أريجها قد عبّر له عن أفكار تلهج بشكوى لم يفهمها أحد غيره. لكن تلك الظاهرة الغريبة بدت لمينا كنزوة راق للطبيعة أن تهب فيها للحجارة الكريمة روعة الألوان وللنباتات اللدونة والعطر.

سألت الفتاة سرافيتوس: «ولماذا هي وحيدة؟ ألا تتكاثر أبداً؟»

فاحمرّ وحوّل وجهة الحديث فجأة فقال:

- لنجلس، التفتي، وتطلعي! فمن هذا العلو قد لا ترتعشين أبداً؟ فاللجج من العمق بحيث لا تميّزين قرارها؛ فهي تكتسب منظور البحر الموحّد، وإبهام الغيوم، ولون السماء. اما جليد الفيورد فيكتسي لون الفيروز الجميل؛ ولن تلحظي غابات التنّوب إلا كخطوط فيها سمرة خفيفة. فينبغي أن تبدو لك اللجج وكأنها في زينة على ذلك النحو».

ألقى سرافيتوس هذه الكلمات بتلك العذوبة التي يعرف لهجتها ودلالتها، فقط أولئك الذين استطاعوا أن يبلغوا قمة جبال الأرض العالية فبلغوا من الاندماج لا إرادياً الحد الذي يجد السيد الأكثر عنجهية نفسه فيه مضطرّاً إلى معاملة دليله كأخيه، فلا يحسّ بالفوقيّة إلا عندما يهبط إلى الوديان حيث يقيم الناس. حل زلاجتي مينا التي كان يجثو عند قدميها، فلم تلاحظ الفتاة ذلك، لشدة إعجابها بالمشهد المهيب الذي يظهره منظر النروج، التي يمكن معانقة صخورها بنظرة واحدة، ولشدة تأثرها باستمرارية تلك، القمم الباردة، التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات.

قالت وهي تضمّ يديها: «إننا لم نحضر إلى هنا بفعل القوة الإنسانية وحدها، فأنا أحلم دون شك».

أجاب: «انت تعتبرين الوقائع التي تجهلين أسبابها وقائع خارقة.

- إن أجوبتك تتسم دائماً بعمق لا أدرك مداه، وقربك أفهم كل شيء دون جهد. آه! انا اشعر بالحرية.

- لقد تحرّرت من زلاّجتيك، هذا كل شيء.

- أوه! وأنا التي كنت أودّ حلّ زلاّجتيك وأنا أقبّل قدميك

أجاب سرافيتوس برقة: احفظي هذه الكلمات لولفرد[1].

- ردّدت مينا بلهجة غاضبة سرعان ما هدأت عندما نظرت إلى رفيقها: لولفرد! أنت لا تغضب أبداً ثم حاولت عبثاً أن تمسك بيده وهي تقول: «إنّك في كل شيء مثال الكمال المثبط للهمة».

- إنت تستنتجين إذاً انني فاقد الشعور.

ذعرت مينا من نظرة كشفت عما في فكرها بمثل هذا الوضوح.

أجابت برّقة المرأة المحبّة: «إنّك تبرهن لي على أننا متفاهمان».

هزّ سرافيتوس رأسه بفتور وهو يوجّه إليها نظرة حزينة وعذبة في آن معا.

تابعت مينا: «أنت الذي تعلم كل شيء، قل لي كيف زال الخجل الذي كنت أشعر به وأنا قربك هناك، عند صعودنا إلى هنا؟ لماذا أجرؤ لأول مرة على النظر إليك وجها لوجه، بينما لم أكن أجرؤ حتى على رؤيتك خلسة هناك؟

أجاب وهو يفك عباءته المبطّنة بالفرو: «قد نكون عريّنا هنا دنايا الأرض!»

قالت مينا وهي تجلس على صخرة مغطاة بالطحالب وتغرق في تأمّل الكائن الذي قادها إلى قسم من القمة التي بدت لها من بعيد شاهقة لا يمكن بلوغها: «ما كنت قط بمثل هذا الجمال».

---

(١) - يدقق بلزاك كثيراً في الأسماء لتتلاءم مع الشخصية ويبدو أنه فكر أولا باسم زارا فيتوس وفقاً لتماثل الصوت مع المقطع الأول من زارو سوسترا تذكرة بالفلسفات الهندية وقد انكشف شيء منها في مذهب سرافيتا ثم استمد الاسم من سرافين دي برا بعد أن منحه نهاية لا تينية أنثوية فاستقرّ على سرافيتا أمّا مينا فهو اسم الفتاة في رواية فالثورن لكنها تغدو هنا النموذج الأكثر كمالاً للمرأة بدلاً من الوجه الموعود بشبه الملاك وهي الوظيفة التي خصّت بها سرافيتا. بينما أخذ ولفرد من ايفانهو وقد تردّد بلزاك بينه وبين اسم فاوست فاحتفظ بولفرد ومنحه شخصية فاوست من حيث غبطته الجامحة للحياة، ومعرفة العلوم الانسانية كلها، وسعيه إلى حبّ دائم النضارة وظمئه إلى المجهول أي أن بلزاك منحه كمال كائن بشري نموذجي.

في الحقيقة، لم يظهر سرافيتوس البتّة بمثل البريق المتألق، وهو التعبير الوحيد الذي يمثِّل حيوية وجهه ومظهر شخصيته. أيكون هذا البهاء ناتجاً عن تغير اللون الذي يمنحه هواء الجبال النقي وانعكاس الثلوج؟ أم هو نتيجة حركة داخلية تثير الجسم في اللحظة التي يستريح فيها بعد هيجان طويل؟ هل يحصل من التباين القائم بين وضوح الذهب الذي تسكبه الشمس وعتمة السحب التي عبرها هذا الثنائي اللطيف؟.

ربّما وجب أن نضيف على تلك الأسباب أيضاً أحد أجمل المظاهر الذي يمكن أن تقدمّه الطبيعة البشرية. لو فحص أحد الفيزيولوجيين المهرة هذا المخلوق، الذي يبدو في هذه اللحظة، بزهو جبينه وبريق عينيه، كشاب في السابعة عشر، لو فتش عن وسائل هذه الحياة المزدهرة تحت النسيج الذي لم يسبق أن منح الشمال مثل بياضه لأحد أبنائه، لخيّل إليه دون شكّ وجود سائل فوسفوري في أعصاب تبدو ملتمعة تحت البشرة، أو وجود ثابت لنور داخلي يلوّن سرافيتوس بمثل هذا الوميض الذي يبرق عبر كأس ألبستر. وأيّاً بدت الطراوة في يديه اللتين نزع قفّازيهما ليفكّ زلاّجتي مينا، فهما تبدوان وكأنهما تمتلكان قوة مساوية لتلك التي وضعها الخالق في كلاليب السرطان الشافّة. كان البريق المنبثق من نظرة عينيه الذهبية يتصارع صراحة مع أشعة الشمس، ويبدو وكأنه لا يأخذ منها النور، وإنما يعطيها إيّاه. كان جسمه رقيقاً نحيلاً كجسم امرأة يشهد على طبيعة ضعيفة في الظاهر إنما هي في قدرتها معادلة دائماً لرغبتها، و الاثنتان قويتان عند اللزوم؛ وهو ذو قامة متوسطة لكنه يبدو طويلاً عندما يرفع إلى العلا جبينه وكأنّه يريد أن يثب. اما شعره المجعّد بيد ساحرة والمتطاير بنسمة، فيزيد من الوهم الذي يحدثه وضعه الأثيري. لكن هذه الهيئة المجرّدة من الجهد تنتج عن ظاهرة معنوية أكثر منها عن عادة جسدية، كان خيال مينا متواطئاً مع هذه الهلوسة الثابتة التي يقع تحت تأثيرها أيّ كان والتي تنسب إلى سرافيتوس مظهر تلك الوجوه الحالمة وهي في رقدة هنيئة. ما من نموذج معروف يمكن أن يعطي صورة لهذا الوجه، الذكري بعظمة بالنسبة لمينا. أما بالنسبة لعيني رجل، فهو يكسف بفتنته الأنثوية أجمل الرؤوس التي أبدعتها ريشة رفاييل. فرسّام

السموات ذاك قد وضع باستمرار نوعاً من الفرح الهادىء والحلاوة المحببة في قسمات جمالاته الملائكية. لكن إن لم يتمّ تأمّل سرافيتوس بالذات، فأي روح يمكن أن تبتكر الحزن الممزوج بالأمل الذي يخفي نصفياً العواطف الفائقة الوصف المنطبعة على قسماته؟ من يعرف، حتى في نزوات الفنان حيث يصبح كل شيء ممكناً، أن يرى الظلال التي يخلعها رعب خفي على هذا الجبين الفائق الذكاء الذي يبدو على الدوام كأنه يسائل السماء ويشكو الأرض؟ هذا الرأس كان يحلّق باستخفاف كطائر جارح سام تعكر صيحاته صفو الجو، ويستسلم كما ترغلة يصب هديلها الحنان في قلب الغابة الصامتة.

كان لون سرافيتوس ذا بياض مدهش يبرز شفتين حمراوين، وحاجبين، وأهدابا حريرية، وهي القسمات الوحيدة التي تتباين على« شحوب وجه لا يسيء انتظامه الكامل بشيء إلى بريق العواطف: فهي تعكسها دون رجّة أو عنف، إنّما بهذه الرصانة الجليلة الطبيعية التي نحب نسبتها إلى الكائنات السامية. كل شيء في هذا الوجه المرمري يعبّر عن القوة والإطمئنان. نهضت مينا لتأخذ يد سرافيتوس وهي تأمَل في أن تجذبه هكذا إليها، وتضع على جبينه الفاتن قبلة معبّرة عن الإعجاب أكثر منها عن الحبّ. لكن نظرة من الشاب، نظرة نفذت إليها كما ينفذ شعاع الشمس عبر موشور، جمّدت الفتاة المسكينة.

شعرت، دون أن تفهم السبب أن هوّة بينهما، فأشاحت برأسها وبكت. وفجأة أحاطت بخصرها يد قوية، وقال لها صوت مليء بالحلاوة: «تعالي». فأطاعت ووضعت فجأة رأسها المنتعش على قلب الشاب، الذي كان يوقّع خطوتها مع خطوته في تطابق ناعم يقظ، وقادها إلى مكان يمكنهما أن يريا منه التزيينات المتألقة في الطبيعة القطبيّة. قالت:

– «قبل أن أنظر إليك أو أسمعك، قل لي يا سرافيتوس، لماذا تبعدني عنك؟ هل أزعجتك؟ وكيف؟ قل. لا أريد شيئاً لي، وأريد أن تكون ثرواتي الأرضية لك، كما أن لك ثروات قلبي، وأن لا أرى النور إلا من خلال عينيك كما يُشتق فكري من فكرك؛ لن أخشى أبداً أن أسيء إليك، بأن أبوح لك بانعكاسات

روحك، وكلمات قلبك، ونور أنوارك، كما نعيد إلى الله التأملات التي يغذي بها عقولنا. أريد أن أكون كل شيء بالنسبة لك!»

– «لا بأس، يامينا إنَّ الرغبة الثابتة هي وعد يعدنا به المستقبل. آملي! لكن إن أردت أن تكوني نقية، فضعي دائماً فكرة العلي القدير في عواطف الأرض، لتحبّي عند ذاك جميع المخلوقات، وينطلق قلبك إلى الأعالي.

أجابت وهي ترفع عينيها إليه بحركة خجول: «سأفعل كل ما تريد».

قال سرافيتا بحزن: «لا يمكنني أن أكون رفيقك.

كبح بعض أفكاره، ومدّ ذراعيه نحو كريستيانا التي تبدو كنقطة في الأفق وقال: أنظري!»

أجابت: «إنّنا صغار جداً».

تابع سرافيتوس: نعم، ولكننا نغدو كباراً بالعاطفة والذكاء. بنا فقط يا مينا، تبدأ معرفة الأشياء، والقليل الذي نعرفه من قوانين العالم المرئي يجعلنا نكتشف سعة العوالم العليا. لا أعلم إن كان قد حان الوقت لأكلمك هكذا. لكنني أرغب كثيراً في أن أنقل إليك شعلة آمالي! فربما اجتمعنا يوماً معاً في العالم الذي لايتلاشى فيه الحبّ.

قالت متمتمة: «لِمَ لا يكون اجتماعنا الآن، ودائماً؟».

أجاب باستخفاف: ما من شيء ثابت هنا، والسعادة العابرة في الحب الأرضي هي ومضات تنبىء في بعض الأرواح عن فجر سعادات أكثر ديمومة؛ كما أن اكتشاف قانون في الطبيعة يدفع بعض الكائنات المميزة إلى الكشف عن النظام كلّه. أليست سعادتنا الهشّة على الأرض هي شهادة لسعادة أخرى كاملة، كما أن الأرض وهي جزءمن الكون تشهد على الكون؟.

لا يمكننا أن نقيس المدار الواسع للفكر الالهي فلسنا فيه إلا قسيمة صغيرة بقدر ما الله كبير؛ ولكن يمكننا أن نستشعر مداه، فنجثو، ونعبد، وننتظر. إن الناس

ينخدعون دائماً في علومهم، عندما لا يرون أنّ كل شيء على هذه الأرض نسبي، وهو يرتبط بحركة عامة وتكوّن ثابت يقود بالضرورة إلى نجاح وإلى غاية. إن الإنسان ذاته ليس خلقاً نهائياً، وإلا لما كان الله موجوداً.

قالت الشابة: كيف وجدت الوقت لتتعلم كل هذه الأشياء؟.

أجاب: إنني أتذكر.

– تبدو لي أكثر جمالاً من كل ما أراه.

– إننا أحد أكبر منجزات الله. ألم يمنحنا القدرة على أن نعكس الطبيعة وأن نركزّها فينا بالفكر، وأن نجعل منها مرقاة للانطلاق نحوه؟ إننا نتحابّ بسبب ماتحويه أرواحنا من السماء قليلا كان أم كثيراً. لكن لا تكوني جائرة، يا مينا، انظري إلى المشهد الممتد عند قدميك، أليس كبيراً؟.

عند قدميك ينبسط المحيط كسجادة، وتبدو الجبال كجدران مدرّج، والأثير هو من فوق كستار مستدير لهذا المسرح، ومن هنا نتنشق أفكار الله كالأريج أترين؟ إن العواصف التي تحطّم السفن المثقلة بالرجال لا تبدو لنا هنا إلا فورانات ضعيفة، وإذا رفعت الرأس فوقنا، فكل شيء أزرق. هوّذا كما تاج من النجوم. هنا تختفي فوارق التعابير الأرضية. بالاعتماد على هذه الطبيعة المختلسة من الفضاء ألا تشعرين بعمق في نفسك أكثر مما فيها من فكر؟ ألا تمتلكين كبراً أكثر من الحماسة، وطاقة أكبر من الإرادة؟ ألا تشعرين بإحساسات ليس تفسيرها فينا؟ ألا تحسّين بأن لك أجنحة؟ فلنصلِّ.

ثنى سرافيتوس ركبته وضم يديه بشكل متصالب إلي صدره، فارتمت مينا على ركبتيها باكية، وبقيا هكذا بضع لحظات. بينما الهالة الزرقاء التي تتحركّ في السماء فوق رأسيهما تكبر، لتغطيهما بأشعة وضّاءة دون علمهما.

قالت له مينا بصوت متهدّج: «لماذا لا تبكي عندما أبكي؟»

أجاب سرافيتوس وهو ينهض: «أولئك الذين هم روح كلياً لا يبكون، فكيف أبكي؟ أنا لم أعد أرى البؤس البشري. هنا الخير يتفجّر بكل جلاله. وفي الأسفل، أسمع تضرعات قيثارة الآلام ومراراتها، فهي تهتز تحت يدي روح حبيسة. وهنا أسمع موسيقى القيثارات المتناغمة. اما في الاسفل، فلديكم الرجاء، تلك البداية الجملية للإيمان، لكن هنا يسود الإيمان وهو الرجاء المتحقق.

قالت الشابة: لن تحبني أبداً، فأنا ينقصني الكثير، وانت تزدريني.

– مينا! تقول البنفسجة المخفيّة في قاعدة سنديانة لنفسها «إن الشمس لا تحبني، فهي لا تأتي إليّ». وتقول الشمس لنفسها: «إن سلطت نوري على هذه الزهرة المسكينة ستتلف». فتسرّب، بوصفها صديقة للزهرة، أشعتها عبر أوراق السنديانة، فتضعف الأوراق حدتها لتلوّن تويجات محبوبتها.

لم أجد لنفسي ما يكفي من الحجب، وأخشى ان تكوني رأيتني بافراط: سترتعشين لو عرفتيني بشكل أفضل. اسمعي؛ انا لا أتذوق ثمار الأرض، وقد فهمت أفراحكم جيّداً فبلغت مثل أولئك الأباطرة الفاسقين في رومة الدينية حد التقزّز من جميع الأشياء لأنني تلقيت هبة الرؤيا. ثم هتف بألم: «اهجريني» وذهب فجلس على كتلة من الصخر وألقى برأسه على صدره.

قالت مينا: «لماذا تدفعني هكذا إلى القنوط؟

هتف سرافيتوس: اذهبي عني، ليس لديّ مما ترغبين فيه. وحبّك خطأ فاحش بالنسبة لي. لماذا لا تحبيّن ولفرد؟ ولفرد رجل، رجل خبر الأهواء فيعرف كيف يضمك بقوة بين ذراعيه العصبيتين، وكيف يجعلك تحسيّن بيده العريضة الشديدة البأس. شعره الأسود فاتن وعيناه ممتلئتان بالأفكار الانسانية، وقلبه يتصبب سيولاً من الحمم في الكلمات التي تنطبق بها شفتاه، سيرهقك بالملاطفات، سيكون حبيبك، الأثير وزوجك. إن ولفرد وُجِد لك».

كانت مينا تبكي بدموع حارة.

قال لها بصوت نفذ إلى فؤادها كطعنة خنجر: «أتجرؤين على القول إنك لاتحبينه؟»

هتفت بألم: «الرحمة، الرحمة! يا حبيبي سرافيتوس».

قال سرافيتوس الرهيب وهويمسك بيد مينا ويقودها إلى حافة السلر حيث كان المشهد من السعة لدرجة تحسب فيها فتاة ممتلئة بالحماسة أنها فوق العالم وقال لها: «أحبّيه يا ابنة الأرض المسكينة، فمصيرك يسمّرك قطعاً بالأرض. أما أنا فأتمنى رفيقاً لنذهب معاً إلى مملكة النور، أردت أن أريك هذه القطعة من الطين، فلاحظت أنك ما تزالين مرتبطة بها. وداعاً، ابقي هنا، وانعمي بالحواس، واطيعي طبيعتك، اشحبي مع الرجال الشاحبين، تخضبي بالحمرة مع النساء، العبي مع الأطفال، صلّي مع المذنبين، ارفعي عينيك إلى السماء في آلامك، ارتعشي، تأملي، دعي قلبك يخفق، سيكون لك رفيق، وستتمكنين أيضاً من الضحك والبكاء، والأخذ والعطاء. أما أنا فمثل طريد مبعد عن السماء، ومثل شبح مبعد عن الأرض. قلبي لا يخفق أبداً، لا أعيش إلا بنفسي ولنفسي، أحسّ بالروح، واتنفس بالجبين، وأرى بالفكر، وأموت بنفاد الصبر وبالرغبات. ما من انسان على الأرض يمكنه تلبية رغباتي، أو اشباع تلهفي، فقدت القدرة على البكاء، إنني وحيد، ومستسلم لقدري، أنا أنتظر».

نظر سرافيتوس إلى الأرض الملأى بالأزهار حيث وضع مينا، ثم التفت إلى جهة الجبال الشاهقة وقد تغطت شعافها بالسحب الثخينة فألقى إليها بآخر أفكاره وتوجه إلي مينا فتابع بصوت ترغلّة:

«ألا تسمعين الموسيقى الشجيّة يا مينا، بعد أن أشبعك النسر زعيقاً؟ ألا تحسين بنغمات القيثارات الهوائية التي ينشدها شعراؤكم بين الغابات والجبال؟ ألاترين الوجوه غير المتميزّة العابرة مع هذه السحب؟ ألا تلاحظين الأقدام المجنّحة لأولئك الذين يحضّرون زينات السماء؟ إنّ لكناتهم تنعش الروح؛ والسماء

ستسقط سريعاً أزهار الربيع، والنور قد انطلق من القطب، فلنهرب، فما يزال في الوقت متسع».

في لحظة أعادا ربط زلاّجاتهما، وهبط الاثنان من الفالبرغ عبر المنحدرات السريعة التي تربطه بوديان السيغ. كانت فطنة عجائبية توجه رحلتهما، أو تعبير أفضل طيرانهما، فعندما يصادفان شقاً مغموراً بالثلج، يمسك سرافيتوس بمينا ويقفز بها في حركة سريعة بخفّة عصفور فوق الطبقة الهشة التي تغطي الهوّة. وغالباً ما يجري انحرافاً خفيفاً ليتجنّب مهواةً، أو ركام صخر يبدو له تحت الثلج كما بعض البحارة الذين ألفوا المحيط فيخمنون العقبات من اللون، ومن الدوّامة ومن سمت المياه. وعندما وصلا إلى دروب سيغدلهن، وتيسّر لهما متابعة الطريق في خط مستقيم دون خشية للوصول إلى جليد سترومفيورد، أوقف سرافيتوس مينا قائلاً: «ماعدت توجّهين لي أيّة كلمة».

أجابت الفتاة الشابة باحترام: «ظننت أنك تريد أن تنصرف إلى تفكيرك!»

قال: فلنسرع ياعزيزتي مينيت، فالليل يوشك على الهبوط.

ارتعشت مينا وهي تستمع إلى صوت دليلها، الجديد إن صحّ القول، صوت عذب صاف كصوت فتاة، يبدّد ومضات الحلم الخيالية التي كانت تحيط بها في سيرها. وبدأ سرافيتوس يتخلّى عن قوّته الذكورية، ويعرّي نظراته من ذكائها الحاد. وسرعان ما طرق هذان المخلوقان الجميلان الفيورد، ووصلا إلى مرج الثلج الممتد بين ضفة الخليج وأوّل صفّ من منازل جرفيس، ثم انطلقا، وقد أحسّا بانقضاء النهار صاعدين بسرعة نحو بيت الكاهن وكأنهّما يقفزان درجات سلّم عريض.

قالت مينا: «قد يكون أبي قلقاً الآن!»

أجاب سرافيتوس: «كلاّ».

في تلك اللحظة وصل الاثنان إلى أمام مدخل السكن المتواضع حيث كان السيد بِكِر، قسُّ جرفيس، يقرأ منتظراً ابنته من أجل طعام العشاء.

قال سرافيتوس: «عزيزي السيد بكرٍ، ها أنا أعيد إليك مينا سالمة آمنة!»

أجاب العجوز هو يضع نظارته على الكتاب: «شكراً، يا آنسة، لا شك أنكما تعبتان».

قالت مينا التي تلقت في تلك اللحظة على جبينها نَفَس رفيقتها: «أبداً».

- أتريدين يا عزيزتي أن تأتي بعد غدٍ مساء إلى منزلي لنتناول الشاي معاً.

- بكل طيبة خاطر يا عزيزتي.

- ستأتيني بها يا سيد بكر.

-نعم يا آنسة.

أحنى سرافيتوس رأسه بحركة دلَعٍ فحيّا العجوز، وانطلق، ولما تمض لحظات حتى وصل إلى باحة القصر السويدي، حيث ظهر خادم ثمانيني تحت كُنّة المدخل وهو يحمل بيده فانوساً.

تخلّى سرافيتوس بمهارة أنثوية بارعة عن زلاّجتيه، وهرع إلى صالة القصر، وألقى بنفسه على ديوان عريض مغطّى بالفرو وتمدّد عليه.

قال العجوز وهويشعل الشموع المفرطة في الطول المستخدمة في النروج: «ماذا تريدين أن تأخذي؟».

- لا شيء يا داڤيد فأنا تعبة جداً.

تخلص سرافيتوس من عباءته المبطنّة بفرو السمّور الثمين، التف بها ونام. بقي الخادم العجوز للحظات واقفاً يتأمّل بحبّ الكائن الفريد المستلقي أمام عينيه الذي يصعب تحديد جنسه من قبل أيّ كان، وحتى من العلماء. فبرؤيته هكذا ملتفاً بعباءته المألوفة وهي أشبه بثوب امرأة منها بمعطف رجل كان من المستحيل ألا يعتبر فتاة شابة بهاتين القدمين وقد تركهما تتدليّان وكأنّه يريد أن يظهر الرقّة التي ربطتهما

بها الطبيعة في جسمه. لكن جبينه والمظهر الجانبي لرأسه يبدوان معبّرين عن القوة البشرية وقد وصلت إلى أقوى درجاتها.

فكر العجوز: «إنّها تتألّم، ولا تريد أن تصرّح لي بذلك، وهي تموت كزهرة لفحها شعاع شمس حادة جداً».

وبكى الرجل العجوز.

II- سرافيتا

دخل دڤيد خلال السهرة إلى الصالة فبادرته سرافيتا بصوت يتخلله أثر النعاس: «إنني أعلم ما تريد أن تنبئني به، قل لولفرد إن بإمكانه الدخول».

عند سماع هذه الكلمات ظهر رجل فجأة وجاء ليجلس قربها وقال:

«أتتألمين ياعزيزتي سرافيتا؟ أجدك أكثر شحوباً من عادتك».

التفتت نحوه بهدوء بعد أن أزاحت شعرها إلى الخلف كامرأة جميلة انتابها الصداع وليس لديها العزم على الشكوى.

قالت: ارتكبت حماقة عبور الفيورد مع مينا، وقد صعدنا حتى قمة فالبرغ.

هتف برعب عاشق: «أتريدين أن تقتلي نفسك؟»

أجابت: لاتخش شيئاً ياولفرد الطيّب، فقد عنيت جيداً بحبيبتك مينا.

ضرب ولفرد بقبضته على المنضدة بعنف، ونهض، فمشى بضع خطوات نحو الباب وقد بدرت عنه تنهيدة ملأى بالألم، ثم عاد وهو يزمع التعبير عن الشكوى.

قالت سرافيتا: «لماذا هذه الجلبة إن كنت تعتقد أنني أتألم؟!»

أجاب وهو يجثو: «عفواً، ارحميني، وجّهي لي أقسى الكلام، ألزميني بكل ما يمكن أن تتخيّله نزواتك كامرأة، وبأقسى ما يصعب تحمله، لكن يامعبودتي، لا يخالجك شكّ بحبي. إنّك تستخدمين مينا كفأس توجّهين لي بها ضربات مضاعفة. الرحمة!»

- «لماذا توجّه لي مثل هذه الكلمات، يا صديقي. وأنت تعلم عدم جدواها؟» قالت ذلك وهي ترميه بنظرات عادت لتصير إلى عذوبة حتى أن ولفرد لم يعد يرى عيني سرافيتا وإنما تياراً من نور يتماثل وميضه مع النغمات الأخيرة لأغنية ملأى بالفتور الايطالي.

- آه! فلنتجنّب الموت قلقاً.

قالت بصوت أحدّث رنينه في قلب هذا الرجل تأثيراً مماثلاً لتأثير النظرات: «أتتألم؟ ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك؟»

- أحبيني كما أحبّك.

أجابت: يالمينا المسكينة!.

هتف ولفرد: إنني أتجنّب دائماً حمل السلاح.

قالت سرافيتا باسمة: «إنّك في مزاج لا يحتمل! ألم أنطق بهذه الكلمات مثل أولئك الباريسيات اللواتي حدّثتني عن غرامياتهن؟».

جلس ولفرد وصالب ذراعيه وتأمّل سرافيتا بسحنة مكفهرّة وقال:

«إنني أسامحك، لأنك لا تعرفين ماذا تفعلين.

- أجابت: «أوه! منذ حواء، المرأة تفعل الخير والشرّ عن تبصرٌ»

- قال: «أنا أؤمن بهذا».

- إنني متأكدة من ذلك يا ولفرد فغريزتنا على وجه الدقّة هي التي تجعلنا بمثل هذا الكمال، فما تتعلمونه أنتم من ناحيتكم، نحسٌ نحن به، من جانبنا.

- لماذا لا تحسين إذا بمبلغ حبّي لك.

- لأنك لا تحبّني.

- آه، يا الهي!.

فسألته: «لماذا تشكو إذاً من قلقلك؟».

-أنت رهيبة هذا المساء يا سرافيتا، إنّك شيطان حقيقي.

– كلا، إنني وهبت القدرة على الفهم، وهذا أمر مروّع. والألم ياولفرد نور يضيء لنا الحياة.

– لماذا ذهبت إذاً إلى فالبرغ.

– ستقول لك مينا، فأنا تعبة جداً بحيث لا يمكنني الكلام، والكلام لك، أنت الذي تعرف كل شيء، انت الذي تعلمت كل شيء ولم تنس شيئاً، ومررت بالعديد من التجارب الاجتماعية؛ حدثني بما يُسلي، فأنا مصغية إليك.

– ماذا لدي من قول لا تعرفينه؟ إن طلبك بمثابة سخرية. فأنت لا تقبلين شيئاً من العالم، وتحطمين التسميات فيه، وتفجرّين القوانين، والتقاليد، والعواطف والعلوم باختزالها إلى النسب التي تبرمها هذه الأشياء عندما تُطَرح خارج الكرة الأرضية.

– أترى يا صديقي، إنني لست امرأة، فأنت على خطأ بحبّك لي. ماذا! إنني اغادر المناطق الأثيرية لقوتي المزعومة، وأجعل نفسي صغيرة بكل تواضع، فأنحنى على طريقة الإناث التعسات بين كل أنواع الكائنات، فترفعني أنت سريعاً. أخيراً إنني محطمة ممزّقة، أطلب نجدتك، فأنا بحاجة لقوة ذراعك، وأنت تصدّني، فنحن غير متفاهمين.

– إنّك شريرة هذا المساء، أكثر من أي يوم مضى.

– قالت وهي ترمقه بنظرة تصهر جميع العواطف بإحساس سماوي: «شريرة! كلا إنني متألمة. ذلك كلّ شيء دعني إذاً يا صديقي. ألن يكون ذلك تمتعاً بحقوقك كرجل؟ فعلينا دائماً أن نرضيكم. وأن نريحكم، وان نكون مرحات على الدوام، وأن لانتمسك الا بالنزوات التي تسلّيكم! فماذا عليّ أن أفعل ياصديقي؟ أتريدني أن أغني، وأن أرقص، عندما يعطّل فيّ التعب الصوت والقدرة على

الوقوف؟ أيّها السادة الرجال علينا لو كنا نحتضر، أن نبتسم لكم، وانتم تسمّون هذا، على ما أعتقد، سيادة. ياللنساء المسكينات! إنني أرثي لوضعهن. قل لي ما دمتم تهجرونهن عندما يشخن، هل فقدن أذن عندها كلّ عاطفة أو روح؟ ايه! الواقع أنني فوق المئة عام، يا ولفرد، فانصرف من هنا! اذهب وارتم على قدمي مينا.

– أوه! يا حبي الابدي!

– هل تعلم ما معنى الابدية؟ اصمت يا ولفرد! انك تشتهيني ولا تحبني. قل لي، ألا أذكرك بامرأة مغناج ما؟

– أوه! بكل تأكيد، فأنا لم أعد أتعرف فيك على الشابة النقيّة السماوية التي رأيتها لأول مرة في كنيسة جرڤيس.

عند هذه الكلمات مسحت سرافيتا بيديها على جبينها، وعندما كشفت عن وجهها، ودُهِشَ ولفرد للتعبير الورع التقي الذي انتشر عليه. وقالت: «أنت على حقّ يا صديقي، لقد أخطأت حين وطئت قدماي أرضكم[1]».

– نعم يا عزيزتي سرافيتا، كوني نجمتي ولا تتركي المكان الذي تنشرين منه عليَّ انواراً وضّاءة.

---

(١) – في رسالة كتبها بلزاك للسيدة هانسكا بتاريخ ١٨ و٢٢ كانون الثاني ١٨٣٦ يقول: «أرسلت لي السيدة دي برني متأخرة ملاحظاتها، ولم أتمكن من إعادة الفصل الثاني المعنون «سرافيتا». هي وحدها من يمكنها امتلاك الشجاعة لتقول لي: «إن الملاك قد استرسل في الكلام كفتاة لعوب، وهذا ما بدا جميلاً قبل أن تعرف النهاية، لكنه بدا هزيلاً بعدها، وأنا أرى الان أنَّ علي تأليف المرأة كما فعلت بالنسبة لباقي الكتاب». هذا المنظر من غنج يبدر من ملاك يقلد الباريسية، يمكن أن يبدو مثيراً للدهشة، مع أن فيه مظهراً هاماً من الابداع الأدبي، فبلزاك كان قد تعرض لفشل جارح مع المركيزة دي كاستري، فاعلن توبيخه لها في ٢٢ ايار ١٨٣٣ في قصة الدوقة دي لانجه، وقد كان في كانون ثاني ١٨٣٤ يصحح مسودّات هذه القصة، لكن ليس هناك عدوى تلوّث بين عملين في انشاء متلازم وإنما يجب بالنسبة لهذا المشهد رؤية مخطط أولي لشخصية يخشى أن ينحرف وينحطّ اليها الملاك وبرسم الوجه الأسطوري، لاحظ بلزاك في الوقت ذاته التزييف الاجتماعي، والواقع أنه بعد عدة سنوات رسم في شخص ديان دي موفرينيوز سرافيتا مزيّفة. وهكذا فإن الوجه وعكسه للاشخاص ينكشف لبلزاك في رؤية شاملة فيضعهما على التتابع في ابتكارات مميزة.

عندما أنهى هذه الكلمات، حرّك يده ليتناول يد الفتاة، التي سحبتها دون ازدراء ولا غضب؛ فنهض ولفرد فجأة وذهب ليقف قرب النافذة والتفت نحوها كي لا يدع سرافيتا تلاحظ بعض الدموع التي ترقرقت في عينيه.

قالت له: «لماذا تبكي، أنت لم تعد طفلاً، يا ولفرد، هيّا عد لقربي، أريد ذلك أنت تبدي استياءك مني حين عليّ أن أغضب. أنت ترى أنني متألمة، فترغمني، بما لا أعلم من ظنون، على أن أفكر، أو أتكلم، أو أن اشارك في نزوات وأفكار ترهقني. لو فهمت طبيعتي لعزفت لي شيئاً من الموسيقى. ولسكّنت ضجري؛ لكنك تحبني من أجل نفسك وليس من أجلي».

بهذه الكلمات هدأت فجأة العاصفة التي شوشت قلب ولفرد، فاقترب بهدوء ليتأمّل جيداً المخلوقة الفاتنة المتمدّدة أمام عينيه، مستلقية بفتور وقد أسندت رأسها إلي يدها واتكأت بوضع مخيّب للآمال.

تابعت: «تعتقد أنني لا أحبك أبداً. انك مخدوع. اصغ الي يا ولفرد. بدأت تعرف الكثير؛ وقد تألّمت كثيراً؛ فدعني أشرح لك فكرتك. انت طلبت يدي؟».
نهضت وعدلّت من وضعها جالسة فبدت حركاتها الجميلة وكأنها ترمي بالأضواء وقالت: إنَّ شابة تسمح بمنح يدها تعني أنها أعطت وعداً، وعليها أن تنفذه. وأنت تعلم جيّداً أنه لا يمكنني أن أكون لك. هناك شعوران يسيطران على الحب الذي يفتن النساء على الأرض. فإمَّا أنهن يخلصن لأشخاص متألّمين أو مهانين أو مجرمين يردن مواساتهم، وإنهاضهم وافتدائهم. أو أنهن يهبن أنفسهن لأشخاص متفوّقين، سامين، اقوياء، يردن عبادتهم وفهمهم وهن مسحوقات غالباً من قبلهم. لقد كنتَ مهاناً لكنك تنقيّت بنار الندم، وأنت كبير الان، وأنا أشعر بأنني ضعيفة جداً بحيث لا يمكنني أن أجاريك، وورعة جدا فلا أتضع أمام قوة غير قوة الَخالق. إن حياتك يا صديقي يمكن أن تفسرّ هكذا، نحن في الشمال، بين السحب حيث تروج الأفكار التجريدية.

أجاب: إنك تقتلينني يا سرافيتا عندما تتكلّمين هكذا، وأنا أتألم دائماً عندما أراك تستخدمين علماً مخيفاً تعرين بواسطته جميع الأشياء الإنسانية من خواصها التي منحها إياها الزمن، والمسافة، والشكل، لتتبصري بها رياضياً بتعبير ما لا أعلم كنهه، كما تفعل الهندسة بالنسبة للأجسام التي تجرّدها من صلابتها.

- حسن يا ولفرد سأطيعك. فلنترك كل ذلك. كيف تجد هذا البساط من جلد الدبّ الذي علّقه صديقي الطيب داڤيد هناك؟.

- إنّه جيّد جداً.

- إنّك لن تعرفني أنا في هذه «**الدوشا غريكا!**». إنّها نوع من عباءة كشمير مبطنة بجلد ثعلب أسود، إنّ اسمها يعني **مدفّئة الروح**.

تابعت بعد توقف: «هل تعتقد أنّ حاكماً في أيّ من القصور يمتلك فراءً مماثلاً؟»

- إنّها تليق بتلك التي ترتديها.

- وأنت تجدها جميلة جداً؟

- إن الكلمات البشرية لا تنطبق عليها. يجب التحدث اليها من القلب إلى القلب.

- أنت تصلح، يا ولفرد، لتسكين آلامي بكلماتك العذبة... التي سبق أن قلتها لأخريات.

- وداعاً.

- ابق. فأنا أحبك أنت ومينا بإخلاص، ثق بذلك. إنما أنا أدمجكما في كائن واحد. وعندما تندمجان هكذا تغدوان بالنسبة لي أما أخاً أو أختاً. تزوّجا لأراكما سعيدين قبل أن أغادر نهائياً محيط التجارب والآلام هذا. يا الهي، إن نساءً بسيطات نلن ما يرغبن من عشاقهن فقد قلن لهم: «اسكتوا» فغدوا خرساً. وقلن

لهم: «موتوا» فأصبحوا أمواتاً وقلن لهم: «أحبّونا من بعيد» فبقوا بعيدين كحاشية أتباع أمام ملك. وقلن لهم: «تزوجوا» فغدوا أزواجاً. أمّا أنا فأريد أن تكونا سعيدين، وأنتما ترفضان، فأنا إذاً دون سلطة؟ لا بأس، يا ولفرد؛ اصغ إليّ، اقترب مني، نعم، سأتكدّر عندما أراك زوجاً لمينا، لكن حين لا تعود تراني أبداً، عند ئذ... عدني بأنكما ستقترنان؛ فالسماء قد هيأت كلا منكما للآخر.

- لقد استمتعت بالاستماع إليك يا سرافيتا، أيّاً كان إبهام كلماتك فإن لها سحرها ولكن ماذا تريدين أن تقولي؟.

- إنّك على حق، لقد نسيت أنني مجنونة، وأنني تلك المخلوقة المسكينة التي يعجبك ضعفها. إنني أعذبك، وأنت آت إلى هذه المقاطعة المتوحشة لتجد فيها الراحة. أنت المحطّم بالهجمات الطائشة من جنيٍّ مجهول، أنت المضنى بأعمال العلم الجلود، أنت الذي كدت تلوّث يديك بالجريمة وتحمل قيود العدالة الانسانية.

سقط ولفرد نصف ميت على السجادة، لكن سرافيتا نفخت على جبين هذا الرجل الذي غفا سريعاً بطمأنينة عند قدميها.

قالت وهي تنهض: «نم مستريحاً».

بعد أن مسحت بيديها فوق جبين ولفرد، انطلقت العبارات التالية من شفتيها، واحدة بعد الأخرى، وكلّها مختلفة في اللهجة، إنما جميعها متناغمة ومنطبعة بطيبة يبدو أنها تنبثق من رأسها بانهمارات غائمة، مثل الأنوار التي تصبّها ربّة دنيوية بعفة على الراعي المحبوب خلال نومه [1].

«يمكنني أن أظهر لك، يا عزيزي ولفرد، كما أنا، لك أنت القويّ»

لقد دنت الساعة، الساعة التي تسكب فيها أنوار المستقبل البرّاقة انعكاساتها على الأرواح، الساعة التي تختلج فيها الروح في حريّتها.

(١) - الأمر يتعلق بديان وانديميون في لوحة «رقاد انديميون» التي اقتناها اللوفر في العام ١٨١٨، وقد مثل الرسّام جيروده ديان باشعاع نورها: ومداعبات عاشقة محتشمة وملتهبة في آن واحد تبدو في نظرات الربة غير المرئية.

مسموح لي الآن أن أقل لك، كم أحبك، ألا ترى كيف هو حبي، حبٌّ دون أية مصلحة خاصة، عاطفة ملأى بك فقط، حب سيتبعك في المستقبل، لينوّر لك المستقبل؟ لأن هذا الحبّ هو النور الحقيقي. أتتصوّر الآن بأيّة حميّة أردت أن أعرف أنك متخالص مع هذه الحياة التي تثقل عليك. وأن أراك أقرب مما أنت إلى العالم الذي يسود فيه الحب الدائم. أليس من الألم أن يحبّ الإنسان لحياة واحدة؟ ألم تشعر بطعم الحبّ الخالد؟ أتدرك الآن ما أشكال الافتتان التي تسمو مخلوقة اليها عندما تكون ثنائية في حبّ مَن لا يخون الحبّ أبداً، من نجثو أمامه متعبّدين.

اتمنى أن يكون لي أجنحة يا ولفرد لأغمرك بها، وأن تكون لي قوة أمنحك إياها لتدخلك مسبقاً إلى العالم، حيث الأفراح الأكثر نقاءً، لأنقى الارتباطات مما نشعر به على هذه الأرض؛ تشكل ظلاً في النور القادم بلا انقطاع ليضيء القلوب ويبهجها.

اغفر لروح صديقة أن قدمت إليك بكلمة جدول أخطائك، في القصد المتسامح بتسكين آلام تبكيت ضميرك الحادة. استمع إلى انغام الغفران! أنعش روحك بتنسّم الفجر الذي سيبزغ من أجلك من وراء ظلمات الموت. نعم، إن حياتك هي ما وراء ذلك!.

فلتكتس كلماتي بأشكال الأحلام البرّاقة، ولتتزين بالصور ولتتوهج ولتهبط عليك اصعد، اصعد إلى النقطة التي يظهر فيها الناس بوضوح رغم التجمع والصغر وكأنهم حبّات رمل على شاطيء البحر؛ والبشرية تتجلّى وكأنها شريط بسيط. ألا انظر إلى الفوارق المختلفة لتلك الزهرة من الجنّات السماوية؟ أترى أولئك الذين ينقصهم الذكاء أو أولئك الذين بدؤوا يتلوّنون به، أو أولئك الذين اختبروا، و أولئك الذين هم في الحب، و أولئك الذين في الحكمة والذين يتوقون إلى عالم النور [1]؟

---

(١) - تعطي سرافيتا في الحلم لولفرد أوّل كشف للأنواع الروحية، التي ستصيغها بشكل أكثر دقّة عندما تشرح مذهبها.

أتدرك بهذه الفكرة المرئية مصير البشرية؟ ومن أين أتت وإلى أين تذهب؟ استمر في طريقك! عندما تبلغ هدف رحلتك، ستستمع لأصوات أبواق القدرة الالهية تدوي لهتافات النصر، وبتناغمات يكفي واحد منها ليهز الأرض، لكنها تتبدد في عالم ليس فيه شرق ولا غرب.

أتدرك أيّها العزيز المسكين المكابد أنه لولا الاسترخاءات ولولا حُجُب النوم، لذهبت تلك المشاهد بذكائك ومزّقته، فهي على مثال الريح العاصفة التي تنتزع لوحة ضعيفة وتمزقها؛ تستلب من الإنسان عقله إلى الأبد؟ أتدرك أن الروح وحدها المرتفعة إلى قدرتها الكلّية تقاوم بصعوبة، في الحلم، اتصالات الروح الالهية المضيئة.

طر أيضاً عبر الأجواء البراقة المضيئة واعجب، واركض. وأنت بطيرانك هذا تستريح، وتسير دون تعب. وتريد كجميع الناس أن تكون دائماً سابحاً هكذا في أجواء من العطر والنور أينما تذهب، خفيفاً من كل جسدك المتلاشي، فتتكلّم بالفكر! اركض، وحلّق، وتمتّع للحظة بالجناحين اللذين اكتسبتهما، عندما يغدو الحب على درجة من الاكتمال لديك حتى تفقد كل حسّ وتغدو عقلاً كلياً وحبّاً كليّاً[1]! وكلّما صعدت عالياً قلّ شعورك بالهوّة! فالسماء خالية تماماً من المهاوي. انظر إلى من يحدثّك، إلى من يسندك فوق هذا العالم ذي المهاوي. انظر، وتأملني لفترة أيضاً لأنك لن تراني أبداً إلاّ بشكل ناقص، كرؤيتي على ضوء شمس الأرض الشاحبة.

انتصبت سرافيتا على قدميها، وبقيت ورأسها يميل بارتخاء، وشعرها مسترسل في الوضع الأثيري الذي منحه الرسامون السامون جميعهم إلى رُسُل

---

(١) نجد هناالعناصر المكونة للروح «النور المتناسق المعطر» واذا كنا في الولد الملعون قد لاحظنا مواضيع وصوراً استثمرها بودلير في قصيدة سمو فيمكن أن نسجّل هنا تقاربات: الجمال «الفيزيائي» للروح متحرِّرة من الحواس وهي تتحرك بيُسر؛ صورة العصفور وهو يطير ويغوص في الأجواء العليا، وهي المدى الوضّاء.

الأعالي: كان لثنيات ثوبها تلك الرقة التي لا توصف، فتستوقف الفنان، الذي يفسّر كل شيء بالعاطفة أمام خطوط غلالة بوليمني القديمة [1] ثم مدت يدها، فنهض ولفرد عندما نظر إلى سرافيتا، كانت الشابة البيضاء مستلقية على جلد الدبّ، ورأسها مستند إلى يدها، ووجهها هادىء، وعيناها تبرقان. تأملها ولفرد بصمت، لكن خشية مهيبة كانت تغمر وجهه وتتجلّى في مسحة خجل.

قال أخيراً وكأنه يجيب على سؤال: «نعم يا عزيزتي، إنّ عوالم كاملة تفصل بيننا؛ أنا مقتنع بهذا، لكنني لا استطيع إلا أن أعبدك. إنما ماذا سيحلّ بي، وأنا الوحيد المسكين؟

- ولفرد، أليس لديك رفيقتك مينا؟

خفض رأسه، وتابعت: «لا تكن على هذا القدر من الاستخفاف؛ إن المرأة تفهم كل شيء بالحبّ؛ فعندما لا تسمع فإنها تحسّ، وعندما لا تحسّ فإنها ترى. وعندما لا تسمع ولا تحسّ ولا ترى، فالواقع أن ملاك الأرض هذا يخمّن ما بك ليحميك، فيخبىء حمايته تحت لطافة الحبّ».

- سرافيتا، هل أنا جدير بالانتماء لامرأة؟

---

(١) - وضع اسم بوليمني مكان اسم منموزين. ومنموزين ربّة الذاكرة، وابنة السماء والأرض وأم ربّات الفنون التسع. من والدهم جوبيتر، وهي تمثل دائماً في موقف تأمّل. وقد فضل بلزاك بوليمني ربّة الشعر الغنائي والإيمائية، ومبتكرة التناسق ليس لما ترمز إليه، وإنّما للدونتها الممثلة في تمثال عتيق من رخام اغريقي، وافد من فيلا براغيز ومحفوظ في اللوفر: وهو مشوّه في قسمه الأعلى لكنه مرمّم بشكل موفّق من قبل الايطالي زوغوستن بنّا، وإليكم وصف تيوفيل غوتية له: «تتدثّر بوليمني هذه بثوبها الفضفاض بقسوة مغناج، بطريقة ملؤها الأنوثة، وعتقٍ ملؤه الحداثة، حتى لكأننا نرى امرأة في أيامنا هذه متهندمة وملتفة بشالها الكشمير. ايّة دفقة عجيبة! كم يتآلف القماش مطواعاً يتحبب مع تموّجات الجسم الفاتن الذي يغلفه لكنه لا يخبئه! كم تتثنى الطيّات، وتعرض، وتنساب أو تتوقف بالشكل الملائم! أيّة أناقة، وأيّة رهافة! يخال الينا أن هذه الغلالة تفكر».

تبدو هذه الربّة منحنية على صخرة من غار كوسيريوم وهي تستند إليها في رقّة مفكرة، كأنها تنتظر وتبحث عن الوحي (نصٌ منشور في مجلة لابرس بتاريخ ٢٧ تموز ١٨٥٠، بعنوانٌ متحف الاثريات القديمة» وقد نبّه إليه السيد سوفل محافظ مكتبة سبوليرش دي لوفنجول في شانتيي).

- إنك تغدو فجأة متواضعاً جداً! ألا تنصب في هذا شَرَكاً؟ إن المرأة تتأثر دائماً برؤية ضعفها ممجّداً. إيه! تعال بعد غد مساءً لتتناول الشاي عندي، سيكون الأب الطيب السيد بكر هنا، فترى مينا وهي أكثر المخلوقات التي أعرفها على هذه الأرض براءة. دعني الآن يا صديقي، فإن علي القيام بصلوات طويلة هذا المساء للتكفير عن خطاياي.

- هل يمكن أن تكوني خاطئة؟

- يا عزيزي الطيب؛ أليس في مغالاة الانسان باستعمال قدرته عجرفة؟ أعتقد أنني كنت كثيرة التعجرُف هذا اليوم. هيّا! اذهب. إلى الغد.

قال ولفرد بضعف وهو يلقي نظرة طويلة على تلك المخلوقة التي أراد أن يحتفظ عنها بصورة لا تمحى: «إلى الغد».

بالرغم من أنه أراد الابتعاد فقد بقي لبضع لحظات واقفاً، مهتماً بمشاهدة النور الذي يلتمع من نوافذ القصر السويدي.

سأل نفسه: «ماذا رأيتُ إذاً؟ إنّها ليست مخلوقة بسيطة، إنما هي خَلقٌ كامل. من هذا العالم المستشف عبر الحجب والغيوم يبقى لي أصداء مماثلة لذكريات ألم منقشع أو تشبه الانبهارات الناتجة عن تلك الأحلام التي نستمع فيه إلى تنهدات الأجيال الماضية التي تختلط باصوات الأجواء العليا المتناسقة حيث كل شيء نور وحبّ. هل أنا مُسَّهد؟ أم ما أزال نائماً؟ هل يثقل الوَسَن على عينيَّ، هاتين العينين اللتين تتراجع أمامهما مسافات وضاءة إلى مالانهاية، وهما تتابعان المسافات؟ رغم برد الليل، فإن رأسي ما يزال ملتهباً. فلأذهب إلى بيت القسّ، وسوف أقدر، ما بينه وبين ابنته على استردّاد أفكاري.»

لكنه لم يترك المكان الذي ما زال يمكّنه من التمعّنَ في صالة سرافيتا، فهذه المخلوقة الغامضة تبدو كأنها المركز المشعّ لدائرة تشكّل حولها جواً أكثر سعة من أجواء الآخرين: فمن يدخله يتعرض لدوّامة من الاشراقات والأفكار المضيئة.

إن ولفرد الذي وجد نفسه مرغماً على مصارعة تلك القوة الغامضة؛ لم ينتصر عليها دون بذل جهود كبيرة. لكنّه بعد أن اجتاز نطاق هذا البيت، استعاد حرية اختياره، فسار بسرعة نحو بيت القسّ، ووجد نفسه بسرعة تحت تلك القبّة الخشبية العالية المستخدمة كباحة معمدة لمسكن السيد بكر، فتح البوّابة الأولى المزينة بالنوفر، والتي دفع الهواء بالثلج عليها ثم قرع بشدّة على الثانية قائلاً: أتسمحون لي بقضاء السهرة عندكم يا سيد بكر؟.

ردّ صوتان اختلطت نبراتهما: «نعم».

بدخوله إلى غرفة الجلوس؛ استرد ولفرد الحياة الحقيقية على درجات؛ فحيّا مينا بودّ شديد، وشدّ على يدّ السيد بكر مصافحاً، وأجال نظره في لوحة هدأت صورها من تشنجات طبيعته الجسمانية، التي كانت تتمُّ فيها ظاهرة مماثلة لتلك التي تنتاب الأشخاص الذين ألفوا حياة التأمّلات الطويلة، إذا ما رفعت فكرة نشيطة على جناحي وهمها عالماً أو شاعراً وعزلته عن الظروف الخارجية التي تحتويه في هذا العالم، فأطلقته عبر مناطق بلا حدود حيث تغدو أكثر مجموعات الوقائع سعةً، مجرّدات فقط، وحيث تغدو أوسع أعمال الطبيعة صوراً؛ فالويل له إن تضرب حواسه ضجّة مفاجئة، وتستدعي روحه التائهة إلى سجنها المؤلف من عظم ولحم. إن صدام هاتين القدرتين: الجسم الروح، حيث واحدة مشتقة من فعل الصاعقة غير المرئي، بينما تتقاسم الاخرى مع الطبيعة الحسّاسة تلك المقاومة الرخوة التي تتحدى الفناء موقتاً؛ هذا الصراع بل هذا الاقتران الرهيب يولّد آلاماً خارقة؛ فالجسم عاد يطلب اللهب الذي يفنيه، واللهب تملك فريسته. لكن هذا الانصهار لايتمّ دون الفورانات، ودون التفجرات والعذابات التي تقدم لنا الكيمياء دلالات ظاهرة عليها عندما ينفصل عنصران عدوان راق لهما أن يتحدا [1]. فمنذ عدة أيام عندما دخل

---

(١) - أقام بلزاك منذ مؤلفات شبابه تماثلاً بين مختلف الظواهر الباراسيكولوجية، وإذا كان الفصل بين الحواس والروح قد دفعه إلى تفسيرات سحرية أو فوق طبيعية فإنه استنتج منذ جلد الحبب وفي رواية لويس لامبر خاصة نظرية في الفكر ينسقها مع دراساته عن الكيمياء وفيزيولوجية المخ.

ولفرد إلى منزل سرافيتا؛ سقط جسمه في هوة؛ فبنظرة واحدة قادته هذه المخلوقة الفريدة بالروح إلى أجواء يجتذب التأمّل فيها العالم، وتسمو فيها الصلاة بالروح التقية، والرؤيا تقود الفنان، وسنّة النوم تختطف بعض الناس. فلكل واحد دربه للذهاب إلى الهوّات العليا. ولكل واحد دليله ليتوجه إليها، ويعاني الجميع من العذاب عند العودة.

هناك فقط تتمزّق الحجب، فيظهر التجلي واضحاً، ملتهبا، بوحاً رهيباً بعالم مجهول لا تحمل الروح منه إلى الأرض إلا مزقاً. وبالنسبة لولفرد، فإن ساعة يقضيها قرب سرافيتا تشبه غالباً الحلم الذي يشغف به الترياقيون حيث تغدو كل حليمة عصبية مركز نشوة مشعة. ليخرج منهكاً كفتاة أرهقها الركض وراء عملاق. وبدأ البرد يهدىء بعمليات الجلد الحادة من الاضطراب المرضي الذي سببّه له اندماج طبيعيته المنفصلتين بعنف. ومن ثم هو يعود دائماً إلى منزل القسّ، منجذباً إلى قرب مينا بمشهد الحياة العادية، الذي يتعطش إليه، بقدر ما يتعطش مغامر أوروبي لوطنه، عندما يتملكه الحنين وسط أعاجيب الشرق التي بهرته. في تلك اللحظة استلقى هذا الغريب على أريكة. وقد انهكه التعب، ونظر حوله لفترة كانسان يستيقظ، بينما استمر السيد بكر وابنته في أعمالهما، وهما المتعودان دون شكّ على الغرابة الظاهرة في تصرّف ضيفهما.

كانت تزين غرفة الجلوس مجموعة من الحشرات والقواقع النروجيه، وكانت هذه الطُرَف منضدة على أرضية صفراء من خشب التنوب تبطن الجدران وتشكّل عليها نجوداً غنيّة رسم عليها دخان التبغ ألوانه السخامية. وفي أقصى الصالة، ترتفع مدفأة ضخمة من الحديد المطروق تواجه المدخل الرئيس، وهي تلتمع كالفولاذ المصقول لشدّة عناية الخادمة بتنظيفها. كان السيد بكر جالساً على مقعد وثير، قرب هذه المدفأة أمام منضدة، وقدماه في الكيس الخاص يدفئهما، وهو يقرأ في كتاب من قطع صغير موضوع على كتب أخرى كأنه فوق مسند للقراءة، وإلى يساره ابريق بيرة وكأس، وإلى يمينه مصباح يطلق دخاناً يغذي فتيله زيت السمك. كان هذا

القسّ يبدو في الستين من عمره، ينتمي وجهه إلى ذلك النموذج المحبّب إلى ريشة رمبراندت: بهاتين العينين الصغيرتين المتوقدتين، المحاطتين بدوائر من التجعّدات، يعلوهما حاجبان ثخينان أشيبان؛ وبذلك الشعر الأبيض المنفلت مثل نصلين من صوف مندوف من تحت قبعة من مخمل أسود، وذلك الجبين العريض الأصلع، وذلك المقطع من الوجه وقد جعلته ضخامة الذقن شبه مربع؛ ثم ذلك الهدوء العميق الذي يشير إلى الملاحظ بقدرة ما: هي الملكية التي يمنحها المال، أو القدرة المنبرية لعمدة بلدة، أو الإحساس بالفن، أو القوة المكعبة لجهالة سعيدة وكان هذا العجوز الوسيم الذي تنبيء سمنته عن صحة قويّة ملتفاً بمبذل من جوخ سميك، مزّين ببساطة على أطرافه. وهو يضع في فمه برصانة غليوناً طويلاً من زبد البحر وينفث ضمن فترات متساوية دخان التبغ، متابعاً بعين ساهمة دواماته الغريبة، وهو مشغول دون شك بأن يتمثّل مستعينا بشيءٍ من التأمّل المستوعب، أفكار المؤلّف الذي تهمه مؤلّفاته.

من الجهة الأخرى من المدفأة، وقريباً من الباب المؤدّي للمطبخ، كانت مينا تُرَى بشكل غير واضح ضمن الضباب الناتج عن الدخان الذي يبدو أنها قد اعتادت عليه. وأمامها على منضدة صغيرة الأدوات الضرورية لعاملة. كدسة من المناشف؛ جوارب للرتق، ومصباح شبيه بذلك الذي يلتمع على صفحات الكتاب البيض الذي يبدو أن والدها مستغرق فيه. كان وجهها النضر، الذي تطبع عليه استدارات رهيفة نقاء كبيراً، يتناسق مع البراءة الظاهرة على جبينها الأبيض، وفي عينيها الصافيتين. كانت تجلس باستقامة على كرسيها، وهي تميل قليلاً نحو النور لترى بوضوح، فتبرز دون علم منها جمال صدرها. وقد ارتدت من أجل النوم مئزراً من قماش قطني أبيض، وقلنسوة بسيطة من بركال، وما من زينة أخرى سوى كشكش من القماش ذاته يحيط بشعرها، وبالرغم من أنها كانت غارقة في تأملٍ خفيّ، فإنها تعدُّ دون أن تخطيء خيوط منشفتها أومسارد جوربها، فتبرز على ذلك النحو الصورة الأكثر كمالاً، والنموذج الأكثر صحةً للمرأة المهيّأة للمهام الأرضيّة التي يمكن لنظرتها أن تخترق سحب المعبد، لكن فكرة متواضعة ومتسامحة في آن واحد

تبقيها على مستوى الانسان. كان ولفرد مستلقياً على أريكة بين المنضدتين يتأمّل بنوع من النشوة تلك اللوحة الملأى بالتناسقات التي لا تناسبها سحب الدخان أبداً. كانت النافذة الوحيدة التي تضيء هذه الغرفة خلال الفصل الجميل مغلقة بعناية، وبساط جداري قديم بمثابة ستارة، مثبت على عصا يتدلى مشكلاً طيّة كبيرة لا شيء هنا يثير الإعجاب أو الدهشة، إنما بساطة قاسية وطيبة حقيقية، وعفوية طبيعية، وجميع عادات حياة أهلية دون أكدار أو هموم. كثير من المساكن لها مظهر الحلم، فبريق المتعة العابر يبدو مختبئاً فيها انقاضاً تحت ابتسامة ترف باردة لكن غرفة الجلوس هذه كانت تسمو بالحقيقة، متناسقة باللون، توقظ أفكار السيادة الأبوية لحياة زاخرة بالنشاط والخشوع، فما من شيء يعكر الصمت إلا حركات الخادمة المشغولة بتحضير العشاء، وفقفقة سمكة جافة تُقلى بالزبدة المملحة وفقاً للطريقة المتبعّة في تلك البلاد.

قال القسّ مغتنماً فرصة خيّل إليه فيها أن ولفرد يمكن أن يسمعه: «هل تريد أن تدخّن غليوناً؟».

أجاب ولفرد: شكراً يا سيد بكر.

قالت مينا وقد لاحظت الضعف البادي في صوت الغريب: «إنّك تبدو اليوم أكثر تألُّماً مما أنت عليه عادة!».

– إنّني دائماً هكذا عندما أخرج من القصر.

ارتعشت مينا.

وتابع ولفرد بعد فترة توقف: «إنّه مسكون من قبل شخصية غريبة يا سيدي القسّ. لم أجرؤ منذ ستة أشهر وأنا في هذه القرية أن أوجّه لك أيّة أسئلة حولها، وأنا أجد نفسي مكرها لأن أحدثك عنها اليوم. بدأت آسف بشدّة على رؤية رحلتي تنقطع بقدوم الشتاء، واضطراري للبقاء هنا، ولكن خلال الشهرين الأخيرين، كان كل يوم يشدّ السلاسل التي تربطني بجرفيس، وأنا أخشى أن ألفظ أنفاسي فيها.

أنت تعلم كيف التقيت بسرافيتا، وأي انطباع ولّد فيّ صوتها ونظرتها، وكيف استقبلت لديها وهي التي لم تكن تستقبل أحداً. ومنذ اليوم الاول عدت إلى هنا، لأطلب منك معلومات عن هذه المخلوقة الغامضة، وبعدها بدأت بالنسبة لي سلسلة من ظواهر السحر...

هتف القسّ وهو ينفض رماد غليونه في وعاء خشن مليء بالرمل يستخدمه كمبصقة: «ظواهر سحر! هل هناك ظواهر سحر؟».

تابع ولفرد سريعاً: «بالتأكيد، وأنت الذي تقرأ في هذه الفترة وبكل تمعّن كتاب الرُقيات لجان وبير [1]؛ ستفهم التفسير الذي يمكن أن أعطيك إياه حول أحاسيسي. إذا درسنا بانتباه الطبيعة في تطوراتها الكبيرة، كما في أصغر أحداثها؛ يستحيل علينا عدم الاعتراف باستحالة الظاهرة السحرية، وذلك بإعطاء هذه الكلمة مدلولها الحقيقي إن الإنسان لا يخلق قوى، لكنه يستخدم القوة الوحيدة الموجودة، والتي تلخصها جميعاً وهي الحركة، انها نفخة العاهل صانع الأكوان والتي لا يمكن فهمها أمّا الأنواع فمنفصلة انفصالاً شديداً بحيث لا تستطيع اليد البشرية أن تخلط بينها، امّا الأعجوبة الوحيدة التي كانت قادرة عليها فقد تمت باندماج عنصرين متعاديين. وهكذا فالبارود شقيق الصاعقة! اما بشأن انبثاق الخلق، فجأة؟! فكل خلق يتطلب زمناً، والزمن لا يتقدم ولا يتأخر حسب مشيئتنا؛ وهكذا فإن الطبيعة اللدنة، خارجاً عنا، تخضع لقوانين لا يتبدل نظامها وتطبيقها بأيّة يدٍ انسانية. لكن بتبيّن جانب المادة، من غير المعقول عدم الاعتراف بوجود قدرة هائلة فينا لا يمكن قياس تأثيراتها إلى درجة أن الأجيال المعروفة لم تتمكن حتى الآن من تصنيفها. لا أحدثك على قدرة تجريد كل شيء، وقسر الطبيعة على الانحباس

(١) - كان جان وبير WIER خادماً لكورني أغريبا، وتحدث عنه في كتاب «السحر»، قد قرأ بلزاك ملاحظة بايل عن أغريبا في «المعجم التاريخي والنقدي» وملاحظاته عن جان وبير، ويذكر تيفيه وهو من ناقدي أغريبا أن جان وبير «كان يسخر من أحلام أغريبا الذي يختلق رؤى مثيرة للسخرية» في كتاب أوهام الأرواح ورؤاها، لكن بايل يلاحظ أنّه لم يجد هذا الكتاب في مؤلفات ج وبير المطبوعة في امستردام العام ١٦٦٠.

في الكلمة وهو فعل جبار لا يفكر الانسان العادي فيه كما لا يفكر بالحركة، لكنه قاد التيوزفيين الهنود إلى تفسير الخلق بكلمة أعطوها قدرة معكوسة، فأصغر جراية من غذائهم وهي حبّة الأرزُ التي ينبثق منها خلْق، وهذا الخَلْق يتلخّص فيها بالتناوب، تقدم لهم صورة بمنتهى النقاء للكلمة الخلاّقة، والكلمة المجرّدة بحيث يعتبر من السهل تطبيق هذا النظام على انتاج العوالم. وقد وجب على معظم الناس أن يكتبوا بحبة الأرزُ المبذورة في أول سورة من جميع اسفار التكوين أمَّا القديس يوحنا فما إن قال إن الكلمة كان في الله حتى عقد المشكلة علينا؛ لكن بذار افكارنا وإنتاشها وإزهارها هو نزر يسير، إذا قارنا هذه الخاصيّة المشتركة بين معظم الناس، بالقدرة الفردية على منح تلك الخاصيّة قوى ناشطة الى حد ما بفعل تركيز اجهل فحواه، ثم رفعها إلى الأُس ّ الثالث أو التاسع أو السابع والعشرين، وجعلها تشدُّ هكذا على الكتل المتراكمة، فتحصل على نتائج سحرية بتكثيف تأثيرات الطبيعة. والحال إنني اسمي سحراً. تلك الافعال الهائلة الناشطة بين غشاءين من تركيب دماغنا. ونصادف في الطبيعة غير المكتشفة من العالم الروحي بعض الكائنات المسلّحين بهذه القدرات الخارقة، التي يمكن مقارنتها بالاستطاعة الهائلة التي تمتلكها الغازات في العالم الفيزيائي، وهي باندماجها مع كائنات أخرى تتغلغل فيها كسبب فاعل، محدثة فيها رُقيات يكون أمامها هؤلاء المسترقون المساكين بدون حماية: إنّها تسحرهم، وتختزلهم إلى تبعية رهيبة، وتفرض عليهم هيمنات طبيعة متفوقة واستبدادها بفرض التأثير تارة على طريقة السمك الرعّاد الذي يكهرب صيّاد البحر ويخدره، وتارة أخرى كجرعة من فوسفور تهيّج الحياة أو تسرع الإسقاط، ومرة ثالثة كالأفيون الذي ينيم الطبيعة الجسدية، ويحرّر الروح من روابطها، ويدعها تحلّق في العالم، فيريها اياه عبر موشور، وتستخلص منه الغذاء الذي يروق لها، وأخيراً كالجمدة(*) التي تلغي جميع القدرات لمصلحة رؤيا واحدة. ليست العجائب، والسحر، والتعزيمات، والرقيات؛ وأخيراً جميع الأفعال الموصوفة

(*) - الجُمدَة أو الآخذة Gatalepsie : ضياع القلوصية الإرادية من العضلات ضياعاً مؤقتاً مع استعداد العضلات والجذع للاحتفاظ بالأوضاع التي تعطاها (من معجم العلوم الطبية).

خلافاً للأصول فوق طبيعية، ليست ممكنة، ولا تفسَّر إلا بالهيمنة التي يمكن فيها لروح أن تقسرنا على الخضوع لتأثيرات منظور خفي، يكبرُ الخلق ويصغّره، ويعظّمه، ويحركه فينا على هواه، فيشوّهه أو يجمله لنا، يختطفنا إلى السماء أو يغرقنا في الجحيم وهما التعبيران اللذان نطلقهما على المتعة القصوى أو الألم البالغ. هذه الظواهر هي فينا وليست من الخارج[1]. يبدو لي أن المخلوق الذي تسميه سرافيتا هو أحد تلك الأبالسة النادرة والرهيبة التي منحت القدرة للسيطرة على الناس والضغط على الطبيعة والدخول في مشاركة مع القدرة الخفيّة لله. وقد بدأ تأثير سحرها علي بالصمت الذي ألزمتني به، وفي كل مرّة تجرّأت على التصميم بسؤالك عنها، بدا لي أنني مزمع على كشف سرّ، ينبغي أن أكون أنا الحارس المؤتمن عليه. في كل مرة أردت أن استفهم منك عنها، أشعر بَختْم خارق يُطبق على شفتي، وأكون الخادم اللاإرادي لهذا الدفاع الخفيّ. أنت تراني هنا للمرّة المئة، خائر العزم، محطماً، لأنني تعرّضت لهذا العالم المُهَلْوَس المتجلّي في تلك الفتاة الرقيقة بالنسبة لكما معاً، والساحرة الأكثر قسوة بالنسبة لي. نعم إنّها بالنسبة لي كجنيّة تمسك بيدها اليمنى جهازاً غير مرئي لتحريك الكرة الأرضيّة، وباليد اليسرى الصاعقة لتصهر كل شيء كما تريد. وأخيراً فلم أعد أتمكن من النظر إلى جبينها، فهو ذو صفاء لا يحتمل، إنني أقارب بشكل أخرق منذ عدة أيام هوّات الجنون بحيث لم يعد يمكنني السكوت، وأنا انتهز الفرصة التي امتلكت فيها الشجاعة على مقاومة هذا الغول الذي يقودني خلفه دون أن يسألني إن كنت استطيع اللحاق بطيرانه. فمن هي؟ هل رأيتموها وهي صغيرة؟ هل ولدت يوماً كما ولد الناس؟ هل لها أهل؟ أم أنها تولّدت عن اقتران الجليد بالشمس؟ فهي تجمّد وتحرق، وتظهر وتنسحب كحقيقة غيور، إنّها تجذبني وتدفعني؛ تمنحني بالتناوب الحياة والموت؛ أحبها وأكرهها؛ لم يعد يمكنني أن أعيش هكذا، فأنا أريد أن أكون كليّة إما في السماء أو في الجحيم».

(١) – أفكار مستمدة من القاموس التاريخي والنقدي لبايل Bayle الصادر في العام ١٦٩٧.

كان السيد بكر يستمع إلى ولفرد بهيئة غامضة، وهو يمسك بإحدى يديه غليونه الذي حشاه مجدداً، وبالأخرى غطاء الغليون الذي لم يضعه عليه. وكان ينظر أحياناً إلى ابنته، التي يبدو عليها أنها تفهم هذه اللغة، وهي في تناسق مع الكائن الذي يوحي بها. كان ولفرد وسيماً كهملت وهو يقاوم شبح والده ويتحادث معه وهو يراه ينتصب من أجله وحده وسط الأحياء.

- قال القس الطيّب بسذاجة: «إن هذا أشبه بخطاب رجل عاشق».

- أجاب ولفرد: عاشق! نعم، وفق الأفكار المبتذلة، ولكن يا سيدي العزيز بيكر ما من كلمة يمكنها التعبير عن السعار الذي ينتابني في اندفاعي نحو هذه المخلوقة المتوحشة.

قالت مينا، بلهجة ملامة: أنت تحبها إذاً؟.

- ياآنسة، أشعر بارتعاشات فريدة عندما أراها، وبأحزان عميقة جداً عندما لا أراها، ومثل هذه الانفعالات عند أي انسان تعبّر عن الحبّ. لكن هذه العاطفة تكون متأججة وهي ما بين الكائنات، أما بيني وبينها فتنفتح هوة لا أدرك كنهها تتغلغل إليّ برودتها عندما أكون في حضرتها؛ ويتلاشى عني الإحساس بها عندما ابتعد عنها. أتركها دائماً وأنا آسف، وأعود إليها دائماً بحميّة أكبر، كأولئك العلماء الذين يبحثون عن سرٍّ، وتردُّهُم الطبيعة عنه، وكالرسّام الذي يريد أن يبثّ الحياة في لوحة ويجهد بكل وسائل الفن في هذه المحاولة العابثة.

أجابت الفتاة الشابة بسذاجة: «يبدو لي كل هذا صحيحاً، يا سيدي».

سأل العجوز: كيف يمكنك أن تعرفي ذلك، يا مينا؟.

- آه! يا أبي، لو أنك صعدت معنا هذا الصباح إلى قمم فالبرغ، ورأيتها وهي تصلي لما طرحت عليّ هذا السؤال! ولقلت ما قاله السيد ولفرد عندما رآها لأول مرّة في معبدنا «إنّها عبقرية الصلاة!».

تبع هذه الكلمات الأخيرة لحظة صمت ثم أستأنف ولفرد الكلام بالقول:

«آه! ليس لها بالتأكيد أيّة روابط مشتركة مع المخلوقات التي تتحرك في أصقاع هذه الأرض.

هتف القس العجوز مخاطباً ابنته: «على الفالبرغ، كيف أمكنكم الوصول إلى هناك؟».

أجابت مينا: «لا أعلم، تبدو لي رحلتي الآن وكأنها حلم، لم يبق لي منه إلا الذكرى فقط، بل أكاد لا أؤمن بذلك لولا هذا الدليل المادي».

وأخرجت الزهرة من صدرها وأرتهما إياها وتسمّرت أنظار الثلاثة على الزهرة الجميلة من فصيلة كواسر الحجر التي ما تزال نضرة، وبدت تلمع بين غيوم دخان التبغ بعد أن انعكس عليها نور المصابيح كأنها نورٌ آخر.

قال العجوز وهو يرى زهرة متفتحة في الشتاء: «هذا فوق الطبيعي!».

هتف ولفرد وقد انتشى بالعطر: «إنّها هوّة!».

قالت مينا: «هذه الزهرة تشعرني بالدوار، يخيل إلي إنني ما أزال اسمع كلامها وكأنه موسيقى الفكر، كما أرى ضوء نظراتها وهي الحب الخالص.

قال ولفرد: رحماك، يا سيدي العزيز بكر، حدّثنا عن حياة سرافيتا، الزهرة البشرية اللغز، والتي تتجلى صورتها في الزهرة الغامضة الماثلة أمامنا.

أجاب العجوز وهو ينفث نفحة من دخان التبغ: يا ضيفي العزيز؛ لكي أشرح لك ولادة هذه المخلوقة من الضروري أن أخلصك من السحب الأكثر قتامة في جميع المذاهب المسيحية، لكن ليس من السهل التحدث بوضوح عن التجليات الأكثر إبهاماً، وهي البريق الأخير من الإيمان الذي شعّ، كما قيل، على كرتنا الموحلة. هل تعرف سويد نبرغ؟

- بالاسم فقط، لكني لا اعرف شيئاً عن حياته وكتبه، ومذهبه الديني!

- لا بأس! سأحدثكما عن سويد نبرغ بشكل مفصل!

III

سرافيتا - سرافيتوس

بعد فترة توقّف بدا فيها القسّ وكإنه يجمع ذكرياته انطلق بهذا الحديث:

«ولد عمانوئيل سويدنبرغ [1] في أبسالا في السويد في شهر كانون الثاني ١٦٨٨ بالنسبة لبعض المؤلفين [2] وفي ١٦٨٩ بالنسبة لشاهدة القبر، وكان والده مطرانا في سكارا، وعاش سويدنبرغ خمسة وثمانين عاماً، ومات في لندن في ٢٩ اذار ١٧٧٢، وأنا استخدم هذا الاصطلاح للتعبير عن تبدّل بسيط في الحالة، فتلاميذه يعتقدون أنه شوهد في جرفيس وفي باريس في أوقات لاحقة لهذا التاريخ».

---

(١) - بينت بولين برنهايم في مؤلف لها بعنوان «بلزاك وسويدنبرغ، برلين ١٩١٤»، بواسطة مقاربات في النصوص، الاستعارات التي اخذها بلزاك عن كتاب «مختصر مؤلفات عمانوئيل سويدنبرغ»، لدايان دلاتوش وقد أعابت بولين على بلزاك أنه أخذ مقاطع من الكتاب المذكور حرفياً، دون أن يشير إلى المصدر، واعتبرت ذلك برهاناً غير محبّب عن سوء أمانة الكاتب، كما أشارت إلى التحوير في مذهب السويدي، سواء بتعديل النصّ، أو بعدم متابعة المختصر على الترتيب المتبع فيه، ونسبت ذلك إلى الفوضى والخلط في أوراق الملاحظات التي أخذها بلزاك.

هذه الاتهامات غير رصينة، وفائدة التحليل النقدي هي أن يبحث عن أسباب التعديلات التي أجراها بلزاك على نصوص دايان دي لاتوش، والاستدلال عن تأثيرات النصوص الأخرى وعلي سبيل المثال مختصر هندمارش الذي قرأه بدوره، والذي يفسّر مذهب سويدنبرغ بصيغ كثيرة الاختلاف أحياناً عن تلك التي أتى بها سابقه: وهي طريقة مصنّف جمّاع يمكن أن تبرّر الحرية الخاصة التي سمح بلزاك لنفسه بها بالنسبة للمعلم.

(٢) - ولد سويدنبرغ حسب دراسة دايان دي لاتوش في ٢٩ كانون الثاني ١٦٨٨.

ثم أشار القس بيده ليحول دون أيّة مقاطعة له وقال: «اسمح لي، يا سيدي العزيز ولفرد أن أقص الوقائع دون أن أثبتها أو أنفيها. اصغ إليّ وفكر فيما بعد بهذا كما تشاء، وسأنبهك عندما أحكم أو أنقد أو أناقش المذاهب لتتحقّق من حيادي الفكري ما بين العقل وبينه هو».

ثم تابع القس يقول: تنقسم حياة عمانوئيل سويدنبرغ إلى قسمين [1] من العام ١٦٨٨ إلى العام ١٧٤٥ ظهر البارون عمانوئيل دي سويدنبرغ في المجتمع كواحد من الرجال الاكثر علماً ومعرفة فهو موضع تقدير، محترم لفضائله لايتطرق إليه لوم، ويقدم باستمرار كل ما هو نافع. وفيما كان يشغل أعلى الوظائف في السويد، ونشر بين عامي ١٧٠٩ و ١٧٤٠ كتباً في المينرالوجية والفيزياء، والرياضيات، والفلك، هي كتب عديدة وقيمة نوّرت الوسط المتعلّم. وقد اخترع طريقة لبناء الأحواض الخاصة باستقبال المراكب وكتب في المواضيع الأكثر أهمية بدءاً من ارتفاع المدّ حتى وضعية الأرض، ووجد في آن واحد الوسائل لبناء أحسن الهويسات للأقنية، والطرق الأكثر بساطة في استخلاص المعادن. وهو أخيراً لم يهتم بعلم إلا وقدّم فيه أعمالاً ناجحة. قد درس في أيام شبابه اللغات العبرية، واليونانية، واللاتينية، واللغات الشرقية [2]، وقد غدت معرفتها مألوفة لديه، حتى أن عدة أساتذة مشهورين كانوا غالباً ما يستشيرونه. وأمكنه أن يتعرّف في التارتاري على بقايا كتاب **الكلام** المسمى **حروب يهوه** والشروح التي تحدث بها موسى في سفر العدد (الإصحاح ٢١، الفقرات ١٤، ١٥، ٢٧ - ٣٠)، ويسُوع وآرميا وصموئيل **فحروب يهوه** كانت القسم التاريخي **والشروح** هي القسم النبوئي لهذا الكتاب السابق لسفر التكوين. حتى أن سويدنبرغ أكّد أن **سفر ياسُر** أو **كتاب العادل** الذي أشار إليه يشوع موجود في **التارتاري الشرقية** مع عبادة التوافقات،

(١) - استقى بلزاك معظم معلوماته المتعلقة بحياة سويدنبرغ من عرض أوكي لدايان دي لاتوش سبق نص المختصر.

(٢) - نسب بلزاك إلى لويس لامبر معرفة هذه اللغات بالذات.

ويقال إن فرنسياً قد تحقّق حديثاً من توقّعات سويدنبرغ بإعلانه أنه قد وجد في بغداد عدة أقسام من التوارة غير معروفة في أوروبة [١]، وخلال المناقشات شبه الأوروبية التي أثارتها المغناطيسية الحيوانية في باريس والتي ساهم بها جميع العلماء تقريباً بنشاط في العام ١٧٨٥ ؛ انتقم المركيز دي تومه لذكرى سويدنبرغ بإحيائه إثباتات فاتت المفوضين المعيّنين من قبل ملك فرنسة من أجل فحص المغناطيسية [٢]. فقد زعم هؤلاء السادة عدم وجود أية نظرية للمغناطيس. بينما اهتم سويدنبرغ بذلك منذ العام ١٧٢٠، واغتنم السيد دي تومه هذه المناسبة ليبيّن أسباب النسيان التي دفعت رجالاً من الأكثر شهرة لترك العالم السيدي بغية أن ينّقبوا في كنوزه للاستفادة منها في أعمالهم. قال السيد دي تومه ملمحاً إلى **نظرية الأرض** لبوفون: «إن بعض العلماء من الأكثر شهرة بلغ بهم الضعف حد التباهي بريش الطاووس دون أن ينحوه أي تقدير». أخيراً برهن باستشهادات موفّقه مأخوذة من مؤلفات سويدنبرغ الموسوعية أن هذا المتنبىء العظيم قد سبق بعدة قرون سير العلوم البشرية البطيء: يكفي في الواقع أن نقرأ مؤلّفاته الفلسفية والمينرالوجية للاقتناع بذلك. ففي مقطع ما يبدو رائد الكيمياء الحالية بإعلانه أن منتجات الطبيعة المعضاة كلّها قابلة للتحلُّل وتنتهي إلى عنصرين نقيين؛ وأن الماء والهواء والنار ليست عناصر وفي مقطع آخر ينطلق بكلمات معدودة إلى عمق الأسرار المغناطيسية فيخطف منها

---

(١) – هذه الإشارات المتعلقة بالبقايا الأولى للكتابة المقدسة مستخلصة من فصل «الكتابة المقدسة» في المختصر وملاحظة في العرض الأوّلي لدايان دي لاتوش يشير إلى مقطع من الرؤيا الموحى بها وقد رأت بولين برنهايم بمناسبة الكشف المصرح القيام به حديثاً من قبل أحد الفرنسيين. «أن بلزاك ينسخ دون تمييز. فالمختصر يعود إلى العام ١١٧٨٨» هذا التاريخ صحيح، لكن قصة القس بكر ترد بين ١٧٩٩ و ١٨٠٠ وهذا ما يبرّر تماماً استخدام بلزاك «الكلمة حديثاً» كما أن برنهايم قد أنتقدت الاشارة إلى تاريخ موت ماتزيوس.

(٢) – إن مداخلة المركيز دي تومه قد وردت لدى تافل في كتاب عن الوثائق المتعلقة بسويدنبرغ منشور في العام ١٨٣٩ أي بعد صدور سرافيتا وبالتالي فبلزاك لم يأخذ عنه وإنما أخذ عن ذات المصدر الذي استقى منه تافل معلوماته وهو «لوحة تحليلية وعقلانية للمذهب السماوي للكنيسة ولأوروشليم الجديدة أو مختصر المؤلفات اللا هوتية لعمانوئيل سويدنبرغ (لندن ولاهاي ١٧٨٦ – هذا الكتاب الغفل من اسم المؤلف هو في رأي باربيه من تأليف ب. شاستانيه».

على ذلك النحو معرفة مسمر الأولى [1]. ثم أشار السيد إلى لوح طويل ممتد بين المدفأة والنافذة وقد صفّت عليه كتب من مختلف الحجوم وقال: هوذا ما هو منه، سبعة عشر مؤلفاً، منها واحد فقط هو: الأعمال الفلسفية والمينرالوجية المنشور في العام ١٧٣٤ وهو في ثلاثة مجلدات بقطع نصفي. هذا الانتاج الذي يشهد على المعارف الثابتة لسويدنبرغ، قد قدّم لي من قبل ابن عمه السيد سرافيتوس، والد سرافيتا. في العام ١٧٤٠ أصيب سويدنبرغ بصمت مطلق لم يخرج عنه إلا بعد أن هجر اهتماماته الدنيوية وراح يفكر حصراً بالعالم الروحي. وقد تلقى أولى الأوامر من السماء في العام ١٧٤٥. وإليك كيف تحدّث عن الدعوة السماوية: ذات مساء،

(١) - دفعت الحظوة التي عرفتها المسمرية الحكومة في العام ١٧٨٤ إلى تشكيل لجنة مؤلفة من أعضاء من أكاديمية العلوم وآخرين من كلية الطب، وقد أخضعت المنوّمين مغناطيسياً إلى سلسلة من التجارب انتهت إلى نتيجة عبر عنها تقرير بايي خلاصتها «أن الظواهر المدّعى أنها مغناطيسية ما هي إلا نواتج خيال» لكن هذا لم يحل دون أن تتشكل المسمرية في جمعيات قد تكون ضيقة لكنها متزمتة. وفي العام ١٨٢٥ تشكّلت لجنة جديدة اعتمدت على تجارب جديدة وأعطت رأياً مؤيداً في تقرير هوسون دخلت المسمرية والاهتمام بالمغناطيسية إلى السويد من قبل أشخاص مقدرين عرفوا مبادئها خلال رحلاتهم إلى باريس ووصل الافتتان بها إلى البلاط بشكل وصف بأنه مثير للسخرية وموروست التجارب المغناطيسية في فنلندة، وفيما يلي رأي ج. أسربي عن هذه التظاهرات:
«من المكدّر عامة أن المسمريين عند رؤية هذه الظواهر الغريبة وأتجرأ على القول فوق الطبيعية تتوقّد أخيلتهم إلى درجة يفترضون لها أسباباً خفيّة». فأحدهم «يعتقد أن روح الشخص النائم تنقل إلى مناطق لا يمكنها أن تحفظ عنها أية فكرة عندما تعود مجدداً لتلتقي مع الجسم» حتى أن هناك آراء أخرى أكثر غرابة بعضها يؤكّد أن جميع الأرواح مكتسية بالبياض وهي تتمتع في هذه الأمكنة بملذات تفوق كل إدراك، ورأي يعتقد أن هذه الحالة من النوم يتنبأ الناس بالأحداث المقبلة، أن الأرواح المرتفعة إلى المستويات العليا من الإدراك يمكنها أن ترى عدداً من الأشياء غير المرئية من قبل الأعضاء المادّية في نظرنا». «وبما أن الفيزيائيين قد أجروا اكتشافات رائعة خلال أبحاثهم عن السيّالات الكهربائية والغالفانية، فليس من المستحيل أن يكتشفوا سيالة أو مادة لها قوانينها وألفاتها النسبية. واعتقد أن في المغناطيسية الحيوانية وقائع لا يمكن أن ترد إلى التخيّل كسبب ولا إلى أي سبب آخر معروف أو مفترض من قبل اعداء هذا النظرية.
من ذلك استنتج أننا في ظلمة فيما يتعلق بالسبب الذي لا يمكن اعطاؤه اسماً لكن لا يمكن انكار وجوده.
هذه الأفكار تعبر جيّداً عن آراء العصر المختلفة حول المغناطيسية، وهي آراء عرف بلزاك كيف يستثمرها في لويس لامبر وسرافيتا وأورسول ميروه من بين روايات أخرى.

في لندن، بعد أن تناول عشاءه بشهية كبيرة، انتشر ضباب كثيف في غرفته، وعندما انقشعت العتمة، نهض مخلوق اتخذ الشكل البشري من زاوية غرفته، وقال له بصوت رهيب: «لا تأكل بهذا المقدار!» فاتَّبع صوماً مطلقاً. وفي الليل التالي عاد الشخص نفسه، وهو يشعّ نوراً، وقال له: **«إنني مرسل من الله الذي اختارك لتشرح للناس معنى كلامه، وحالات خلقه، وسأملي عليك ما عليك أن تكتبه»**. دامت الرؤيا قليلا من الوقت وكان الملاك، حسب قوله، مرتدياً حلّة أرجوانية. خلال ذلك الليل، كانت عينا **إنسانه الداخلي** مفتوحتين ومهيّأتين لترىا في السماء، وفي عالم الأرواح وفي الجحيم، في المستويات الثلاثة المختلفة حيث صادف أشخاصاً من معارفه، سبق أن هلكوا، بعضهم منذ مدة طويلة، والآخرون منذ قليل من الزمن وهم في شكلهم البشري ومنذ تلك اللحظة، عاش سويدنبرغ باستمرار حياة الأرواح، وبقي في هذا العالم، كمرسل من عند الله [1].

إذا كانت رسالته قد أنكرت من قبل الجاحدين، فإن سلوكه كان بالتأكيد سلوك كائن يسمو على الانسانية؛ فهو أولاً، وبالرغم من أنه اقتصر في الإنفاق على الضرورة القصوى؛ منح مبالغ كبيرة ومرتفعة علناً إلى عدة مدن تجارية، وإلى بيوتات كبرى أفلست أو كادت أن تفلس، وما من أحد ناشد أريحيته إلا وعاد

(١) - في العرض الأولي لدايان دي لاتوش، اعادة نشر رسالة يشرح فيها سويدنبرغ للسيد روبسام قصة دعوته السماوية، وهي رسالة مدرجة في مقدمة المفصل - السماء والجحيم.
ونص بلزاك يعدّل ببعض تفاصيل ليست قليلة الأهمية نص الرسالة التي تورد ب. برنهايم مقاطع منها، وتعديلات بلزاك تهدف إلى ثلاثة أمور: اهتمام بالمنطق فهو يشير إلى الظهور الذي خصّ به السويدي ليس «كانسان» (وهو ظهور إلهي وفقاً لسويدنبرغ) وإنّما «كمخلوق أخذ الشكل البشري» وهو تعبير يعيد إلى السياق الخرافي أو الجني، بغرض تخفيف الولع بالأكاذيب التخيّلية للمتنبىء الذي يعتقد أنه ذو حظوة في لقاء شخصي مع الله، وهو يستعيض عن تصريح: «أنا الله، الخالق والمخلص» بالتصريح التالي: «أنا المرسل من عند الله» ويعرف الرؤيا وكأنها رؤيا ملاك وليست رؤيا المخلص الاله، بانحراف بارع بين مذهب سويدنبرغ المخصّص «ليشرح للناس المعنى الداخلي والروحي للكتابات المقدسة» ومذهب سرافيتا الذي يقوم على أن يشرح للناس معنى كلام الله ومخلوقاته فهو يبدل فكرة مخطط الصوفيّة الشخصية إلى المخطط الميتافيزيقي والكوسمولوجي (الكوني).

راضياً. وقد قصّ انكليزي شكّاك عمد إلى ملاحقته، وصادفه في باريس، أن أبواب بيته تبقى باستمرار مفتوحة. وفي يوم شكا خادمه من هذا الإهمال الذي يعرضه للشبهة في حال وقوع سرقة لمال سيده؛ فقال سويدنبرغ باسماً: «فليكن مطمئناً، وأنا اصفح عن ريبته، فهو لا يرى الحارس الساهر على بابي». والواقع أنه لم يغلق أبوابه في أيّة مدينة سكنها، ولم يضع له شيء في أي مكان. وفي غوتمبرغ، وهي مدينة تقع على بعد ستين ميلاً من استوكهولم، أعلن بدقة وقبل وصول البريد بثلاثة أيام، عن ساعة وقوع الحريق الذي اجتاح استوكهولم، مبيّناً أن بيته لم يصب بأذى وكان ذلك صحيحاً. وقد قصّت ملكة السويد في برلين على أخيها الملك، أن إحدى وصيفاتها أنذرت بطلب لدفع مبلغ تعرف أن زوجها قد سدّده قبل وفاته، لكنها لم تجد الوصل المشعر بذلك، فذهبت إلى سويدنبرغ ورجته أن يسأل زوجها أين يمكن أن تجد البيِّنة على التسديد. وفي اليوم التالي دلّها على مكان الوصل، ولكن لما كان قد رجا المرحوم، وفقاً لرغبة تلك السيدة، أن يظهر لزوجته؛ فإن هذه رأت زوجها في الحلم مرتدياً المبذل الذي كان يرتديه قبل موته وأشار إلى الوصل في المكان الذي حدّده سويدنبرغ، حيث كان في الواقع مخفياً[1]. وذات يوم، وهو يبحر من لندن على سفينة القبطان ديكسون؛ سمع سيدة تسأل إن كانت السفينة مجهزة بالمؤن بشكل جيّد، فأجابها: «لا يلزم الكثير فبعد ثمانية أيام، وفي الساعة الثانية سنكون في مرفأ استوكهولم» وهذا ماحدث.

كانت حالة الرؤيا التي يكيّفها سويدنبرغ وفق إرادته، والمتعلقة بالأشياء الأرضية، والتي كانت تدهش جميع من يقاربونه بتأثيراتها الرائعة؛ تطبيقاً بسيطاً لقدرته على رؤية السموات، ومن بين رؤاه تلك التي يتحدث فيها عن رحلاته إلى أراضي الكواكب وهي ليست أقلها فضولاً وأوصافها تدهش بالضرورة بسذاجة التفاصيل؛

---

(١) - استفادت اورسول ميروه من الحظوة ذاتها، فرأت في المنام عرّابها الميت يشير لها إلى المكان الذي توجد فيه الدراهم المخصصة لها التي سرقها مينوره لفرو. وقد لفتت الظواهرماوراء النفسية انتباه بلزاك المستمر الذي أسّس على ملاحظاته نظريته في تشكل الأفكار وكذلك نظرية الحياة الآخرة، تحت شكل مادي، لقد رات الروح.

ومن المؤكد أن رجلاً في مستواه العلمي الواسع الذي لا يتطرّق إليه الشك، وهو يجمع في نفسه الإدراك والإرادة والتخيل، بإمكانه أن يبتكر أفضل من ذلك لو أن ذلك كان ابتكاراً. وأدب الشرقيين الخرافي لا يقدم، مع ذلك، شيئاً يمكن أن يعطي فكرة عن ذلك العمل المبهر المليء ضمنا بالشعر، لو كان لنا أن نقارن مؤلف إيمان بمؤلفات تخيل عربي. إن اختطاف سويدنبرغ من قبل الملاك، المخصّص له كوكيل في أولى رحلاته، هو من السمو بحيث يتجاوز بمقدار المسافة التي وضعها الله بين الأرض والشمس، ملاحمَ كلوبستوك وميلتون، تاس، ودانتي. وهذا القسم المستخدم كبداية لمؤلّفه عن **اراضي الكواكب** لم ينشر أبداً، وهو ينتمي إلى التقاليد الشفهية التي تركها سويدنبرغ إلى مريديه الثلاثة الأقرب إلى قلبه، والسيد سيلفريشم[1] يمتلكها مكتوبة. وقد أراد السيّد سرافيتوس أن يحدثني عنها أحياناً لكن ذكرى كلمات ابن عمه كانت ملتهبة حتى أنّه كان يتوقف عند العبارات الأولى ويروح في حلم يقظة لا يمكن اخراجه منه. أما الحديث الذي برهن فيه الملاك لسويدنبرغ على أن هذه الأجسام لم تنشأ لتكون تائهة أو مقفرة فهو حديث يفحم، كما قال لي البارون، جميع العلوم الانسانية، تحت عظمة المنطق الالهي، ووفقاً لهذا المتنبيء فإن سكان المشتري لا يدرسون العلوم أبداً ويسمونها أشباحاً، وسكان عطارد يكرهون التعبير عن الأفكار بالكلام الذي يبدو لهم مغرقاً في الماديّة، فلهم لغة عينيّة يتفاهمون بها؛ وسكان زحل مبتلون بالأرواح الشريرة باستمرار، وسكان القمر صغار كالاطفال في السادسة من عمرهم، وصوتهم ينطلق من بطنهم، وهم يزحفون. وسكان الزهرة بقامة عملاقة لكنهم بلهاء ويعيشون من اللصوصية؛ غير أن بعض سكان هذا الكوكب على جانب من اللطف كبير ويحيون في حب الخير. أخيراً فقد وصف طبائع الشعوب المرتبطة بهذه الكواكب، وفسر المعنى العام لوجودها بالنسبة للكون بتعابير دقيقة جداً، وأعطى تفسيرات تتناسق جيّداً مع تأثيرات دوراناتها الظاهرة في النظام العام للعالم الذي قد يأتي يوم يتمكن فيه

---

(١) – هو ابن أخ سويدنبرغ.

العلماء من أن يتملّوا فيه من متع هذه المنابع الوضاءة. تناول السيد بكر كتاباً فتحه على مكان أُشير إليه بالدلالة وقال: هذه هي الكلمات التي أنهى بها هذا المؤلّف: «إن شك أحد في أنني تنقلت في عدد كبير من الأراضي الكوكبية، فليتذكر ملاحظاتي حول المسافات في الحياة الأخرى، فهي غير موجودة إلا نسبياً في الحالة الخارجيّة للإنسان، الحال أنني هيِّئت داخلياً كالأرواح الملائكيَّة في تلك الأراضي فاستطعت التعرّف عليها [1]. إن الظروف التي هيّأت لنا وجود البارون سرافيتوس في هذه المنطقة، وهو ابن العم المحبوب لسويدنيرغ، لم تجعلني غريباً عن أي حدث من هذه الحياة الفريدة. ولقد اتهم سويدنبرغ مؤخراً بالتضليل في بعض الصحف العامة في أوروبة التي روَت الحدث التالي، وفقاً لرسالة من الفارس بيلون [2]: «إن سويدنبرغ على ما يقال، احيط علماً من قبل بعض أعضاء مجلس الشيوخ، بمراسلة سريّة للمرحومة ملكة السويد مع اخيها أمير بروسية فكشف عن أسرارها لتلك الأميرة، وجعلها تعتقد بأنه اطلع عليها بوسائل فوق طبيعية» [3]. إن رجلاً جديراً بالثقة هو السيد شارل ليونار دي ستالهامر الضابط في الحرس الملكي ورجل السيف قد ردّ برسالة على هذا الافتراء.

فتّش القسّ في درج طاولته بين بعض الأوراق وانتهى بأن عثر فيه على صحيفة قدمها لولفرد الذي قرأ بصوت عال الرسالة التالية [4]

استوكهولم ١٣ آيار ١٧٨٨

---

(١) - إن وصف أراضي الكواكب مستخلص من المختصر لدايان دي لاتوش «فصل سعة السماء.

(٢) الفارس جان فرانسوا بيلون ولد في سويسرة في العام ١٧٦٠، وكان ملحقاً كقارىء في خدمة الملكة لويز أولريك ملكة السويد، واستخدم كوسيط بين بلاطات السويد وفرنسة واسبانية. وكان في قلب الدسائس فجرّب أن يخفف التوتر الحاصل بين الملكة وابنها غوستاف الثالث.

(٣) - هذا الخبر منقول عن العرض الأوّلي في المختصر لدايان دي لاتوش.

(٤) - هذه الرسالة منقولة حرفياً عن العرض الأوّلي.

قرأت بدهشة الرسالة التي تروي المقابلة التي تمّت بين سويدنبرغ الشهير مع الملكة لويز - أولريك؛ إنّ الظروف مغلوطة تماماً وآمل أن يغفر لي المؤلّف إن أظهرت مدى خطئه بسرد أمين للواقعة يمكن أن يشهد عليه عدة أشخاص مرموقين كانوا حاضرين وما يزالون أحياءً. في العام ١٧٥٨، وبعد زمن قليل من وفاة أمير بروسية؛ حضر سويدنبرغ إلى البلاط الملكي، وكان من عادته أن يقصده بانتظام. وما كادت الملكة تشاهده حتى قالت له: «بالمناسبة أيّها الشاهد الصادق، هل رأيت أخي؟ أجاب سويدنبرغ بالنفي، وردّت عليه الملكة: «إن لقيته بلّغه تحياتي». لم تكن تعني بقولها هذا إلا المزاح، ولم تكن تفكّر البتّة في إن تطلب منه أية معلومة تتعلّق بأخيها. بعد ثمانية أيام، وليس بعد أربعة وعشرين يوماً، ولا في مقابلة خاصة، حضر سويدنبرغ إلى البلاط من جديد، إنّما في وقت مبكّر جداً، حتى أن الملكة لم تكن قد غادرت جناحها المسمّى الغرفة البيضاء، حيث كانت تتبادل الأحاديث مع وصيفاتها ونساء أخريات من البلاط. ولم ينتظر سويدنبرغ خروج الملكة، بل دخل مباشرة إلي جناحها، وحدّثها همساً. فانتابت الدهشة الملكة، وأصيبت بتوعك، احتاجت من جرّائه إلى بعض الوقت حتى استعادت وضعها الطبيعي فقالت للأشخاص المحيطين بها، «لا يقوى إلا الله وأخي على معرفة ما قاله لي». واعترفت بأنّه حدّثها عن آخر رسالة لها إلى ذلك الأمير، وموضوعها لايعرفه أحد غيرهما؛ لا يمكنني أن أشرح كيف تمكّن سويدنبرغ من معرفة هذا السرّ، لكن ما يمكن أن أؤكده مقسماً بشرفي، هو أنه لا الكونت هـ. . . كما زعم كاتب الرسالة ولا أي شخص آخر احتجز رسائل الملكة أو قرأها فمجلس الشيوخ آنئذ كان يسمح لها بمراسلة أخيها بكل طمأنينة معتبراً هذه المراسلة لا تهمّ الدولة بشيء. وجليّ أن كاتب الرسالة السابقة لا يعرف أبداً طبع الكونت هـ. . . ذلك النبيل المحترم الذي قدّم أهم الخدمات لوطنه، فجمع إلى مواهب الفكر مزايا القلب، تلك الهبات الثمينة التي لم يضعفها فيه عمره المتقدّم. وقد جمع دائماً أثناء إدارته، السياسة الأكثر حكمة إلى النزاهة الأكثر تدقيقاً، وأظهر عداء للدسائس الخفيّة والمناورات المغرضة، وكان ينظر إليها كوسائل غير جديرة بالوصول إلى

الهدف. كما أن المؤلف لا يعرف الأمين المحلّف سويدنبرغ، إن الضعف الوحيد لدى هذا الإنسان الشريف فعلاً، هو الاعتقاد بظهور الأرواح؛ وقد عرفته منذ مدة طويلة، ويمكنني أن أوكد أنه واثق من التكلم والتداول مع الأرواح كثقتي الآن؛ في هذه اللحظة، بما أكتب. وهو كمواطن وصديق، الرجل الأكثر استقامة يستفظع الدَجَل، ويمارس حياة مثالية. والتفسير الذي أراد أن يعطيه الفارس بيلون لهذا الحديث هو بالتالي مجرّد من كل أساس؛ أمّا زيارة الكونتين هـ. . . وت. . . خلال الليل لسويدنبرغ فمختلفة كلياً. الخلاصة يمكن لمؤلف الرسالة أن يتأكد أنني لست متشيعاً لسويدنبرغ؛ وحب الحقيقة وحده يدعوني لأن أذكر بأمانة واقعةً رويت غالباً بتفاصيل خاطئة. وأنا أؤكد ما كتبته موقّعاً على ذلك باسمي.

قال السيد بيكر وهو يطوي الصحيفة ويعيدها إلى دولاب منضدته:

«إن الدلائل التي أعطاها سويدنبرغ عن رسالته للعائلات المالكة في السويد وبروسية وطّدت، دون شك، الإيمان الذي تعيش فيه عدة شخصيات في هذين البلاطين. غير أنني لا أحدثك عن جميع أحداث حياته الماديّة والمنظورة: فعاداته كانت تتعارض مع ما عرف تماماً. كان يحيا منفرداً دون أن يريد الغنى أو يسعى إلى الشهرة؛ حتى أنه كان يتميز بنوع من النفور يبديه للمتحزبين، ولا ينفتح إلا قليلا على الأشخاص ولا يطلع إلا أولئك الذين يتجلّى فيهم الإيمان والحكمة والحب على مواهبه الخارجية. كان يتعرف بنظرة واحدة على حالة الروح لدى أولئك الذين يتقرّبون منه. ويحوّل إلى مستبصرين أولئك الذين يريدون تلمّس كلامه الداخلي، ومنذ العام ١٧٤٥ لم يره مريدوه في أيّ ردّ فعل تجاه أيّ دافع بشري. شخص واحد هو كاهن سويدي اسمه ماتزيوس أتهمه بالجنون، وبمصادفة عجيبة، فإن ماتزيوس هذا، عدو سويدنبرغ وكتاباته أصيب بالجنون بعد زمن قليل وكان لبضع سنوات خلت ما يزال حيّا في استوكهولم معتمدا في عيشه على تقاعد خصّه به ملك السويد. كان تأبين سويدنبرغ قد أعد بعناية فائقة متطرّقاً إلى أحداث حياته، وقد ألقي من قبل السيد سندل المستشار في كلية المناجم، العام ١٧٨٦، في القاعة الكبرى للأكاديمية الملكية للعلوم في استوكهولم. أخيراً فإن تصريحاً مبلّغاً للّورد

عمدة لندن يبيّن بأدقّ التفاصيل مرض سويدنبرغ الأخير ووفاته، وكان يلازمه آنئذ رجل الكهنوت السويدي الأكثر تقديراً السيد فرليوس، وقد شهد الأشخاص الموجودون على أن سويدنبرغ كان أبعد ما يكون عن إنكار كتاباته وأنه شهد باستمرار على الحقيقة. قال للسيد فرليوس: «بعد مئة سنة سيسود مذهبي الكنيسة»؛ وقد تنبأ بدقة بيوم وفاته وساعتها. وفي اليوم ذاته، وهو الأحد ٢٩ آذار ١٧٧٢، سأل عن الساعة، فقيل له «إنها الخامسة» فقال: «ها قد تمّ، فليباركم الله، وبعد عشر دقائق، قضى نحبه بالطريقة الأكثر هدوءاً، بعد أن أطلق تنهيدة بسيطة[1]. كانت البساطة، والتقشف، والعزلة هي سمات حياته. وبعد أن أنهى أحد مؤلفاته أبحر لطباعته في لندن أو في هولندة لم يتحدّث عنه البتة، ثم نشر بعد ذلك سبعة وعشرين مؤلفاً مختلفاً كتبت جميعها حسب قوله، بإملاء من الملائكة. وسواء أكان هذا حقيقياً أم لا، فقلائل هم الرجال الذين وصلوا إلى درجة من القوة يدافعون بها بهذه الحميّة الشفهية. ثم أشار السيد بكر إلى لوح ثان نضد عليه نحو ستين مجلّداً وقال: «ها هي جميعها، والمؤلفات السبعة التي تلقي فيها روح الله أنوارها السنيّة هي: **مباهج الحب الزوجي - السماء والجحيم - الرؤيا المتكشفة - عرض الحاسّة الداخلية - الحب الالهي - المسيحية الحقيقية - الحكمة الملائكية لكلية القدرة، والعلم بكل شيء، وكلية الوجود لدى أولئك الذين يشاركون خلود الله وسعته** [2] ثم تناول السيد بكر أول مجلّد وُجد قريباً منه وفتحه ثم قال: هوذا تفسيره للرؤيا، وهو يبدأ بهذه العبارات: «**أنا هنا لم أضع شيئاً من ذاتي إنما أتكلم وفقاً لقول السيد الذي أملاه الملاك ذاته على يوحنا (لا تكتم كلام النبوءة)** «رؤيا ٢٢، ١٠»».

---

(١) - قصة مرض وموت سويدنبرغ مستخلصة من العرض الأخير والشخصان اللذان شهدا أمام عمدة لندن هما ريشار شرمت وزوجته، والوقائع صحيحة بمجملها لكن بلزاك يجمل في هبات الاله لسويدنبرغ إذ لم يذكر كتاب العرض أنه حدّد ساعة ويوم موته تماماً وإنما ورد قوله لمضيفته عن توقع يوم وفاته وهي تعتقد أنّه توفي في اليوم الذي حدّده. كذلك لم يصرح سويدنبرغ بأن ديانته ستسود الكنيسة وإنما قال «سيتسع انتشارها في الثمانينيات».

(٢) - طبعت مؤلفات سويدنبرغ باللاتينة في لندن العام ١٧٥٨ أما الطبعة الفرنسية فظهرت في «١٨١٩ - ١٨٢٤».

قال الشكّاك وهو ينظر إلى ولفرد :

سيدي العزيز ؛ لقد ارتعشت جميع أطرافي ، في ليالي الشتاء ، وأنا أقرأ المؤلفات الرهيبة التي يصرّح فيها هذا الرجل ببراءة تامة عن أكبر الأعاجيب ، قال : «رأيت السموات والملائكة فالانسان الروحي يميّز الانسان الروحي بشكل أفضل مما يري فيه الانسانُ الأرضي الانسانَ الأرضي ، وأنا في وصفي لأعاجيب السموات ، وماتحت السموات أنفذ أوامر الخالق في إجراء ذلك ، وكل واحد حر في أن يؤمن بما كتبت أولا يؤمن ، فأنا لا أستطيع أن أضع الآخرين في الحالة التي وضعني فيها الله ، فليس بيدي أن أجعلهم يتحدثون مع الملائكة ؛ ولا أن أتمّ أعجوبة الترتيب السريع لإدراكهم ، فهم أنفسهم الأدوات الوحيدة لاستثارتهم الملائكية . فها قد مضت ثمانية وعشرون عاماً وأنا في العالم الروحي مع الملائكة ، وعلى الأرض مع الناس ، ذلك لأنه حَسُنَ لدى الخالق أن يفتح عيني روحي كما فتح أعين بولس ودانيال وإليشع» . غير أن لبعض الأشخاص رؤى للعالم الروحي بالانفصال الكامل على مثال مايتّم لدى المنوّم مغناطيسياً بالفصل بين شكله الخارجي وانسانه الداخلي .

يقول سويدنبرغ في كتابه **الحكمة الملائكية** «يمكن للانسان في هذه الحال ان يرتفع حتى الأنوار السماوية ، لأن الحواس الجسمية قد خمّدت ، فتأثير السماء على الانسان الداخلي يتّم دون إعاقة» .

إن كثيراً من الأشخاص الذين لا يشكون أبداً بأن سويدنبرغ حظي بتجليّات ، يفكرون مع ذلك بأن كتاباته ليست كلّها موسومة بوحي إلهي ، بينما يطلب آخرون إذعاناً مطلقاً لسويدنيرغ مع قبولهم بإبهاماته لكنهم يعتقدون بأن عيوب اللغة الأرضية قد منعت المتنبىء من التعبير عن رؤاه الروحية ، التي تختفي إبهاماتها في أعين الذين يجددهم الإيمان . إذ بالنسبة للتعبير المدهش لأكبر مريديه [1] : «الجسد نشوء خارجي» . فعجيبه بالنسبة للشعراء والكتاب واسع ؛ وحقيقته بالنسبة

(١) - أيكون هذا المريد لويس كلود دي سان مارتن «آخر الكتاب الصوفيين» الذي ينهي خط يعقوب بُهم وسويدنبرغ؟ لكن سان مارتن يصرح عن نفسه بأنّه وريث يعقوب بُهم أكثر مما هو مريد لسويدنبرغ (انظر مقدمة الكتاب الروحاني) .

للمستبصرين جليّة. لكن أوصافه كانت بالنسبة لبعض المسيحيين مواضيع مخزية. فهزيء بعض النقاد من الجوهر السماوي لمعابده، ومن قصوره الذهبية، وداراته الرائعة حيث ترتع الملائكة، وتندّر آخرون بأيكات أشجاره السرية، وحدائقه التي تتحدّث فيها الأزهار، ويبيضّ الهواء، وتنتشر الجواهر الروحانية: اليشب، والعقيق، والزبرجد والياقوت الفاتح، والفيروز، والكالسدوان، والزمرد؛ **والأوريم والتوميم** المجهزان بحركة، ويعبران عن الحقائق السماوية، ويمكن سؤالهما، لأنهما يجيبان بتغيّرات ضوئية (مذكورة في كتاب **الدين الحقيقي**، ص: ٢١٩) وكثير من العقول الرصينة لا تقبل عوالمه حيث الألوان تُسمعُ أنغاماً موسيقية عذبة، والعبارات تتوهج، والكلمة تكتب بقرينات (الدين الحقيقي، ص: ٢٧٨). وحتى في الشمال، ضحك بعض الكتاب من أبوابه المصنوعة من اللآلئ، وجواهره التي تفرش وتؤثث بيوت أوروشليمه حيث أتفه الأدوات مصنوعة من المواد الأكثر ندرة على الكرة الأرضية.

يقول أنصاره: «إن كانت هذه الأشياء جميعها متناثرة في هذا العالم، فهل يمنع هذا وجودها بغزارة في العالم الآخر؟ هي على الأرض مادة أرضية، بينما تخضع وهي في السموات للمظاهر السماوية وتتعلّق بالحالة الملائكية» وقد كرّر سويدنبرغ حول هذا الموضوع اقوال يسوع المسيح العظمى: إن كنت قلت لكم الارضيات ولاتصدقون، فكيف تصدقون ان قلت لكم السماويات (إنجيل يوحنا٣, ١٢) تابع السيد بِكر بعد أن بدرت منه حركة مفْحمة: «قرأت يا سيدي سويدنبرغ كله، وأقول هذا بفخر لأنني احتفظت بعقلي، فعلى المرء بقراءته، إما أن يفقد حسّه أو أن يصبح مستبصراً. وبالرغم من أنني قاومت هذين الجنونين فإنني شعرت غالباً بنشوات مجهولة، ورعشات عميقة، ومباهج داخلية لا يعطيها إلا فيض الحقيقة وجلاء النور السماوي. كل ما في هذا العالم يبدو صغيراً عندما تجوب الروح الصفحات المضنية من هذه المؤلّفات. من المستحيل ألا نصاب بالدهشة عندما نفكر أن هذا الرجل قد نشر، على مدى ثلاثين سنة، عن حقائق العالم الروحي، خمسة وعشرين مؤلّفاً، بقطع الربع، مكتوبة باللاتينية، يحوي أصغرها خمسمئة

صفحة، وكلّها مطبوعة بأحرف صغيرة، ويقال إنه ترك عشرين مخطوطة أخرى في لندن، مودعة عند ابن أخيه؛ السيد سليفريشم، المرشد السابق للملك السويد. من المؤكد أن الرجل، المنهك تقريباً، من انشغاله بين العشرين والستين من العمر، بنشر نوع من الموسوعة، قد تلقى عونا فوق طبيعي لإعداد هذه المؤلفات المذهلة في عمر تبدأ فيه قوى الانسان بالخمود. و نقع في كتاباته على آلاف من الجمل المرقمة، وما من واحدة تبدو متناقضة. فالدقة التي تتجلى فيها كلها والطريقة وحضور البديهة تنبئ لتصدر عن الواقعة نفسها الا هي وجود الملائكة. فكتاب **الدين الحقيقي**، الذي يختصر عقيدته كلها، قد تمّ تصوره وكتابته وسويدنبرغ في الثالثة والثمانين من العمر وهو مؤلف مفعم بالنور. وكلية حضوره، وكليّة علمه لم ينكرها أحد من نقاده، حتى ولا أعداؤه. غير أنني عندما وردت هذا السيل من الأنوار السماوية، لم يفتح الله عيني الداخليتين، وحكمت على تلك الكتابات بعقل رجل غير مجدَّد، وهكذا فغالباً ما وجدت الملهم سويدنبرغ وكأنه لم يسمع جيداً الملائكة في بعض الأحيان إذ ضحكت من عدة رؤى، كان يحب عليّ وفقاً للمستبصرين، الايمان بها بإعجاب، فلم استوعب كتابة الملائكة القرينية، ولا أحزمتهم الذهبية بنسب قليلة بعض الشيء. وإذا كانت هذه العبارة «هو من الملائكة المنعزلين»، على سبيل المثال، قد استثارت عطفي بشكل خاص في البدء، فإنني لم أوفّق هذه العزلة مع زيجاتهم. ولم أفهم لماذا تحتفظ العذراء مريم في السماء بأثواب الحرير الأبيض. وتجرأت على أن أسأل لماذا يأتي الشيطانان العملاقان إناكيم وهفيليم ليقاتلا ملائكة الشروبيم في ميادين أرما جدون الرؤيوية وأنا أجهل كيف يمكن للشياطين أن يتجادلوا مع الملائكة.

وقد عارضني البارون سرافيتوس بقوله إن هذه التفاصيل تتعلّق بالملائكة الذين يبقون على الأرض بشكل سري. غالباً ما تكون رؤى النبي السويدي ملطخة بصور غريبة الشكل، فإحدى **كلماته المشهورة**، وقد اطلق هذا الاسم على مقتطفات له تبدأ بهذه العبارات: «رأيت أرواحاً متجمعة، وكانت تضع قبعات على

رؤوسها» وفي كلمة أخرى، يتلقى من السماء ورقة صغيرة يرى فيها، حسب قوله، الأحرف التي استخدمتها الشعوب البدائية وهي مؤلفة من خطوط منحنية مع حلقات صغيرة موضوعة إلى الأعلى. ومن أجل البرهان على اتصاله مع السموات أردت أن يودع هذه الورقة في الاكاديمية الملكية للعلوم في السويد. أخيراً ربّما كنت على خطأ، وربما كان لهذه اللامعقوليات الماديّة المنثورة في كتبه معان روحيّة؟ وإلا فكيف تمّ هذا التأثير المتزايد لديانته؟ إن كنيسته تعدّ اليوم أكثر من سبعمئة ألف مؤمن، سواء في الولايات المتحدة الامريكية حيث انضمت اليها شيع متعددة بشكل جماعي، أو في انكلترة حيث هناك سبعة آلاف سويدنبرجي في مدينة مانشستر وحدها. لقد اعتنق رجال يتميّزون إما بمعارفهم أو بمقامهم في المجتمع سواء في المانية، أو في بروسية، أو في الشمال مبادىء سويدنبرغ علناً، وهي أكثر مواساة من مبادىء بعض الشيع المسيحية الأخرى. واريد الآن أن أشرح لكم ببعض العبارات المختصرة النقاط الرئيسة في المذهب الذي أقامه سويدنبرغ لكنيسته، لكن هذا المختصر المعدّ من الذاكرة سيكون بالضرورة مغلوطاً[1] ولن أسمح لنفسي إذا أن تحدثكم إلا عن الخفايا المتعلقة بولادة سرافيتا».

توقف هنا السيد بكر برهة بدا فيها وكأنه يستجمع أفكاره ثم تابع:

بعد أن اعتبر سويدنبرغ بطريقة رياضية أن الإنسان يحيا أبدياً في مستويات

(١) - هو في الواقع مغلوط، وقد بيّن شارل غرولو بمنتهى الفطنة تصرفات بلزاك بالنسبة إلى السويدنبرجية، «فالكائن الكامل» اسطورة انبثقت من فكر بلزاك، وتصوّر كائن هجين يلخص الخطأ الأساسي للروائي. ابتكار أيضاً من بلزاك النظرية المنسوبة من قبل القس بكر إلى سويدنبرغ، نظرية تريد الوصول إلى حالة إلهية بإتحاد روح الحب وروح الحكمة، يتخذ المخلوق اثرها روح امرأة وجسم رجل. كذلك فإن فكرة التقمص ليست لدى سويدنبرغ وهناك التباس في درجات الحياة التي تعبرها الروح والحيوات المتتابعة، وخطأ الروائي هو في أخذ هذه الحالات كتجسدات جديدة، ولنشر إلى أن التقمص ليس في مبدأ سويدنبرغ وإنما في الغنوصية؛ كما أن سويدنبرغ لا يتحدّث عن عالم الهي، وإنما عن عالم سماوي. أخيراً فإن عناوين مؤلفات سويدنبرغ محرفة أو ملفقة.

متدنيّة أو سامية، فإنه سمّى أرواحاً ملائكية الكائنات الموجودة في هذا العالم، والمعدّة للسماء حيث ستغدو ملائكة، وفي رأيه أن الله لم يخلق ملائكة بصورة خاصة، فليس فيهم قط من لم يكن انساناً على الأرض. فالأرض على ذلك هي مشتل السماء؛ والملائكة ليسوا ملائكة بذاتهم (من كتاب الحكمة الملائكية، ص: ٥٧) وإنما يتحولون باتصال حميم مع الله الذي لا يرفض ذلك الاتصال البتة، فجوهر الله ليس سلبياً ابداً، ، إنما هو فعال دون انقطاع [١]. والأرواح الملائكية تمرّ في ثلاثة طبائع حبّ، إذ لا يمكن للإنسان أن يتجدّد إلا بالتتابع (من كتاب الدين الحقيقي) أولا: **حب الذات** وتعبيره الأسمى هو العبقرية الانسانية التي تفوز أعمالها بتعبّد. ثم **حب العالم** وهو ينتج الأنبياء والرجال العظماء الذين تتخذهم الأرض مرشدين وتحييهم باسم إلهيين، أخيراً **حب السماء** وهو يصنع الأرواح الملائكية [٢]. هذه الأرواح هي زهرات الإنسانية التي تتلخّص فيها وتعمل على أن تتلخّص فيها. وعليها أن تمتلك إما حب السماء أو حكمة السماء لكنها تماماً في الحبّ قبل أن تكون في الحكمة. وهكذا فإن أوّل تحوّل للانسان هو الحب.

---

(١) - تعرف «الروح الملائكية» ونظرية الملائكة تشكل نقطة الانطلاق الرئيسة في مذهب سويدنبرغ وماوراء الطبيعة ذات الاتجاه الصوفي الذي يعرضه بلزاك في سرافيتا وتجدر الاشارة إلى أن بلزاك يتبع مع بعض التعديلات مختصر دايان دي لاتوش، إنما مختصر هندمارش يعبّر بطريقة أكثر وضوحاً عن نظرية الكائنات فوق الطبيعة وفقاً لسويدنبرغ وتعارضها مع النظرية التقليدية في الكاثوليكية: «إن سكان السماء وكذلك سكان الجحيم هم جميعاً من العرق البشري دون أي استثناء والرأي السائد أن الملائكة قد خلقوا منذ البدء كما هم ووضعوا مباشرة في السماء دون أن يعيشوا كالبشر في العالم الطبيعي، وأن العديد منهم قد ثاروا بعد ذلك وأبعدوا عن السماء مع لوسيفر المحرّض على الثورة وزعيم الثائرين ليس له أي أساس في الكتب المقدسة. . . .

والمذهب الالهي للكشف الالهي حول هذا الموضوع هو أن الانسان خلق وشكّل على صورة الله ومثاله مع القدرة على أن يغدو ملاكا أو ساكناً السماء بعد ذهابه من العالم الطبيعي (كتاب السماء والجحيم).

(٢) - إن نظرية أنواع الحب الثلاثة التي يذكرها القسّ بكر تهيّء الفرصة لملاحظتين هامتين بشكل خاص: الأولى حول الفرق في العرض والتفسير لمذهب سويدنبرغ من قبل جامعي آثاره ودارسيه والثانية حول إعادة البناء الشخصي الذي أجراه بلزاك والتضمينات التي ينسبها اليه تذكر أولاً نصوص دايان دي لاتوش، وهندمارش حول هذا الموضوع. /////

وللوصول إلى هذه الدرجة الأولى، توجَّب على وجوداته السابقة أن تمر بالرجاء والإحساس اللذين يولّدانه للإيمان والصلاة. والأفكار المكتسبة بممارسة هذه الفضائل تنتقل إلى كل غلاف بشري جديد تختبىء تحته تحوّلات الكائن

//// آ - في مختصر دايان دي لاتوش - فصل «الاحسان» يوجد ثلاثة أنواع عامة من الحبّ: حب السماء، وحبّ العالم، وحب النّفس: فحبّ السماء هو حبّ الخالق والقريب، وحب العالم هو حب الغنى وجميع ملذات الحواس، وحب النفس هو حب المجد والشهرة والشرف والأعمال والسيطرة.

ب - في مختصر هند مارش - الفصل الثامن عشر: «الحب بشكل عام» - قيل أولاً «حياة الانسان تقوم على حبه، وأن هذا الحب السائد أو المسيطر هو الذي يصنع الانسان» وهذا يستدعي التواجد الطبيعي والمتدرّج لعدة أنواع من الحبّ في الانسان.

- يوجد من جهة حبّان شاملان تنتج عنهما كل الخيرات وكل الحقائق كأنها صادرة عن ينبوعها الحقيقي: وهما حب الخالق وحبّ القريب وعندما يتلقى الانسان هذين الحبيّن يغدوان المبدئين المنظمين لحياته ويشكّلان فيه السماء والكنيسة.

من جهة أخرى يوجد أيضاً حبّان شاملان يتعارضان مع الحبين السابقين وتنتج عنهما كل الأضرار وكل التشويهات وهما حبّ الذات وحبّ العالم، وهذان الحبّان عندما يغدوان مبادىء ناظمة لحياة الانسان يشكّلان جهنم فيه منذ هذا العالم، وجهنم فيه وخارجه في العالم الآخر. حب الذات يقوم على أن نريد الخير لذواتنا فقط دون الانتباه إلى خير الآخرين إلاّ إذا كان ذا فائدة لنا. وحب العالم المشتق من حب الذات ويرافقه دائماً يقوم على الرغبة في أن نغتصب بكل وسيلة ممكنة ما يعود للآخرين وكذلك على أن تنصرف كل مودّاتنا إلى التعلق بالغنى والثروات وأن نسمح للعالم وملذاته ومتعه أن يبعد قلوبنا عن حب القريب وبالتالي عن حبّ الخالق.

وبلزاك يحتفظ هنا بالتقسيم الثلاثي ويهمل حبّ القريب وينظم بطريقة أكثر منطقية التقدم من شكل حب إلى آخر، لكنه يعطي تعريفاً شخصياً لهذه الأنواع الثلاثة من الحب، ويكون حبّ النفس وحب العالم بعيدين عن التعلّق بالمادة أو بالشرّ ويتشكلان كمرحلتين نحو حب السماء، وهكذا ينسب بلزاك إلى سويدنبرغ نظرته الخاصة ويستبق بطريقة حدسية، ما تزال لا شكلية الانتروبولوجية النفسية والروحية التي سيعرضها على لسان سرافيتا.

في مذهب سرافيتا المعروض في الفصل الرابع نجد مذهب سويدنبرغ كما عبر عنه هند مارش في القول: «افعل من أجل الخالق ما تفعله من أجل ما تطمح إليه من أهداف، وما تفعله بانصرافك إلى فن، أو عندما تحبُّ مخلوقاً آخر غيره، أو عندما تتابع سراً من العلوم البشرية.

يبدو لنا إذاً أن بلزاك، إن كان قد اتبع مختصر دايان دي لاتوش في ربيع ١٨٣٤ في إعداد الفصل الثالث من هذه الرواية فإنه بالمقابل استند في آذار ١٨٣٥ إلى مختصر هند مارش في اعداد الفصل الرابع. كما إن هذا المختصر كان له تأثير على المجموعة الأولى من أفكار لويس لامبر المتممة في آذار ١٨٣٥.

الداخلي[1]. فما من شيء ينفصل، وكل شيء ضروري: فالرجاء لا يتوطد دون الإحسان، والايمان لا يتوطّد دون الصلاة، والوجوه الأربعة لهذا المربع متضامنة «فالروح الملائكية، دون فضيلة، كلؤلؤه مُحَطمة[2]. حسب قوله فكل من هذه **الوجودات** هو إذا دائرة تلتف فيها الثروات السماوية للحالة السابقة؛ والكمال الأكبر للأرواح السماوية يأتي من هذا التقدم الغامض حيث لا يضيع شيء من الميزات المكتسبة تباعاً للوصول إلى تجسدها المجيد[3]. لأنها في كل تحوّل تنسلخ شيئاً فشيئاً عن الجسد وأخطائه. وعندما يحيا الإنسان في الحبّ، يترك جميع أهوائه

---

(١) - إن مفهوم «الكائن الداخلي» و«الكائن الخارجي» قد تطوّر من لويس لامبر حتى سرافيتا، وهذا التطورّ ناتج عن مصادر مختلفة. فمن مختصر دايان دي لاتوش يمكن أن نأخذ الصيغ التالية:

«الحبّ أو الروح أو الحياة هي الانسان الداخلي المركب من قدرتين الإرادة والفهم.

«الجسم غلاف مضاف لأن الروحي يميل إلى أن يكتسي بالطبيعي كثوب، والجسم وهو إطاعة يشكّل الانسان الخارجي، الانسان الطبيعي أو الحسي».

«الانسان الخارجي أو الجسم هو الوسيلة التي تشعر بها الروح وتتحرك في هذا العالم، يوجد إذاً انسانان: الروحي والطبيعي، أو الداخلي والخارجي، والاثنان أو الروح متحدان بعلاقة الإرادة بالقلب والفهم بالرئة.

ومن مختصر هند مارش نأخذ التعاريف التالية: «روح الانسان داخلية وخارجية: فبالداخلية يتصل بالسماء وبالعالم الروحي عامة، وبالخارجية يتصل بالعالم الطبيعي، عدا ذلك فللإنسان أيضاً جسم مادي يحصره بالأشياء الخشنة من المادة والحواس، وبالمكان، والزمان».

«لدى الانسان الطيّب: الداخلي في نور وحرارة السماء وهي روحية، والخارجي في نور وحرارة العالم وهي طبيعية، إنما هي في وقت واحد بعلاقة تبعيّة واتصال مع الداخلي وهو ضمن هاتين العلاقتين يأخذ ميزة الانسان الروحي. أمّا لدى الانسان الشرير فإن الداخلي هو في حالة انفصال مع السماء، وغارق في ملذات ومتع الحواس حتّى أنه في داخله وخارجه طبيعي خالص لا رغبة فيه بالارتفاع بأفكاره وعواطفه فوق أشياء هذا العالم».

(٢) - «الخالق والاحسان والإيمان شيء واحد، كذلك الحياة والإرادة والفهم في الانسان إن فصلت تتلف وتسقط كلؤلؤة تتحطم وتتحل إلى غبار». يأخذ بلزاك هذه الفكرة ويحولّها إلى معنى آخر في **الولد الملعون** كما أن اللؤلؤة المحطمة تشكل عنواناً للقسم الثاني في هذه الرواية.

(٣) - يفسر هند مارش ظاهرة نمو الأفكار «الروحية» بالقول: (بالذاكرة الروحية يكتسب الانسان الأفكار الداخلية ويحتفظ بها، وهكذا فهو قادر على أن يفكر ويتكلم ذهنياً وعقلياً لأنّ كل ما فكر به الإنسان وقاله وفعله وكل ما سمعه ورآه بالرغم من أنه تلاشى من ذاكرته الخارجية، مسجّل في ذاكرته الداخلية في كتاب». كما أن سرافيتا تقول: للفكر وحده تقليد السابق.

السيئة: فالرجاء والإحساس والإيمان والصلاة ذرّت أو نقّت داخله وفق كلام أشعيا، الذي لم يعد له ان يظل ملوثاً بأي من العواطف الأرضية. من هنا هذه العبارة الجليلة للقديس لوقا: «اكنزو لكم كنزاً لا يبلى في السموات» وقول السيد المسيح: «اتركوا هذا العالم لأبناء البشر فإنه لهم، وكونوا أنقياء وتعالوا إلى أبي» التحول الثاني هو الحكمة. والحكمة هي فهم الأشياء السماوية التي تصل إليها الروح بالحب. روح الحب قد اكتسبت القوة، نتيجة جميع الأهواء الأرضية المقهورة. إنّها تحبّ الله بلاتبصّر. لكن لروح الحكمة ذكاء وهي تعرف لماذا تحبّ. إن أجنحة أحداها تنبسط وتحملها نحو الله وأجنحة الأخرى تنطوي بالرهبة التي يعطيها العلم: فتعرف الله، إحداها ترغب دون انقطاع برؤية الله فتنطلق نحوه، والأخرى تلمسه فترتعش.

والاتحاد الذي يتمّ بين روح الحب وروح الحكمة يضع المخلوق في الحالة الالهية حيث تكون روحه امرأة وجسمه رجلاً. وهو التعبير البشري الأخير الذي تتغلّب فيه الروح على الشكل، والشكل ما يزال يصارع ضد الروح الالهي؛ لأن الشكل، اي الجسد، يجهل ويثور ويريد أن يبقى فظاً. هذه التجربة السامية تولّد آلاماً خارقة، تراها السماء وحدها، وقد عرفها المسيح في بستان الزيتون. وبعد الموت تنفتح السماء الأولى لهذه الطبيعة البشرية المطهرة، لذا فالبشر يموتون في القنوط، بينما تموت الروح في الافتتان. وهكذا فالطبيعي وهو حالة تكون فيها الأرواح غير المتجدّدة، والروحي وهو حالة الأرواح الملائكية والإلهي حالة يكون فيها الملاك قبل أن يكسر غلافه، هي الحالات الثلاث للوجود التي يمكن للانسان أن يصل عبرها إلى السماء[1]. إن فكرة لسويدنبرغ ستشرح لك بشكل رائع الفرق

---

(١) - هذا النص يقدّم مثالاً مميّزاً للطريقة التي يبسّط فيها بلزاك مذهب سويدنبرغ وهو يختصره، ويجعله أكثر تماسكاً ويجرده من جمله الغامضة ويجذبه نحو مفاهيمه الخاصة وللمقارنة هوذا بعض مقاطع من مختصر دايان دي لاتوش: توجد ثلاث درجات من الحياة تتعلق بها ثلاث سموات، تتميّز بها روح الانسان وفق ثلاث درجات هي: الطبيعي ،والروحي والسماوي (من كتاب حكمة الملائكة).

«الانسان المتجدّد ذو إرادة جديدة وفهم جديد... وهو ليس ملاكا مثلهم، لكنه أصبح روحياً طبيعياً. فهو يتصل معهم ويتعلق بالسموات الثلاث بالدرجات الثلاث لداخله وخارجه... فالدرجة الأولى هي درجة الحب وتتعلّق بالسماء العليا، والدرجة الثانية هي درجة الحكمة وتتعلق بالسماء الوسطى والدرجة الثالثة هي درجة استخدام الحب والحكمة وهي تتعلق بالسماء الثالثة. في روح الانسان ثلاث درجات: ////

القائم بين **الطبيعي والروحي**؛ يقول: بالنسبة للناس يمرُّ **الطبيعي في الروحي**، فهم يعتبرون العالم تحت أشكاله المرئية ويلاحظونه ضمن حقيقة خاصة بحواسهم، اما بالنسبة **للروح الملائكية** فإن **الروحي** يمر في **الطبيعي** فهي تلاحظ العالم في روحه الحميمة وليس في شكله [1] وهكذا فإن علومنا البشرية ليست إلا تحليلاً للأشكال، والعالم وفقاً للعالم هو خارجي صرف كعلمه، أما **داخله** فلا ينفعه إلا في احتفاظه بقابليته على إدراك الحقيقة. والروح الإنجيلية تذهب إلى أبعد من ذلك، فمعرفتها هي الفكر حيث العلم البشري ليس إلا الكلام. وهو يمتح معرفة الأشياء من **الكلمة** بتعلّمه **التوافقات** التي تتطابق فيها العوالم مع السموات. وكلام الله كتب كلياً بالتوافقات الخالصة، وهو يغطي معنى داخلياً أو روحياً، لا يمكن فهمه دون علم التوافقات. وهنالك، كما يقول سويدنبرغ (في المذهب السماوي ص: ٢٦) خفايا لا حصر لها في المعنى الداخلي للتوافقات، لذلك فالناس الذين سخروا من الكتب التي تلقى الأنبياء منها الكلام، كانوا في حالة الجهل التي لا يعرف فيها الناس شيئاً من أحد العلوم على هذه الأرض، فيسخرون من حقائق ذلك العلم. هذا ومعرفتنا لتوافقات الكلام مع السموات؛ ومعرفة التوافقات التي تتمُّ بين الأشياء المرئية والقابلة للقياس في العالم الأرضي، والأشياء غير المرئية وغير القابلة للقياس في

//// السماوي، والروحي، والطبيعي، أو الحب والحكمة واستعمالهما، أو الإرادة والفهم والفعل؛ وفي الانسان الطبيعي أو الشهواني أو الخارجي يوجد أيضاً ثلاث درجات: العلوم والعقل والذاكرة الخارجية، ودرجات العقل الانساني ثلاث أيضاً هي: «النتيجة والسبب والتأثير»

– من هذه الثرثرة المبهمة لدايان لاتوش يهمل بلزاك المستويات الثلاثية للسماء و ويحتفظ بتدرج الأرواح وفق ثلاث حالات تتعلق بالمادة والروح والله متُصورّة لمستويات مميّزة ويشكل المرور من أحدها إلى الآخر خلاص الانسان.

(١) – يمكن أن نكتشف بعض صلات فكرية، كما أشار أوغوست ڤيات بين مذهب سويدنبرغ المعروض في سرافيتا وكتاب أورشليم الجديدة المنشور من قبل تولنار – (١٨٣٢ – ١٨٣٥). يلاحظ في مقدمة تولنار فكرة مراسلة بين المرئي وغير المرئي مع الإشارة إلى بولس الرسول (في رسالته إلى كنيسة رومة)، وتعريف للكائن الداخلي والخارجي مماثل لتعريف هند مارش؛ والتصريح بأن الإرادة محدّدة بالمرأة، والذكاء بالرجل وحب الذات بالحيّة المغرية؛ كما ورد أيضاً: «كل شيء يعود لله ليس بالاستمرار مما يجعل من هذا المذهب أحدية، ولكن بالمُمَاسة كما المعلول مع العلة، دون أن يكون التباس بينهما».

العالم الروحي، هي «الحصول على السموات في إدراكنا»؛ فجميع أشياء المخلوقات المختلفة باعتبارها منبثقة من الله تتضمن بالضرورة معنى خفياً، كما ورد في هذه العبارة لأشعيا: الأرض كساء (أشعيا ٥, ٦). هذه الرابطة الخفية بين أدق قسيمات المادّة والسموات تشكل ما يدعوه سويدنبرغ **خفية سماوية**، وهكذا فإن مؤلّفه «**الخفايا السماوية**» حيث شرحت التوافقات أو الدالآت بين الطبيعي والروحي يجب أن تعطي وفقاً لتعبير جاكوب بيُهم «الإرشاد لكل شيءً، فهي لاتقل عن ستة عشر مجلّداً وثلاثة عشر ألف عرض؛ «هذه المعرفة الرائعة للتوافقات، التي أتاحت رأفة الله لسويدنبرغ أن ينالها، كما قال أحد مريديه [1]، هي سر الاهتمام الذي تثيره مؤلفاته. ووفقاً لهذا المفسر، فإن كل شيء هنا مشتق من السماء، وكل شيء يدعو إلى السماء. وكتابات النبي سامية وواضحة: إنه يتحدث في السموات، فيسمع صوته على الأرض؛ ومن إحدى عباراته يمكن أن ننشيء مؤلفاً. ويذكر المريد هذه من بين العديد غيرها؛ بقول سويدنبرغ في «**الخفايا السماوية**»: (مملكة السماء الدوافع، يتمّ **الفعل** في السماء، ومنها إلى العالم، وبالتدريج إلى الدقائق الصغرى على الأرض، والآثار الأرضية بارتباطها بأسبابها السماوية تجعل كلّ شيء فيها **متوافقاً ودالاً**، والانسان هو وسيلة الاتحاد بين الطبيعي والروحي[2]). فالأرواح الملائكية تعرف إذا بشكل رئيس التوافقات التي تربط بالسماء كل شيء على الأرض، وتعرف المعنى الحميم لكلمات النبوءة المعلنة عن التغيّرات الكاملة. وهكذا فكل شيء على الارض بالنسبة لهذه الأرواح له دالته، فأقل زهرة هي فكرة، هي حياة تتعلّق ببعض ملامح الكون الكلّي حيث فيها حَدَسٌ ثابتٌ ما. **فالزنا**، والمفاسد بالنسبة لهم والوارد حديثها في الكتابات ولدى بعض الأنبياء، وهي غالباً مشوّهة من قبل بعض الكتاب المزعومين، تعني حالة الأرواح التي تستمر في هذا العالم بالتعفن بالأدران الأرضية، وتواصل طلاقها مع

(١) – هذا المريد هو دايان دي لاتوش الذي يستمد المؤلف ملاحظاته من مختصره.

(٢) – هنا أيضاً يعدّل بلزاك ما اقتبسه دايان لاتوش عن سويدنبرغ.

السماء. والسحب تعني الحجب التي تخفي الله. فالمشاعل وخبزات التقدمة [1]، والخيول والفرسان، والبغايا، والجواهر، كل شيء في الكتب المقدسة، ذو معنى رهيف بالنسبة لهم ويكشف مستقبل الأحداث الأرضية في علاقاتها مع السماء. وتتمكن جميعها من أن تتغلغل إلى حقيقة رؤى القديس يوحنا التي اثبتتها العلوم البشرية وبرهنت عليها فيما بعد مادياً من أمثال هذه «المجسّمة بعدة علوم بشرية». كمل يقول سويدنبرغ. «رأيت سماءً جديدة، وأرضا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى زالتا (رؤيا ٢١ , ١) وهم يعرفون الولائم التي تؤكل فيها لحوم الملوك، ولحوم القادة، ولحوم الخيول وفرسانها، ولحوم الأحرار والعبيد» حيث يدعو إليها ملاك واقف في الشمس (رؤيا ١٩ , ١٨) وهم يرون «المرأة المجنحة»، المكسوة بالشمس، والرجل المسلح دوماً (الرؤيا). يقول سويدنبرغ: «إن حصان الرؤيا هو الصورة المرئية للذكاء البشري، يركبه الموت، لأنه يحمل معه مبدأه في التخريب». أخيراً عرفوا الشعوب المختفية تحت أشكال تبدو خارقة للجاهلين. عندما يكون رجل مهيأً لتلقي نفحة التوفيقات النبوية، فإنها توقظ فيه روح الكلام القدسي، فيدرك عندئذ أن الخلائق ليست إلا تحوّلات، وتنعش ذكاءه، وتشعره بظمأ لاهب للحقائق لا يمكن أن يرتوي إلا في السماء، فيتصوّر وفقاً لدرجة الكمال في داخله، قدرة الأرواح الملائكية، ويمشي تقوده الرغبة، وهي الحالة الأقل نقصاً لدى الانسان غير المتجدّد، نحو الرجاء الذي يفتحه له عالم الأرواح؛ ثم يصل إلى الصلاة التي تمنحه مفتاح السموات. فأي مخلوق لا يرغب بأن يكون جديراً بالدخول إلى اوساط الأذكياء الذين يعيشون خفية بالمحبة أو الحكمة؟ وتبقى هذه الأرواح، هنا على الارض، نقية خلال حياتها، فهي لا ترى ولا تفكر ولا تتكلّم مثل باقي الناس. فهنالك إدراكان: أحدهما داخلي، والآخر خارجي؛ فالانسان خارجي تماماً، والروح الملائكية داخلية كلياً. والروح تذهب إلى عمق الأعداد

---

(١) - خبزات التقدمة وفقاً للاويين هي اثنا عشر رغيفاً دون خمير على عدد قبائل بني اسرائل توضع في بيت القربان على مائدة أمام الاله، لذلك سميت خبزات التقدمة، وهي تقدّم كل نهار سبت من قبل المتعبدين اليهود، وتؤكل من قبل عائلة الكهنة.

فتمتلكها كلها وتدرك مدلولاتها، فتتصرف بالحركة وتشترك مع كل شيء بكليّة الحضور. الملاك وفقاً للنبي السويدي موجود في آخر عندما يرغب لأنه وهب قدرة الانفصال عن جسمه، وهو يرى السموات كما رآها الأنبياء، وكما كان يراها سويدنبرغ نفسه. يقول (في كتاب: الدين الحقيقي ص: ١٣٦): «في هذه الحالة، تنتقل روح الانسان من مكان إلى آخر، ويبقى الجسم حيث هو، وهي حالة بقيت فيها ستاً وعشرين سنة» يجب أن ندرك هنا جميع الكلمات التوراتية حيث قيل «الروح تحملني» فالحكمة الملائكية هي بالنسبة للحكمة الإنسانية كما القوى المتعددة في الطبيعة هي بالنسبة لفعلها وهو واحد. كل شيء يحيا، ويتحرك، ويوجد في الروح، لأنها في الله؛ وهذا ما عبّرت عنه هذه الكلمات لبولس الرسول: «نحن نحيا، ونتحرك، ونحن في الله»[1]، والأرض لا تضع أمامها أيّة عقبة، وكلام الله لا يظهر لها أي غموض وألوهيتها المقبلة تتيح لها أن ترى فكر الله متسربلاً بالكلمة، مثلما تتصل الروح وهي تحيا من داخلها، مع الحسّ الحميم المخفي تحت جميع الأشياء في هذا العالم. العلم هو لغة العالم الزمني، والمحبة هي لغة العالم الروحي لذلك فالإنسان يصف أكثر مما يشرح، بينما الروح الملائكية ترى وتدرك. العلم يكدّر الإنسان، والمحبة تعظّم الملاك. العلم ما زال يبحث، والمحبة اهتدت. الإنسان يحكم على الطبيعة في علاقاته معها، والروح الملائكية تحكم عليها في علاقاتها مع السماء. أخيراً فكل شيء يكلم الأرواح. فالأرواح كامنة في سرّ تناسق الخلائق فيما بينها، وهي تتفاهم مع روح الأصوات، وروح الألوان، وروح النباتات؛ يمكنها أن تسأل الفلز والفلز يجيب على أفكارها، ما علوم الأرض وكنوزها بالنسبة لها عندما يمكنها أن تحيط بها في كل لحظة بنظرها، فما العوالم التي تشغل الناس كثيراً، بالنسبة للأرواح، إلا الدرجة الأخيرة التي ستنطلق منها إلى الله؟. فمحبة السماء أو حكمة السماء تعلنان لها بدائرة من نور تحيط بها، ويراها

---

(١) - عرّف سويدنبرغ الحياة الروحية، وفقاً لما ذكره هند مارش: «السماء في داخل الانسان، أي في إرادته وإدراكه بقدر ما هما متأثران بالمحبة الحقيقية والإيمان الحقيقي، ومنها تمتد إلى الخارج أي إلى الأفعال والكلمات بقدر ما هي تحت تأثير الحبّ ذاته والإيمان ذاته.

المُصطَفُون. أما براءتها التي تمثل براءة الأطفال شكلها الخارجي، فتحيط بمعرفة الأشياء التي لا يدركها الأطفال: إنها بريئة وعالمة. «وبراءة السموات، كما يقول سويدنبرغ، لها تأثير بالغ على الروح بحيث يحتفظ من تنسكب عليهم بافتتان يدوم كل حياتهم، كما أحسُّ به أنا بالذات». وقال أيضاً: قد يكفي ادراكها بشكل ضئيل لنتغيّر كلياً، فنهمّ بالذهاب إلى السموات والدخول هكذا إلى جوّ الرجاء». أما مذهبه في الزواج فيمكن أن يختصر بهذه الكلمات القليلة: «إن الخالق قد أخذ جمال حياة الإنسان وأناقتها ووضعها في المرأة؛ وعندما لا يقترن الرجل بهذا الجمال وهذه الأناقة في حياته يكون قاسياً، حزيناً، نفوراً، أما عند اجتماعه بها فهو مغتبط وتام» اما الملائكة فهم دائما في النقطة الأكثر كمالاً من الجمال. ويحتفل بزيجاتهم باحتفالات رائعة، وفي قرانهم هذا الذي لا ينتج أولاداً أبداً يعطي الرجل الفهم وتقدّم المرأة الإرادة [1] فيغدوان كائناً واحداً، جسداً واحداً على الأرض؛ ثم يذهبان إلى السماء بعد أن يكتسيا بالشكل السماوي. على الأرض، وفي الحالة الطبيعية فإن الميل المتبادل للجنسين نحو الشهوانية هو تأثير يؤدي الى التعب والنفور؛ لكن الزوجين يغدوان في الشكل السماوي روحاً واحدة تجد في ذاتها سبباً لا ينقطع للشهوانية. ورأى سويدنبرغ هذا الزواج للأرواح فقاً لقول السيد المسيح في انجيل لوقا «من هم أهل للحياة الأبدية لا يتزاوجون» (لوقا: ٢٠, ٣٥) وهو لا يوحي إلا بمباهج روحية. وقد دعا أحد الملائكة سويدنبرغ إلى حفلة زواج، وحمله على اجنحته (الأجنحة رمز وليست حقيقة أرضية) فألبسه ثوب الاحتفال، وعندما رأى سويدنبرغ نفسه مرتديا النور سأل عن السبب فأجاب الملاك: «في هذا

---

(١) - يذكر هند مارش القصة الرمزية لسقوط آدم، فيظهر الحيّة التي أغوت الإرادة أو الخاصّة، الممثلة بالمرأة ثم القدرة العقلية ذاتها الممثلة بالرجل، ويشرح قدرات الإنسان فيكتب، «في الإنسان قدرتان تشكلان حياته: احداهما تسمى الإرادة والأخرى الادراك وهما في الحقيقة متميزتان إحداهما عن الأخرى، غير أنهما مشكّلتان بحيث تغدوان كلاً واحداً. وعندما تتحدان تسميان الروح. ويسجل بلزاك في ملاحظاته: من هنا ينتج أن ليس للإنسان إلا قدرتان تشكلان حياته: الإرادة والإدراك، والحال أنّهما الروح».
أما دايان دي لاتوش فيكتب في فصل: «الزواج في السماء» (في داخله: الرجل ادراك أو حكمة؛ أما المرأة فهي في داخلها إرادة أو محبة).

الظرف، تضيء أثوابنا وتلتمع وتغدو زفافية». ورأى عند ذلك ملاكين مقبلين: أحدهما من الجنوب، والآخر من الشرق. كان ملاك الجنوب في عربة يجرها حصانان أبيضان، عنانهما بلون الفجر وبريقه، ولكن عندما اقتربا منه في السماء، لم ير العربة ولا الحصانين. كان ملاك الشرق مرتدياً ثياب الأرجوان، وملاك الجنوب يرتدي السفير البرتقالي وقد ركضا كنسمتين وامتزجا. كان احدهما من ملائكة الحبّ، والآخر من ملائكة الحكمة. قال الدليل لسويدنبرغ إن هذين الملاكين كانا مرتبطين على الأرض بصداقة داخلية، ومتحدين دائماً، رغم انفصالهما في المكان. إن الرضا وهو روح الزيجات الناجحة على الأرض، هو الحالة المألوفة للملائكة في السماء، والحب نور عالمهم، والافتتان الابدي للملائكة يأتي من القدرة التي منحها الله لهم على أن يخلقوا في ذواتهم الغبطة التي يشعرون بها. هذه المبادلة للانهاية توسّس حياتهم. وهم في السماء يغدون لا نهائيين بمساهمتهم في روح الله المتولّد من ذاته. إن سعة السموات التي تحيا فيها الملائكة تبلغ حداً لو تمتع معه الإنسان برؤية سرعتها المتواصلة بمثل سرعة الضوء الوارد من الشمس إلى الأرض ونظر طوال الأبدية، فإن عينيه لن تجدا أفقاً تستريحان عليه، والنور وحده يفسّر هناءات السماء [1] إنّه حسب قوله بخار فضيلة الله؛ وهو انبثاق نقي من جلائه الذي يبدو أمامه نور أرضنا الأكثر جلاءً ظلمة قاتمة. يمكنه كل شيء يجدّد كل شيء، ولا يضعف أو يزول أبداً. إنّه يحيط بالملاك ويجعله يلامس الله بغبطات لامتناهية يشعر بها تتضاعف بذاتها إلى مالانهاية. هذا النور يقتل كل شخص ليس مهيأً لاستقباله. ما من أحد على هذه الأرض، وحتى في السماء، يمكنه أن يرى الله ويحيا، ولهذا فقد قيل: «ان الجبل الذي كلّم موسى الله عليه كان محروسا خشية أن يأتي أحد ويلمسه فيموت (سفر الخروج ١٩)» كذلك عندما حمل موسى الألواح الثانية كان وجهه يلتمع الى حد اضطر معه لحجبه ببرقع حتى لا يموت بسببه احد وهو يكلّم الشعب (خروج: إصحاح ٣٤ فقرات ٢٩ – ٣٥) كذلك فإن تجلي

---

(١) – هذا الشرح عن فضائل وقدرات وغبطة الملائكة ناتج عن ابتكار بلزاك أكثر مما هو وارد في المختصر.

السيد المسيح قد صاحبه نور رمى به مبعوث من السماء، ووجد الملائكة غبطات لاتوصف افعموا بها باستمرار [1]، وقد ورد في انجيل القديس متى: «أشرق وجهه كالشمس، وغدت ثيابه كالنور، وظللّت سحابة مضيئة تلاميذه» (متى ١٧، ١-٥) أخيراً عندما لا يحتوي كوكب إلا على كائنات تمتنع عن الخالق، فيغدو كلام الله مجهولاً فيه، تتجمع الأرواح الملائكية من الجهات الأربع مبتعدة عنه؛ يرسل الله ملاكاً مبيداً ليغيّر كتلة هذا العالم العاصي، الذي هو بالنسبة إليه وسط اتساع الكون مثل بذرة لم تثمر في الطبيعة. يقترب الملاك المبيد من كرة الكوكب، وهو محمول على مذنب فيقلبه حول محوره، فتغدو القارات في أعماق البحر، وتصبح أعالي الجبال جزراً، والمناطق التي كانت مغطاة بمياه البحار تتولّد مجدّداً مزيّنة بكل نضارتها مستجيبة لقوانين التكوين، فيستعيد كلام الله قوتّه على أرض جديدة، تحتفظ في جميع الأمكنة بتأثيرات مياه الأرض ونار السماء. أما النور الذي حمله الملاك من الأعالي فيكشف وجه الشمس، وعند ئذ، وكما قال أشعيا (٢: ١٩ - ٢٠) يدخل الناس في شقوق الصخور، ويتكوّرون في التراب ويصرخون بالجبال (رؤيا ٦: ١٦) «اسقطي علينا»، وبالبحر «خذنا!» وبالرياح «اخفينا من غضب الحمل!» والحمل هو الوجه الكبير للملائكة غير المقدّرة والمضطهدة على الكوكب. لذلك قال السيد المسيح: طوبى للمتألمين! طوبى للبسطاء! طوبى للمحبين!. إن سويدنبرغ كله يتمثل هنا: الألم والإيمان والمحبّة أليس على المرء لكي يحب حقاً ان يتألم وان يؤمن؟ المحبّة تولّد القوة، والقوة تمنح الحكمة، ومن هنا الذكاء. لأن القوة والحكمة تتضمنان الإرادة ألا يعني الذكاء: المعرفة والإرادة، والقدرة: الرموز الثلاثة للروح الملائكية [2]؟ قال السيد بكر: «إذا كان للكون معنى، فذاك هو الأجدر بالله!»؛ هذا ما قاله لي السيد سان - مارتن الذي رأيته أثناء رحلته إلى السويد». ثم تابع بعد فترة: لكن يا سيدي، ماذا تعني هذه الشذرات المأخوذة من

---

(١) - سجل بلزاك في ألبومه: «فهمت كيف كانت وجوه الأنبياء تشعُّ عند عودتهم من رؤية الخالق».

(٢) - احتفظ بلزاك من الخطبة على الجبل بثلاثة تطويبات: قبول الألم، والايمان التلقائي، وممارسة الإحسان. وينسب أسسها إلى تعاليم سويدنبرغ، لكنه يشرح ويرتب العلاقات وفقاً لمنطقه الخاص، مستدركاً هكذا ثلاثية جلد الحب: المعرفة والإرادة والقدرة وسنجد شرحاً مماثلاً على لسان سرافيتا بمناسبة الصلاة.

مؤلفات واسعة لا يمكن أن نعطي عنها فكرة مالم نقارنها بنهر من نور ذي مزنات من لهب؟ وحين يغوص المرء فيه يجرفه تيار رهيب. إن شعر دانتي أليغيري لا يعتبر إلا نقطة من الايات التي لاحصر لها التي جعل بموجبها سويدنبرغ العوالم السماوية جلية لمن يريد التحليق فيها، كما بنى بيتهوفن قصور أنغامه من آلاف العلامات الموسيقية، كما أشاد المهندسون المعماريون كاتدرائياتهم من آلاف الأحجار. فأنت تغوص هنا، في هوآت لا قعر لها، حيث لا يقوى عقلك على دعمك بشكل دائم. فعلينا بالتأكيد أن نتمتع بذكاء جبار لنعود سالمين إلى أفكارنا الاجتماعية.

تابع القس: «استهوى سويدنبرغ بصورة خاصة البارون دي سرافيتز [1]، الذي أخذ اسمه منذ زمن عريق في القدم، وفقاً لتقليد سويدي نهاية «وس»، فكان البارون من أشد أنصار النبي السويدي الذي فتح له عينيه على الانسان الداخلي، وهيّأه لحياة تتناسب مع أوامر السماء. فبحث بين النساء عن روح ملائكية، فوجدها له سويدنبرغ من خلال الرؤيا. كانت خطيبته ابنه حذّاء من لندن، قال عنها سويدنبرغ إن حياة السماء تتجلى فيها وزادتها التجارب السابقة مراساً. وبعد تحوّل النبي، جاء البارون إلى جرفيس لإجراء عرسه السماوي في ممارسة الصلاة، أما بالنسبة لي ياسيدي، وأنا غير المستبصر فإنني لم أر من هذين الزوجين إلا أعمالهما الأرضية، وقد كانت حياتهما من حياة القديسين والقديسات الذين تعتبر فضائلهم مجداً للكنيسة الرومية. وقد خفّف كل منهما من شقاء السكان، ومنحا الجميع شيئاً من المال يكفي لسد حاجاتهم لقاء قليل من الأعمال ومن عاش إلى جانبهما من الناس لم يفاجئهما يوماً في تصرف غاضب أو نفاد صبر؛ فقد كانا دائماً محسنين ولطيفين، مليئين بالدماثة، والنعومة والطيبة الحقيقية. وقد كان زواجهما انسجام روحين مؤتلفتين دون انقطاع؛ كانا طائرا بط يحلقان بحركة طيران واحدة، وقد يكون الصوت في الصدى، والفكرة في الكلام من الصور الأقل اكتمالاً عن ذلك الأئتلاف. كان كل واحد هنا يحبهما محبة لا يمكن التعبير عنها إلا بمقارنتها بحب

(١) – وجود البارون سرافيتز ابن العم المحبوب لسويدنبرغ وظهوره في جرِفْيس هي من ابتكارات بلزاك، طبعاً.

النبات للشمس. كانت المرأة بسيطة في تصرفاتها، جميلة في قوامها، مليحة الوجه، مماثلة في نبلها لأكثر الأشخاص مهابة. في العام ١٧٨٣، حملت المرأة وهي في السادسة والعشرين من عمرها؛ وكان حملها مبعث سرور عارم، وقام الزوجان بتوديع المجتمع، إذ أخبر اني أنهما سيتغيّران دون شك عندما سيتخلّى طفلهما عن ثوب الجسد وسيحتاج لكل عنايتهما إلى أن يبلغ القوة التي تؤهّله للقيام بشؤون نفسه، وولد الطفل وكان هذه السرافيتا التي تشغلنا في هذا الوقت، والتي ما أن حمل بها حتى عاش أهلها في عزلة أكثر من قبل، متوجّهين إلى السماء بالصلاة، وكان أملهما أن يريا سويدنبرغ، وقد حقق الإيمان أملهما، ففي يوم ولادة سرافيتا، ظهر سويدنبرغ في جرفيس، وملأ بالنور الغرفة التي ولدت فيها الطفلة وكانت كلماته، على ما قيل: «المهمة انجزت، والسموات تغتبط!» وقد سمع خدم المنزل أصوات أنغام غريبة كانت، حسب قولهم تبدو وكأنها آتية من الجهات الرئيسة الأربع تحملها نسمات الرياح. وقد حملت روح سويدنبرغ الأب خارج المنزل وقادته إلى الفيورد حيث تركته. واقترب عدة أشخاص عندئذ من سرافيتوس وسمعوه ينطق بهذه الكلمات العذبة من الكتاب المقدس: «كم هي جميلة فوق الجبال أقدام الملاك الذي أرسله لنا الربّ!». خرجت من بيت الخورنية، للذهاب إلى القصر، لتعميد الطفل، وتسميته، وإتمام الواجبات التي تفرضها علي القوانين، عندما صادفت البارون. فقال لي:

«إن مهمتك غير ضرورية، سيكون ولدنا بلا اسم على هذه الأرض، فلن تعمد بماء الكنيسة الأرضية من سبق تعميده بنار السماء. سيبقى هذا الطفل زهرة، لن تراه يشيخ، بل ستراه يمّر، فلك أنت الوجود، وله الحياة، ولك الحواس الخارجية، لكنها ليست له، فهو كيان داخلي». قيلت هذه الكلمات بصوت فوق طبيعي تأثرت به أكثر من تأثري بالبريق الذي يكسو وجهه المتصبب نوراً. كان مظهره يجسد الصور العجيبة التي نتصوّرها للموحى إليهم ونحن نقرأ نبوءات الكتاب المقدّس. لكن مثل هذه التأثيرات ليست نادرة وسط جبالنا حيث تملّحات الثلوج الباقية تحدث في عضويتنا ظواهر مدهشة. سألته عن سبب انفعاله. فأجاب: «لقد جاء سويدنبرغ، وتركته الآن بعد أن تنشّقتُ عطر السماء».

- فسألته: «وبأي شكل بدالك؟».

- بمظهره عند الوفاة مرتديا ذات الثوب الذي رأيته فيه لآخر مرة في لندن عند ريشار شرسميث[1]؛ في حي **كولد - باث - فيلد** في شهر تموز ١٧٧١؛ بزته من الجوخ المجعد ذات الانعكاسات المتبدلة، والأزرار الفولاذية، والصدار المغلق، وربطة العنق البيضاء، والشعر المستعار الجليل ذاته ذو الجعدات البيضاء على الجانبين والمظهر المرتفع من الأمام يكشف عن جبين عريض وضَّاء يتناسق مع وجهه المربع الكبير بكل ما فيه من مظهر قوة وهدوء، تعرّفت على أنفه ذي المنخرين العريضين المتوقدين ورأيت مجدداً ذلك الفم المبتسم دائماً، الفم الملائكي وقد خرجت منه هذه الكلمات التي ملأتني سعادة: «إلى لقاء قريب» وأحسست بتألقات المحبة السماوية. منعني اليقين المشْع من وجه البارون من أيّ نقاش، فأصغيت إليه بصمت، كان في صوته حرارة مُعدية شعّت في أحشائي، وهزّ حماسه فؤادي كما يهزّ غضب الآخرين الأعصاب. تبعته بصمت إلى أن وصلنا إلى منزله، حيث رأيت الطفل بدون اسم، وهو نائم في حضن أمه وهي تحضنه وتحيطه بشكل غامض.

أحسّت سرافيتا بمجيئي، فرفعت رأسها نحوي: لم تكن عيناها عيني طفل عادي، ولأعبرّ عن الإنطباع الذي تولّد في آنئذ علي ان اقول إن تلك العينين تريان بإدراك وتفكران. ترافقت طفولة تلك المخلوقة المختارة بظروف غريبة في مناخنا، فخلال تسع سنوات كانت شتاءاتنا أكثر دفئاً، وأصيافنا أكثر طولاً من عادتها. وقد سبّبت تلك الظاهرة عدة مناقشات بين العلماء، لكن إن بدت تفسيراتهم كافية للأكاديميين، فإنها دفعت بالبارون إلى الابتسام عندما أبلغته بها.

لم تظهر سرافيتا في عريها كما اعتاد الأطفال الظهور أحياناً، ولم يلمسها يوماً رجل أو امراة. عاشت طاهرة على ثدي أمها، ولم تصرخ يوماً؛ والعجوز

---

(١) - ريشار شرسميث: مضيف سويدنبرغ في لندن وهو الذي قدّم مع زوجته شهادة وفاته إلى عمدة لندن.

داڤيد يوكّد لك هذه الوقائع إن سألته عن سيدته التي يكنُّ لها عبادة مماثلة لتلك التي كان يكنها سميّه الملك داود للعرش المقدس. بدأت الفتاة منذ أن بلغت التاسعة من عمرها ممارسة الصلاة، كانت الصلاة حياتها، وقد رأيتها في كنيستنا، يوم عيد الميلاد، وهو اليوم الوحيد الذي تأتي فيه إليها، وهي تبتعد عن باقي المسيحيين بمسافة واضحة، وإذا لم تحافظ على هذه المسافة بينها وبين باقي الناس فإنّها تتألم؛ لذلك فإنّها تقضي معظم وقتها في القصر. غير أن أحداث حياتها غير معروفة، فهي لا تظهر، وقدراتها وإحساساتها داخلية تماماً، تقضي معظم وقتها في تأمّل صوفي عادي كأولئك المسيحيين الأوائل المعتزلين الذين بقوا على تقاليد كلام السيد المسيح، كما يذكر عنهم الكتاب البابويون. إدراكها، وروحها، وجسمها، كل شيء فيها طاهر كثلج جبالنا. كانت في العاشرة كما تراها الآن. عندما بلغت التاسعة من عمرها، توفي والدها ووالدتها معاً دون ألم، ودون مرض ظاهر، بعد أن حدّدا الساعة التي سينتهيان فيها. كانت واقفة عند أقدامهما، تنظر اليهما بعين هادئة، دون أن تبدي حزناً، أو ألماً، أو فرحاً، أو فضولاً، وكان والداها يبسمان لها. وعندما جئنا لنأخذ الجثمانين قالت: «انقلوهما!». قلت لها: «يا سرافيتا – لأننا كنا نناديها هكذا – ألست متأثرة لموت والدك وموت والدتك؟ لقد كانا، يحبّانك كثيراً.

قالت وهي تشير دون أي تأثر إلى الجثمانين اللذين بدئ بحملهما: «ميّتان! كلا، إنّهما فيَّ إلى الأبد، أما هذان فلا شيء!». كنت أراها للمرة الثالثة منذ ولادتها. كان من الصعب ملاحظتها في الكنيسة، فهي تقف إلى جانب عمود يجعله المنبر في عتمة لا تسمح بتبيّن قسماتها. لم يبق بعد وفاة الوالدين من خدم المنزل إلا العجوز داڤيد، وهو بالرغم من سنيّه الاثنتين والثمانين، يقوم بخدمة سيدته كما يجب. ذكر بعض الأشخاص من جرڤيس عن تلك الفتاة أشياء غريبة: ونالت قصصهم بعض الاهتمام في بلاد تؤمن بصورة رئيسة بالألغاز. وقد انصرفتُ لدراسة المفصل في التعزيمات لجان ويير وبعض المؤلّفات المتعلقة بالعلوم الشيطانية حيث دُوِّنَت بعض الوقائع التي زُعِمَ أنها فوق طبيعية لدى الإنسان؛ وذلك بهدف البحث عن وقائع مماثلة لما نسب إليها.

- قال ولفرد: إذن أنت لا تؤمن بها؟.

- قال القس بطيبة: «انني أرى فيها فتاة متقلّبة الأطوار إلى حدّ بعيد، تدلّلت من قبل أهلها الذين أداروا رأسها بالأفكار الدينية التي سبق أن ذكرتها لك». بدرت عن مينا إشارة من رأسها تعبر بلطف عن عدم قناعتها.

قال القسُّ متابعاً كلامه: ياللفتاة المسكينة! لقد أورثها أهلها تحمّساً مشؤوماً يضلّل الصوفيين ويجعلهم أقرب إلى الجنون، وهي تمارس فترات صيام تشغل بال دافيد المسكين. هذا العجور الطيب يشبه نبتة عجفاء تهتز من أقل الرياح وتتفتّح لأضعف شعاع شمسي، وسيّدته، التي غدت لغتها المبهمة لغة له، هي ريحه وهي شمسه. يرى الألماس عند قدميها ويرى جبينها مرصعاً بالنجوم، فهو يراها تمشي محاطة بجو منير أبيض، والموسيقى ترافق صوتها، ولها موهبة أن تمرّ غير مرئية. أتطلب رؤيتها؟ إنّه يجيبك بأنها تسافر في البلدان الكوكبية. ومن الصعب الإيمان بمثل هذه الخرافات، فأنت تعلم أن كل أعجوبة تشبه إلى حدّ ما قصة «سن الذهب»[1]. ولدينا سن ذهب هنا في جرفيس. هذا كل شيء. فُذنكر صياد البحر يؤكد أنه يراها أحياناً تغوص في الفيورد ثم تخرج بشكل بطة إيدر، وأحياناً تمشي على الأمواج اثناء العاصفة. اما فرغوس الذي يقود القطعان إلى مراعي السُلر فيذكر أنه يرى في الأوقات المطرة السماء صافية فوق القصر السويدي، وهي أبداً زرقاء فوق رأس سرافيتا عندما تخرج. نساء عديدات يسمعن أنغام أرغن شجيّة عندما تأتي سرافيتا إلى كنيستنا، ويسألن برصانة جاراتهن إن كنّ سمعن ذلك بدورهن. لكنّ ابنتي، وسرافيتا تكنُّ لها الودّ منذ نحو سنتين لم تسمع البتة تلك

(١) - تلميح إلى صفحة في مؤلف قصة وسطاء الوحي: حيث يبدي فونتينيل توجيهاً إلى روح النقد ووجوب التأكّد من الواقعة قبل البحث عن السبب فيذكر أن في العام ١٥٩٣ سرت شائعة في سيليزية تفيد أن طفلاً في السابعة من عمره نبتت له مكان السن اللبنية الساقطة سن ذهبية، وقد ذكر هورستيوس الاستاذ في كلية الطب حكاية تلك السن في العام ١٥٩٥ وبدأ المؤرخون يتداولون قصة سن الذهب حتى وردت في مؤلفات عديدة إلى أن قام أحد الصاغة بفحصها فوجد فعلاً أن هذه السن قد لبّست صنعياً برقاقة من ذهب لكن الحكاية كانت قد انتشرت وسجّلت في الكتب.

الموسيقى، ولم تشمَّ عطور السماء التي تتضوّع في الهواء في دروب نزهتها، على ما يقولون. لكن مينا غالباً ما عبرت لي عن نشوتها بالروائح التي تبثها بواكير الأرزيات أو أشجار الصنوبر أو الأزهار التي تذهب لتنشقها معها: لكن بعد شتاء بمثل هذا الطول، ما من شيء أكثر تلاؤماً مع الطبيعة من هذه المتعة الزائدة. فرفقة هذا الشيطان ليس فيها شيء غريب أليس كذلك يا ابنتي[1]؟

أجابت مينا: أسراره ليست أسراري، فأنا قربه أعرف كل شيء، بعيداً عنه لا أعرف شيئاً. قربه، أحسُّ إنني لست ذاتي. بعيدا عنه، أنسى كل شيء عن هذه الحياة العذبة. رؤيته حلم لا تدوم لي ذكراه إلا وفق إرادته. لقد أمكنني أن أسمع وأنا بقربه، دون أن أتذكر ذلك، وأنا بعيدة عنه، الموسيقى التي تحدثت عنها امرأة بانكر وامرأة إريكسون. أمكنني قربه أن أشمَّ العطور السماوية، وأتملّى من العجائب التي لا أحظى بفكرة عنها هنا.

تابع القسّ وهو يوجّه كلامه لولفرد: «أكثر ما أدهشني منذ أن عرفتها هو أن أراها تتحمل وجودك قربها»

---

(١) - تعتبر سرافيتا ساحرة في نظر ولفرد، وقد اهتم بلزاك منذ كتابات مطلع شبابه منذ «فالثورن سافوناتي بقوى السحر والتنجيم، وفتش عن دلائلها في الديانات القديمة، في سحر الهند، ومفصلات العلوم الشيطانية، وحياة أغريبا وكاردان. ثم فسرها بالمغناطيسية وجرّب أن يأخذ بالاعتبار تحاليل الدماغ، كما قربها إلى الانخطاف الصوفي. وملَكات سرافيتا توفّق في الواقع بين روحانية «الروح الملائكية» ونظرية المذهب الطبيعي «للمختصين» والتلميح إلى أحداث فوق طبيعية وقدرات سحرية يتجاوب مع أهداف عديدة: ربط الموضوع والشخصية بالدراسات السابقة؛ تلوين رسول الدين الجديد بالعجائب الذي رافقت ولادة السيد المسيح؛ وَسْم غرابة الشخصية بالطريقة المألوفة في الشرَك الخادع بنسب تفسيرات خاطئة للشهود، وإدراجها في سياق حيِّزي - زماني ولوضع سرافيتا في السياق الشمالي امكن لبلزاك أن يقرأ في مجلة «مركور فرنسة في القرن التاسع عشر» مقالاً بعنوان: «أركيولوجية الشمال - العرافون -» وكان السحرة يُسمَّون العرافون القادرون، لأنهم يحتفظون بالميزة الأساسية للإشارة أو الدالة وهي ليست فقط علامة رمزيّة، وإنما تمارس تأثيراً على الأشياء التي تسميها. فأودن قادر على تعداد جميع الرقيات التي يمكن ممارستها بواسطة العرافة القادرة» فبواسطة الإشارة أو الدالة تهدآ العواصف، وتخلّص النساء من الولادات العسرة، وتوقف الأنهار، وتتم ألف عجيبة أخرى ليست أقل إدهاشاً - وقد رسمت صورة للساحرة التي يمكن أن يتصوّرها سكان بلدة جرفيس بشكل زخرفة في الطبعات الأولى لرواية سرافيتا.

قال الغريب: قربها! لم تسمح لي مرّة بتقبيل يدها حتى ولا بملامستها. عندما رأتني لأول مرّة، أفزعتني نظرتها. قالت لي: حللت على الرحب هنا، إذا وجب أن تحضر «وبدا أنها تعرفني فارتعدت، وجعلني الرعب أؤمن بها».

قالت مينا دون أن يبدو عليها الخجل: «أما أنا فالحبُّ».

قال السيد بكر بطيبة: «ألا تسخران مني إن قلت: إنها جعلت منك يا ابنتي روح حب، وجعلت منك يا سيد ولفرد روح حكمة [1]؟».

واحتسى كأس بيرة فلم يلحظ النظرة الفريدة التي ألقاها ولفرد على مينا.

تابع رجل الكهنوت كلامه فقال: لندع المزاح جانباً؛ دهشت كثيراً عندما علمت اليوم لأول مرة أن هاتين المجنونتين ذهبتا إلى قمّة فالبرغ، لكن أليس هذا مبالغة من فتاتين شابتين لم تتجاوزا على الأرجح الصعود إلى هضبة ما؟ إذ يستحيل الوصول إلى قمة فالبرغ!.

قالت مينا بصوت متأثر: «أبي! كنت إذا تحت سيطرة الشيطان لأنني تسلقت فالبرغ معه!»

قال السيد بكر: أصبح الأمر جدّياً إذاً، فمينا لم تكذب البتّة.

استأنف ولفرد: سيدي القس بكر، أوكّد لك أن سرافيتا تمارس علي قدرات خارقة الى حد لا أجد معه التعبير الذي يمكّن من إعطاء فكرة عنها. لقد كشفت لي عن أشياء لا يعرفها أحد غيري.

---

(١) - الحبّ الذي تثيره الخنثى سرافيتا - سرافيتوس لدى ولفرد ومينا يقارب مفهوم سويدنبرغ لحبّ الملائكة الذي يوجّد في مخلوق تام روح حبّ وروح حكمة. لكن بلزاك يذهب إلى أبعد من ذلك إذ في شخص سرافيتوس - سرافيتوس وحده يوجد الحب والحكمة بينما الكلية والكمال للكائن تتشكل في زوج مقترن سرافيتا (روح حب) - ولفرد (روح حكمة) أو سرافيتوس (روح حكمة) - مينا (روح حب) وتعقّد هذه العلاقات يتمّ عن النظام الأرضي حيث التفرّع الثنائي للروح الملائكية التي لما تتبدل إلى ملاك تتكيّف إلى الفصل وإلى تصنيف كائنات العالم الطبيعي وعندما تغدو الخنثى ملاكا ستطير لتنصهر في التجانس، وسيبقى الكائن المثالي ممثلاً بالزوج البشري ولفرد - مينا.

قال العجوز: تنويم مغناطيسي! ، والواقع أن أحداثاً عديدة من هذا النوع اعتبرها جان ويير ظواهر قابلة للتفسير وأمكن ملاحظتها سابقاً في مصر.

تابع ولفرد: اعطني مؤلفات سويدنبرغ التيوزوفية؛ أريد أن أغوص في هذه اللجج من النور فإن ذكرها يزيد من ظمئي إلى التعمّق فيها.

ناول السيد بكر أحد الكتب لولفرد الذي راح يقرأ فيه سريعاً. كانت الساعة نحو التاسعة مساءً تقريباً، وقامت الخادمة بتقديم طعام العشاء، وأعدّت مينا الشاي. وبقي كل واحد منشغلاً بصمت بعد تناول وجبته. فالقسُّ يقرأ في **المفصّل في التعزيمات** وولفرد منشغل بفكر سويدنبرغ، والفتاة الشابة تخيط وهي غارقة في ذكرياتها. كانت تلك سهرة نروجية نموذجية، سهرة هادئة، مجدّة، مليئة بالأفكار والأزهار تحت الثلج. كان ولفرد وهو يلتهم صفحات النبي السويدي غير موجود إلا بأحاسيسه الداخلية، وكان القس يشير أحياناً إليه وهو يتطلع إلى مينا بهيئة نصف جادة ونصف هازئة، فتبتسم هذه بشيء من الكآبة. فرأس سرافيتوس يبسم لها وهو يحلّق فوق سحابة الدخان التي تظلّل الثلاثة. دقّت الساعة تعلن منتصف الليل. فسمع الباب الخارجي وهو يفتح بعنف، وخطوات ثقيلة ومستعجلة، خطوات عجوز مرتعب تتردّد متثاقلة في ذلك المدخل الضيّق بين البابين، وبدا بعدها فجأة دافيد على باب غرفة الجلوس هاتفاً:

نحن في شدة! نحن في شدة! تعالوا! تعالوا جميعاً! فالشياطين قد أفلتت من عقالها، وهم يعتمرون قلانس من نار: إنّهم الأدونيس، والفرتومن، وجنيّات البحر، وهم يجربون إغواءه كما جُرّبوا إغواء المسيح على الجبل؛ تعالوا لطردهم[1].

---

(١) - أدونيس ابن ميرا، و تربّى لدى الدرياد، وكان ذا وسامة ساحرة أغوت ڤينوس. فرتومن: ربّة رومانية تسود على الفصول وتتميّز بالقدرة على تغيير شكلها، وقد أغوت بومون الذي كان يقاوم الحب (أوفيد - التحوّلات، الكتاب الرابع عشر). هل كان استحضار فرتومن من العبارة الاستهلاكية في رواية ديدرو: «ابن أخ رامو» أما جنيّات البحر فهي ربّات كانت تغوي المسافرين بأغانيها الشجيّة (كما ورد في الأوديسة - مشهد عولس - النشيد الثاني عشر).

قال القس ضاحكاً: «هل تعرفان لغة سويدنبرغ؟ هاهي صافية!».

لكن ولفرد ومينا نظرا برعب إلى العجوز دافيد، بشعره الأبيض المبعثر، وعينيه الزائغتين، وساقيه المرتعشتين الملطختين بالثلوج إذا أنه حضر دون زلاّجات وبدا واقفاً كأنّ ريحاً عاصفة تعذّبه.

سألته مينا: «ماذا حصل!».

أجاب العجوز: «إيه! إن الشياطين تأمل بل تريد أن تستعيده!».

جعلت هذه الكلمات ولفرد يرتعش.

تابع دافيد العجوز: «منذ خمس ساعات وهي واقفة، وعيناها مرفوعتان إلى السماء وذراعاها ممدودتان؛ إنّها تتألم، إنّها تتوسّل إلى الله، لم أتمكن من أن أتجاوز الحدود، فجهنم أقامت الفرتومنات حراساً وقد أقاموا أسواراً من حديد بينها وبين خادمها العجوز داڤيد. ماذا أفعل إن كانت بحاجة لي؟ ساعدوني! تعالوا لنصليَّ معاً».

كان قنوط هذا العجوز المسكين مرعباً في رؤيته.

لكنه استأنف بإيمان طيّب مغوٍ: «إنّ نور الله يحميها، ولكن قد تستكين للعنف».

قال القس: «اصمت يا دافيد! لا تهذِ! هذا أمر يجب التحقّق منه؛ سنرافقك وسترى أن ليس هناك في منزلكم لافرتومنات، ولا شياطين، ولا جنيات بحر».

قال داڤيد لمينا بصوت خافت: «والدك أعمى».

كان ولفرد، وقد أحدثت قراءة أول مؤلّف لسويدنبرغ، رغم السرعة التي تمت بها، تأثيراً مذهلاً عليه، قد أمسى في الممر منشغلاً بربط زلاجاته، كما جهّزت مينا نفسها سريعاً وانطلق الاثنان بسرعة إلى القصر السويدي تاركين العجوزين يلحقان بهما على مهل.

قال ولفرد: «أتسمعين هذه الفرقعة؟

- أجابت مينا: انّه جليد الفيورد وهو يتقصف وها هو الربيع آت».

حافظ ولفرد على الصمت، ولما وصل الاثنان إلى باحة القصر، لم يجدا في نفسيهما القدرة ولا القوة للدخول إليه.

قال ولفرد: «ما رأيك بها؟»".

فهتفت مينا: «ياللانوار»! ثم وقفت أمام نافذة الصالة: «هاهو! يا الهي! كم هو وسيم! أوه! يا عزيزي سرافيتوس، خذني إليك.

كان هتاف الشابة داخلياً، وقد رأت سرافيتوس واقفاً، يحيط به بشكل خفيف ضباب بلون الأوبال يتفلّت إلى مسافة قريبة من هذا الجسم شبه الفوسفوري هتف ولفرد ذهنياً أيضاً: «كم هي جميلة!»

في تلك اللحظة وصل القس يتبعه دافيد، ورأى ابنته والغريب أمام النافذة فاقترب منهما وتطلّع إلى الصالة وقال: «ايه! يا دافيد، الواقع أنها تصلي»

- ولكن، يا سيدي، حاول أن تدخل.

أجاب القسّ: «لماذا نعكر صفاء المصلين؟»

في تلك اللحظة انسكب شعاع من ضوء القمر الذي برز من فوق فالبرغ على النافذة والتفت الجميع متأثرين بذلك النور الطبيعي الذي رماهم بالارتعاش، ولكن عندما التفتوا ليروا سرافيتا، كانت قد اختفت.

قال ولفرد مندهشاً: «ذلك أمر غريب!»

- قالت مينا: ولكنني أسمع أصواتاً عذبة!

قال القس: وماذا بعد! إنها ذهبت دون دون شك لتنام.

دخل داڤيد إلى المنزل، ورجع الثلاثة بصمت، فما من أحد منهم فهم نتائج تلك الرؤيا بشكل مماثل للآخر: فالسيد بكِرِ قد شك، ومينا تدلّهت، وولفرد اشتهى.

كان ولفرد رجلاً في السادسة والثلاثين من العمر، ورغم بروز قسماته فإن التناسق لا ينقصها. كان قصير القامة كجميع الرجال المتفوقين على غيرهم تقريباً، وصدره واسع وكتفاه عريضان، وعنقه قصير كأولئك الرجال الذين يقترب قلبهم من رأسهم. شعره أسود كثيف وناعم، عيناه بصفرة داكنة تمتلكان بريقاً شمسياً يتبين بأيّ نَهَم تطمح طبيعته إلى النور. وإذا كانت قسماته الرجولية والقلقة يغيب عنها. الهدوء الداخلي، الذي تشيعه حياة دون عواصف، فإنها تعلن عن منابع لاتنضب من أحاسيس جموح وقابليات غريزية كما أن حركاته تشير إلى كمال بنيابه الجسمي ومرونة حواسه وسرعة استجابتها. كان يمكن لهذا الرجل أن يصارع الانسان المتوحش، فيسمع مثله خطوة الأعداء في عمق الغابات البعيدة، يشتمُّ رائحتهم في الأجواء، ويرى في الأفق إشارة الصديق. كان نومه خفيفاً كنوم تلك المخلوقات التي لا تريد أن تفاجأ على حين غرّة، وجسمه يأتلف بسرعة مع مناخ البلدان التي تسوقه إليها حياته العاصفة، والفن والعلم يلاحظان بإعجاب في هذه العضوية نموذجاً بشرياً يتوازن كلُّ ما فيه: الفعل والقلب، والذكاء والارادة. يبدو من الوهلة الأولى وجوب تصنيفه بين الكائنات الغريزية صرفاً المنصرفة بلا روية إلى الحاجات الماديّة، لكنه منذ فجر حياته انطلق في العالم الاجتماعي الذي وجّهته إليه عواطفه، ووسعت العلوم مداركه، وسمت الدراسة بذكائه، وشحذ التأمل تفكيره؛ فدرس القوانين البشرية، وحركة المصالح في مواجهة الأهواء، وبدا انه ائتلف باكراً مع المجردات التي تستند إليها المجتمعات؛ ودرس دون انقطاع الكتب وهي الفعاليات البشرية المخزّنة ثم سهر في العواصم الأوروبية وسط الاحتفالات، واستيقظ في أكثر من سرير؛ وربما رقد في ميدان القتال خلال الليل الذي سبق المعركة، كما خلال الليل الذي حلّ به النصر. وربما ألقى شبابه العاصف على سطح سفينة أحد القرصان عبر البلدان الأكثر مفارقة على الأرض، هكذا عرف التصرّفات البشرية الحيّة، وألّم بالحاضر والماضي، بالتاريخ المضاعف، تاريخ مافات، تاريخ اليوم. كثير من الرجال كانوا كولفرد، أقوياء في اليد والقلب والرأس؛ ومعظمهم أفرطوا مثله في قدراتهم الثلاثية؛ لكن إذا كان هذا الرجل

مايزال متمسكاً في مظهره بالقسم الممتلىء بالطمي من الانسانية، فمن المؤكّد أيضاً انه ينتمي إلى المستوى الذي تتعقلن فيه القوة؛ ورغم الحجب التي تتغلّف بها روحه تصادف فيه هذه العلائم التي تدقّ عن الوصف، المرئيّة بالعين للكائنات النقيّة، لعين الأطفال الذين لم تتلق براءتهم أيّة زفرة هوى سيّء، ولعين العجوز الذي استردّ روحه. هذه العلامات تنبىء عن قايين بقي له أمل ويبدو أنّه يبحث عن غفران ما في طرف الأرض. اشتبهت مينا في هذا الرجل بالمحكوم بالمجد، وعرفته سرافيتا، وأعجبت به كلتاهما ورثتا له. ولكن من أين أتتهما هذه المعرفة السبقيّة؟ ما من شيء أكثر بساطة وأكثر غرابة. فما أن يريد الإنسان أن يتغلغل إلى أسرار الطبيعة حيث لايوجد سرٌّ، وحيث يتعلق الأمر بالرؤية فقط، حتى يلاحظ أن البسيط فيها يحدث العجيب.

قالت مينا ذات مساء بعد عدة أيام من وصول ولفرد إلى جرفيس: «سرافيتوس، أنت تقرأ في روح هذا الغريب، بينما لا أشعر انا تجاهه إلا بانطباعات مبهمة: إنه يصيبني بالقشعريرة أو يدبّ في الحرارة ولكن يبدو أنك تعرف سبب هذا البرد أو هذا الدفء؛ هل تنبئني عن ذلك، إذ يبدو أنّك تعرف كل شيء عنه.

قال سرافيتوس وقد أطبق على عينيه جفنيه العريضين: «نعم، رأيت الأسباب».

قالت مينا الفضولية: «بأيّة قدرة؟».

أجابها: «إن لي موهبة الاختصاص. والاختصاص [1] يشكل نوعاً من نظرة داخلية تتغلغل إلى كل شيء، ولن تدركي مداها إلا بالمقارنة. في مدن أوروبة الكبرى حيث تنتج أعمال تسعى من خلالها اليد البشرية إلى أن تمثل نتائج الطبيعة وكذلك نتائج الطبيعة الفيزيائية؛ هنالك أشخاص سامون يعبرون عن الأفكار

---

(١) - يرد ذكر الاختصاص في سرافيتا وفي لويس لامبر، لكن الاختصاص هنا يقتصر على التغلغل إلى عالم الوجدان فقط بينما في لويس لامبر يصل إلى العالم الروحي.

بالرخام، والمثّال يؤثر في الرخام ويشكّله، ويضع فيه عالماً من الأفكار. هنالك رخام منحته يد الانسان القدرة على أن يمثل جهة سامية بكاملها، أو جهة سيئة بكاملها من الانسانية، ومعظم الناس يرون في ذلك صورة بشرية، وليس أكثر، وآخرون وضعوا في مرتبة أعلى من سلّم الكائنات يرون فيه قسماً من الأفكار المعبّر عنها من قبل المثّال، فيعجبون فيه بالشكل؛ لكنّ المطلعين على أسرار الفن، ينصرفون بكل فهمهم إلى المثّال، وبرؤية رخامه، يتعرفون فيه على عالم أفكاره كلّه. هؤلاء هم أمراء الفن، إنهّم يحملون في ذواتهم مرآة تنعكس عليها الطبيعة بأدق طوارئها. ايه! أن فيّ مثل المرآة، حيث تنعكس الطبيعة المعنوية بأسبابها ونتائجها. فأخمن المستقبل والماضي بالتغلغل استناداً لذلك الوجدان. ودائماً ستقولين لي: كيف؟ اعتبري أن الرخام هو جسم انسان، واعتبري أن المثّال هو العاطفة، أو الهوى، الرذيلة أو الجريمة، الفضيلة، الخطأ أو الندم. بذلك تفهمين كيف قرأت في روح الغريب. دون أن أفسر لك ذلك الاختصاص [1] إذ لفهم هذه الموهبة يجب امتلاكها.

إذا كان ولفرد ينتمي إلى الشريحتين الأوليين من البشرية، المتميزتين لرجال القوة، ورجال الفكر؛ فإن تجاوزاته، وحياته المعذّبة وأخطاءه قادته غالباً إلى الإيمان. ذلك أنّ للشكّ وجهين: وجه النور ووجه الظلمات، وقد اعتصر ولفرد

---

(١) - يجب مقارنة مفهوم «الاختصاص» في لويس لامبر وفي سرافيتا؛ حيث ألفت بعض الأقسام بالتناوب وظهر فيها هذا الاصطلاح، ثم شطب، ثم ظهر في سرافيتا مع مقارنته بالمثّال. يلاحظ هنا أن «الاختصاص» قد اقتصر على موهبة التغلغل إلى العالم المعنوي أي إلى حقل الوجدان، بينما هو في لويس لامبر يبلغ الروحي، في ذات الوقت كما المادي، ويلحظ حتى في المستوى الأعلى «الالهي». ذلك أن بلزاك في الفصل السابع من مخطوطة سرافيتا وقد ألّف قبل الفصل الخامس، نسب إلى الصلاة، ما نسبه في لويس لامبر إلى الاختصاص، وبإدخال هذا المفهوم في سرافيتا، فإنه يختصر دفعة واحدة مدى المقارنة مع المثّال المخصص في المخطوطة لشرح موهبة الملاحظة «في الأجواء العليا». وهكذا فإن مفهوم الصوفي، ومفهوم الطبيعي يتطابقان، وموهبة صاحب الرؤيا تتوحد مع القدرة البشرية إنما المدركة والمحسوسة بالدماغ.

العالم جيّداً بشكليه: الروح والمادة، بحيث لا يصاب بالظمأ إلى المجهول، والرغبة بالذهاب إلى البعيد، مما ينتاب جميع الأشخاص الذين يعرفون ويقدرون ويريدون تقريباً. لكن لم يكن علمه، ولا تصرفاته، ولا إرادته ذات اتجاه؛ وقد هرب من الحياة الاجتماعية بالضرورة، كما يهرب المذنب الكبير باللجوء إلى الدير. وتبكيت الضمير، فضيلة الضعفاء هذه، لم تصبه؛ فهو عجز يتكرر الخطأ بعده فالندم وحده هو القوة، وهو ينهي كل شيء. ولكن وهو يتجول في العالم الذي جعل نفسه حبيساً فيه، لم يجد في أي مكان بلسماً لجراحه، ولم ير في أي مكان طبيعة يمكنه التعلّق بها فالقنوط فيه جفف منابع الرغبة، وقد كان من هذه الأرواح التي انجذبت بالأهواء ثم وجدت نفسها أقوى منها؛ فلم تجد بين براثنها ما تعتصره. من الذين فاتتهم فرصة أن يقفوا على رأس بعض أمثالهم ليطؤوا تحت سنابك خيولهم شعوباً كاملة، فاشتروا بثمن باهظ من عذاب رهيب القدرة على الفناء في إيمان [1]: نوع من صخور سامية تنتظر ضربة عصا سحرية لا تأتي، ويمكنها أن تفجّر الينابيع القصيّة[2]. وقد رماه قدر حياته القلقة المنقبة على طرقات النزوج، وفاجأه الشتاء في

(١) - ورد في المخطوطة «أن يصبح كيميائياً» في تلميح إلى بلتزار كلايس في رواية «البحث عن المطلق» التي انتهت في ٢٦ نيسان ١٨٣٤. فولفرد، وقد استنفد المعرفة والإرادة والقدرة لم يبق له إلا «الأعمال الخارقة» وفتش له بلزاك في السحر وعلوم الفلسفة واللاهوت، ثم في الكيمياء الفائقة، التي يرفضها هنا مستشفاًوسيلة أخرى للمعرفة هي الصوفية القديمة التي توفّق علمه وإيمانه.

(٢) - ولفرد هو «نوع من نموذج بشري» ويمكن أن نفكر بأن الشخصية قد كونّت وفقاً لمؤلف «بحث في القوى الانسانية» ذلك الكتاب الذي وعد بلزاك مراراً بإصداره.

الواقع أننا لجد فيه الثلاثية الحيوية التي تتوزع الحيوات (القلب والمخ والفعل) هذه الثلاثية التي وردت في لويس لامبر (العصب والمخ والقلب) «فللإنسان العصب الفعل أو القوة؛ ولإنسان المخ العبقرية، ولإنسان القلب الإيمان» ولفرد على هذا المثال «قوي في يده وقلبه ورأسه».

ولفرد «النموذج البشري» يأتي من قالب «كاستانية» النموذج فوق الطبيعي الذي أنشأه بلزاك في الوقت ذاته «في قصة ملموث المتصالح - آذار ١٨٣٥» فهو غريزي أولاً، ثم يوهب عقداً شيطانياً يمنحه نظرة ثانية لمختص، وقدرة عليا، فيرتوي من المتع، ويجفّ داخلياً، ويسعى وراء المجهول، ويشعر بالعطش إلى السماء فيتحلّل من عقده ويدخل في طريق الصلاة والإيمان.

بين الصورة الصوفية، والنموذج البشري والشخصيات العامة تقوم شبكة اتصالات قطعية وموضوعية تدلُّ على بنية.

جرفيس. وفي اليوم الذي رأى فيه سرافيتا لأول مرة، جعله هذا اللقاء ينسى ماضي حياته، فقد اثارت فيه الفتاة تلك الأحساسيس المفرطة التي اعتقد أنها غير قابلة للحياة مجدداً، لكن لهباً أخيراً توقد من بين الرماد الذي تبدّد مع أول زفرة من ذلك الصوت. من كان يعتقد أنه سيعود شاباً ونقياً بعد أن برُد في الشيخوخة وتلوّث بالشوائب؟ وفجأة أحبّ ولفرد كما لم يحبّ من قبل، أحبّ خفية، وبإيمان، وبرعب وبحماقات حميمة. و ارتجّت حياته في منبعها بالذات، لمجرّد فكرة رؤية سرافيتا فبسماعها ينطلق إلى عوالم مجهولة، إنه أخرس أمامها، فهي تفتنه. وهنالك تحت الثلوج، بين الجليد، كبرت على ساقها هذه الزهرة السماوية، التي كانت تصبو إليها أمنياته المخدوعة حتى الآن، فأيقظت بمرآها الأفكار النضرة، والآمال، والعواطف التي تتجمع حولنا؛ لترفعنا إلى مناطق سامية كما ترفع الملائكة إلى السموات المصطفين في اللوحات الرمزية التي أملتها على الرسامين إحدى العبقريات المألوفة. وليّن عطر سماوي قساوة غرانيت هذا الصخر، وصب نور موهوب بالنطق فيه أنغاماً إلهية ترافق المسافر في طريقه إلي السماء. وبعد أن استنفد كأس الحبّ الأرضي الذي سحقته أسنانه أبصر الإناء المختار حيث تلتمع أمواج شفافة، تولّد ظمأً للذّات دائمة النضرة لمن يتمكن أن يقرّب إليها شفتيه الملتهبتين من الإيمان دون أن يحطم بلورها. صادف ذلك الجدار الفولاذي المتوجب اجتيازه وقد كان يسعى إليه على الأرض، وذهب بعنف إلى سرافيتا بهدف أن يعبّر لها عن مدى هوى يحفّزه كحصان الأسطورة تحت ذلك الفارس من البرونز الذي لايتأثر من شيء، بل يبقى منتصباً ثابتاً تجعله جهود الحيوان الجامح أكثر رسوخاً وتمكناً. وصل ليصرح بحياته ويلون كبر روحه بكبر أخطائه، ليظهر الخراب في فيافيه، لكن ما إن عبر السور ووجد نفسه في المنطقة الفسيحة التي تعانقها هاتان العينان اللتان لا يعرف لازوردهما الومّاض الحدود أمامه ولا يترك أي صوّة خلفه، حتى غدا هادئاً، مستكيناً، كأسد اندفع في أحد سهول أفريقية خلف فريسته، لكنه تلقى على جناح الرياح رسالة حبّ فتوقّف. انفتحت أمامه هوّة سقطت فيها

عبارات هذيانه، وارتفع فيها صوت بدّله: غدا فتى يافعاً في السادسة عشر من عمره، خجولاً وجلاً أمام الفتاة ذات الجبين المشرق، أمام بياض هذا الشكل المشابه في هدوئه الثابت لبرودة العدالة البشرية القاسية. ولم تتوقف المعركة قط إلا خلال تلك الأمسية التي صرعته فيها أخيراً بنظرة، فكأنها صقر أجرى عدة دورات حلزونية مدوّخة حول فريسته إلى أن أسقطها مخبولة مخدّرة ليحملها بعد ذلك إلى وكره. إنّ في ذواتنا صراعات طويلة؛ مداها هو أحد فعالياتنا وهي بمثابة الوجه الثاني للانسانية. وهذا الوجه هو لله. أما الوجه الأوّل الظاهر فهو للبشر.

راق لسرافيتا أكثر من مرّة أن تبرهن لولفرد أنها تعرف الوجه الثاني المقلوب بتنوعه المشكلّ حياة ثانية لمعظم الناس. وغالباً ما قالت له بصوت تُرغَلَّة: «لماذا كل هذا الغضب؟» عندما صمّم في نفسه على طريقة لخطفها فيمتلكها لتغدو تابعة له. كان ولفرد وحده قادراً على أن يطلق صرخة الثورة التي اطلقها عند بكر، والتي هدّأتها حكاية العجوز. فهذا الرجل على شدة سخريته، وكثرة شتائمه، رأى أخيراً بزوغ نور إيمان كوكبي في ليله. وتساءل هل كانت سرافيتا إحدى المنفيّات من المستويات السامية وهي في طريقها إلى الوطن، فالتأليه الذي يغالي فيه العشّاق في معظم البلدان لم تحرم من شرفه زنبقة النروج هذه، وقد منحها إياه عن إيمان! لكن لماذا تبقى في هذا الفيورد؟ ماذا تفعل فيه؟ كثرت التساؤلات التي لا تحظى بجواب في خاطره. ماذا سيحدث بينهما خاصة؟ أي قدر ساقه إلى هنا؟ كانت سرافيتا بالنسبة إليه هذا المرمر الساكن؛ إنّما الخفيف كالظلّ. ذلك الظلّ الذي رأته مينا يحطّ على حافة الهوّة!: كانت سرافيتا تبقى هكذا أمام جميع الهوّات دون أن ينال منها شيء، دون أن يقطّب قوس حاجبيها، دون أن يترجرج النور في بؤبوء عينيها. كان ذلك إذاً حباً دون أمل، لكنه ليس دون فضول. فمنذ أن اشتبه ولفرد بالطبيعة الأثيرية للساحرة التي حدثّته عن سرّ حياته في أحلام متناسقة، حتى أغراه أن يخضعها، وأن يحتفظ بها، وأن يختطفها من السماء التي تنتظرها على الأرجح. فالبشرية والأرض تقبضان على فريستهما وهو يمثّلهما. وجعلته كبرياؤه وهي العاطفة الوحيدة التي يمكن للانسان أن يتحمس لها طويلاً - سعيداً بهذا النصر لباقي

أيام حـيـاتـه . عند هـذه الفكرة غلى الـدم في عـروقـه وأحس بالغم : إن لم ينجح فسيحطمها ، فطبيعي أن يدمّر الإنسان مالا يستطيع امتلاكه ، وأن ينكر مالا يفهمه ، وأن يشتم ما يغار منه .

في اليـوم التـالي أراد ولفرد ، وقـد شـغلتـه الأفكار التي تولّدت عن المشـهـد الغريب الذي كان شاهداً عليه بالأمس ، أن يستجوب دافيد ، وذهب لرؤيته متذرعاً بالسؤال عن أخبار سرافيتا . وبالرغم من أن السيد بِكِر قد ظنّ أن الخرف قد دبّ في الرجل المسكين فإن الغريب قد وثق من نفاذ فكره ليكتشف قسمات الحقيقة التي يدوّرها الخادم في سيل شروده .

كان لداقيد هيئة الثمانيني الساكن المتحيّر ، يُرى تحت أشعار رأسه جبين شكلت التجاعيد فيه طبقات متهدّمة ، وانحفر وجهه كسرير سيل جفت منه المياه ، وبدت حياته وكأنها قد التجأت كليّةً إلى عينيه حيث يبرق شعاع فيهما ، لكن هذا البريق يبدو وكأنه محتجب بالغيوم ويحوي الذهول البيّن ، كما الشخوص الأبله للهوس . حركاته الثقلية والبطيئة تنبىء عن صقيع العمر وتنقله لمن يغامر بالنظر طويلاً إليه ، لأنه يمتلك قوّة التخدير . وذكاؤه المحدود لا يستيقظ إلا على نبرة صوت سيدته أومرآها أو ذكراها . كانت روح هذا الكسْرة المادية كلياً . لو رأيت داقيد وحده لبدا لك كجثة : وما إن تظهر سرافيتا ، أو تتكلّم ، أو يُتحدَّث عنها حتى ينهض الميت من القبر ويعود إلى الحركة والكلام . ما كانت يوما هذه العظام المعروقة الجافّة التي وجب أن تعيدها النفحة الالهية إلى الحياة في وادي يوشافاط [1] ، وما كانت هذه الصورة الرؤيوية أكثر تحققاً من هذا الاليعازر [2] المستدعى دون انقطاع من رمسه بصوت تلك الشابة .

---

(١) - وادي يوشافاط : هو واد بين القدس وجبل الزيتون يعتقد المسيحيون أن أرواح الموتى ستتجمع فيه يوم الدينونة .

(٢) - اليعازر : هو أخ مرتا ومريم ، وقد أقامه السيد المسيح من بين الأموات ، وهناك أسطورة تفيد أنه غدا أول مطران لمرسيليا .

كان كلامه المجازي على الدوام غير مفهوم غالباً، مما يمنع السكان من تبادل الحديث معه، لكنهم يحترمون تلك الروح العميقة البعيدة عن الابتذال، التي يعبدها الشعب غريزياً. وجد ولفرد العجوز داڤيد في الصالة الأولى، نائماً ظاهرياً قرب المدفأة؛ وكالكلب الذي يعرف أصدقاء المنزل، رفع العجوز رأسه، وأبصر الغريب، فلم تبدر منه أيّة حركة.

سأل ولفرد العجوز وهو يجلس إلى قربه: إيه! أين هي؟

حرك دافيد أصابعه في الهواء وكأنه يرسم تحليق طائر.

سأل ولفرد مجدداً: «ألم تعد تتألم؟».

أجاب العجوز برصانة وكأنّه أداة موسيقية تجرّب فتعطي نغماً غير محدد:

«إن المخلوقات الموعودة بالسماء تعرف وحدها كيف تتألّم دون أن ينقص الألم حبّها وهذا هو دليل الإيمان الحقيقي».

– من علّمك هذا الكلام؟.

– الروح.

– ماذا اصابها البارحة مساءً اذن؟ هل قهرت الفرتومنات الواقفة كحرس أخيراً؟ أم أنك انزلقت عبر المامونات [1].

ردّ دافيد وكأنه يستيقظ من حلم: «نعم!» وبدا البخار المبهم حول عينيه ينقشع تحت ألَق وارد من الروح جعل تلك العينين تبرقان كعيني نسر وتشعان ذكاء كعيني شاعر.

سأله ولفرد مندهشاً من هذا التبدّل المفاجىء: ماذا رأيت؟

فانطلق داڤيد يقول: رأيت الأنواع والأشكال، وسمعت روح الأشياء، رأيت ثورة الأشرار، وسمعت كلام الأخيار! حضر سبعة شياطين ونزل سبعة

(١) – المامونات: كلمة أرامية في الانجيل وتعني الثروات المختلسة.

رؤساء ملائكة. كان رؤساء الملائكة بعيدين، كانوا يتأمّلون محجوبين. وكان الشياطين قريبين وهم يبرقون ويتحركون. وأتى مامون [1] على صدفته العاجيَّة، وبشكل امرأة فاتنة عارية؛ بياض جسمها كالثلج يبهر. ما كانت الأشكال الإنسانية يوماً بمثل هذا الكمال. وقال: «أنا المتعة، وستمتلكني» وجاء لوسيفر، أمير الأفاعي على مركبته كملك، والانسان فيه جميل كملاك، وقال: «ستخدمك البشرية». وملك البخلاء، ذلك الذي لا يردّ شيئاً مما يتلقّاه، اي البحر، جاء وهو مغلف بمعطفه الأخضر، وكشف عن صدره، وأظهر مخزون جواهره، فلفظ كنوزه، وقدّمها لاهدائها، أرسل أمواجاً من سفير وزمرد، وتحرّكت جميع منتجاته، وانبثقت من مخابئها، وتكلّمت، وكانت أجمل اللآلىء فيها قد نشرت أجنحتها كالفراشة، وشعّت، وأسمعت موسيقاها البحرية وقالت: «كلتانا فتاة الألم، إنّنا أختان، ألاتنتظرينني؟ سنذهب معاً، ليس عليّ إلا أن أغدو امرأة». اما الطائر بجناحي نسر وقوائم أسد ورأس امرأة، وكَفَل حصان، الحيوان قد انهار ولحس قدميها، واعداً بسبعمئة سنة من الخصب لابنته المحبوبة. كان الأكثر خطراً، هو الطفل، وقد وصل حتى ركبتيها وهو يبكي قائلاً لها: «هل تتركينني؟ أنا الضعيف، العليل، ابقي، يا امي!». كان يلعب مع الآخرين، وينشر الكسل في الهواء؛ والسماء قد انساقت لشكواه. كانت العذراء ذات الغناء العذب قد أسمعت غناءها الذي يشجي الروح؛ وملوك الشرق أتوا مع عبيدهم، وأسلحتهم، ونسائهم، والجرحى طلبوا مساعدتها، والتعساء مدوا لها اليد وصرخوا: «لاتتركينا! لا تتركينا! وصرخت أنا بدوري: «لا تتركينا، سنعبدك، ابقي!» وخرجت الأزهار من

---

(١) - مامون هو رب الثروات لدى السوريين، وربُّ المال أو أنه شيطان بصورة عامة في الأناجيل لماذا جعل منه بلزاك ربةً هي رمز الجمال والمتعة؟ يبدو أن هناك عدوى من مختلف النماذج البلاستيكية لفينوس - فينوس مديسي وقربها دلفين وقوقعة؛ وڤينوس أناديومين دابل وقد خرجت من زورق صغير مشكل من زبد البحر، وتمثل غنمة على اللوفر: «ولادة فينوس» وهي واقفة على صدفة مدفوعة، بصغار الضفادع والديدان البحرية، أما فينوس أناديومين لبوتشيلي فهي واقفة على قوقعة وسط الأمواج وهي تغطي عريهاشعرها.

بذورها، أحاطتها بعطورها التي تردّد: «ابقي» وخرج العملاق إناكيم من المشتري وقد أتي بالذهب وبأصدقائه، ترافقهم أرواح الأراضي الكوكبية وجميعهم قالوا: «سنكون لك لسبعمئة سنة».

أخيراً نزل الموت عن حصانه الشاحب وقال: «سأطيعك» وسجدوا جميعاً أمام قدميها، وليتك رأيتهم، كانوا يملؤون السهل الكبير ويصرخون جميعاً بها: «أنت ابنتنا، نحن غذيناك، لا تهجرينا» وخرجت الحياة من مياهها الحمراء وقالت: «لن أتركك!» وعندما وجدت سرافيتا صامتة، أبرقت من جديد كالشمس وهتفت: «أنا النور!» «النور هناك!» هتفت سرافيتا وهي تشير إلى السحب حيث يتحرك رؤساء الملائكة؛ لكنها كانت تعبة، والتوق قد حطّم أعصابها، ولم تستطع إلا أن تصرخ «أوه! يا الهي!». كم من الأرواح الملائكية، التي وهي تتسلق الجبل. صادفت قريباً من وصولها للقمة، تحت أقدامها، حصاة جعلتها تتدحرج لتغرق من جديد في اللجّة. جميع تلك الأرواح الساقطة أعجبت بثباتها، وكانت كلها هنا تشكّل جوقة ساكنة، وجميعها تقول لها باكية: «تشجعي». أخيراً انتصرت على التوق العاصف بها بجميع أشكاله وبجميع أنواعه. بقيت في صلواتها، عندما رفعت عينيها، رأت قدم الملائكة [1] الطائرة مجدداً الى السموات.

ردّد ولفرد: رأت قدم الملائكة.

---

(١) – هذا المشهد في الإغواء، لم يفهم من المعاصرين، وهو من وحي غنوصي، ففي مذهب الحناشيين (الجماعة الدينية التي تعتبر الأفعى رسول الحكمة المنقذة للبشر) فإن الروح بعد أن تتفلت من جنيات الأهواء الأرضية، تطير من مستو إلى آخر يرافقها ملائكة النور السبعة، لكنها تصطدم بولاة الأجواء السيّارة التي تعترضها وعليها أن تتغلب عليها لتتبوّأ وتتنقى، وفي العالم الالهي فإن جنيات الأجواء السيّارة تدير عناصر وشروط العالم المادي: الظلمات، والسلطة الاستبدادية، العقل المتميّز، والموت، وقوانين المادة، والماء، والجهل، والنار (ج. ماتر: التاريخ النقدي للغنوصية ١٨٢٨) وبلزاك يستوحي بجسارة من هذه المواضيع ويزخرفها بتذكرات توارتية ونزعة انسانية رومنسية. وهو من ناحية أخرى يدمج التجارب المعاناة في الأجواء الأرضية مع تلك التي يتعرض لها في الأجواء السيّارة (أو الأراضي الكوكبية بالنسبة لسويدنبرغ) محتفظاً لما بعد الموت بالتجربة الأخيرة على «باب المعبد» ويبين تطهيراً تدريجياً للروح في العالم الروحي نفسه حتى وقت انتشارها في العنصر الألهي.

قال العجوز: نعم.

سأل ولفرد: أهو حلم حدّثتك عنه؟.

أجاب دافيد: حلم رصين بقدر حلم حياتك، فقد كنت شاهداً فيه.

أثّر هذا الهدوء في الخادم العجوز على نفس ولفرد، فعاد وهو يتساءل إنّ كانت هذه الرؤيا أقل غرابة من تلك التي حُدِّدت علاقاتها وقرأها بالأمس في سويدنبرغ.

قال في نفسه وهو يدخل إلى الخورنية حيث وجد السيد بِكرِ وحده: «إذا كان للأرواح وجود فيجب أن تتحرك». وتوجّه إلى القس مخاطباً: «عزيزي القس، إن سرافيتا لا ترتبط بنا إلا بالشكل، وشكلها لا ينفذ احد إليه، لا تعتبرني مجنوناً، ولا عاشقاً، فاليقين لا يناقش. حولّ إيماني إلى افتراضات علمية، ولنحاول أن نجلي الأمور. فغدا سنذهب معاً إليها.

قال السيد بكر: وماذا بعد؟

تابع ولفرد: (إذا كانت عينها تجهل الفضاء وإذا كان فكرها نظرة ذكية تسمح لها أن تلمّ بالأشياء في جوهرها وتربطها بالتطور العام للعوالم، واذا كانت، بكلمة واحدة، تعرف كل شيء وتراه)، فلنُجْلس هذه العرافة على مرتكزها، ولنرغم هذا النسر العنيد على نشر أجنحته بتهديده! ساعدني! فأنني اتنشّق ناراً تفترسني، فأريد أن أطفئها أو أدعها تستهلكني. أخيراً فقد اكتشفت فريسة وأريد أن أقتنصها!

قاطعه ولفرد: ما بها؟

قال القسّ: مجنونة!.

- أنا لا اعترض على رأيك في جنونها، فلا تعارضني في رأيي بسموّها، فياسيدي العزيز بكر، لقد أفحمتني غالباً بتبحرّها العلمي. فهل سبق لها أن سافرت؟

- من منزلها إلى الفيورد.

هتف ولفرد: إنّها لم تخرج من هنا! لا شكّ أنها قرأت كثيراً؟.

- ولا ملزمة، ولا صفحة! فأنا الوحيد الذي أمتلك كتباً في جرفيس. ومؤلّفات سويدنبرغ، وهي الوحيدة التي كانت في القصر، ها هي هنا، ولم تفتح واحداً منها قط!

- هل حاولت مرّة أن تتحدث معها؟

- وما فائدة ذلك؟.

- ألم يعش أحد تحت سقف منزلها؟.

- لم تصادق أحداً سواك وسوى مينا، وما من خدم لديها إلا دافيد.

- ألم تستمع إلى أحد يتكلّم عن العلوم أو الفنون؟.

- سأل القس: «مثل من في رأيك؟».

- إذا كانت تناقش عن علم في هذه الأمور، كما حدث ذلك معي غالباً، فماذا تقول في ذلك؟

- ربما اكتسبت هذه الفتاة، خلال سنوات من الصمت القدرات التي تمتع بها أبولونيوس دي تيان [1] وكثير من السحرة المزعومين الذين أحرقتهم محاكم التفتيش، لعدم قبول الرؤيا الثانية!

- ماذا تقول لو كانت تتكلّم العربية؟

- إن تاريخ العلوم الطبية يذكر عدة أمثلة عن فتيات تكلّمن بلغات لم يتعلمنها من قبل.

---

(١) - ابولونيوس دي تيان: صانع معجزات وفيلسوف فيثاغوري محدث، ولد في كبادوكية ومات في أفسس نحو العام ٩٧ درس في الهند مبادىء البراهمية واكتسب علومها وقدراتها. نفي كعرّاف من قبل نيرون، وسنده فزباسيان وأعلن عن بعد مقتل دوميسيان الذي اضطهده، وقد سبق لبلزاك أن ذكر أبولونيوس في لويس لامبر وفي السيب بولس.

قال ولفرد: ما العمل؟ ولقد عرفت من ماضي حياتي أشياء لا يعرف سرّها أحد غيري!

فقال بكر: سنرى إن كانت ستقول لي الأفكار التي لم أطلع أحداً عليها.

ودخلت مينا، فسألها القس: «هيه؟ وبعد يا ابنتي؟ فما أخبار شيطانك؟»

أجابت بعد أن حيّت ولفرد: إنّه يتألّم يا أبي، فالأهواء البشرية التي اكتست كنوزها الكاذبة مجدّداً، أحاطت به خلال الليل، وبسطت له أباطيلها الخارقة. ولكنك تعتبر هذه الأمور بمثابة حكايات.

قال القسّ باسما: «هي حكايات لمن تدور في رأسه، كمثل متعة **ألف ليلة وليلة** للعوام».

فتابعت الفتاة تقول: «لكن ألم يقم إبليس بحمل المخلص إلى أعلى الهيكل وأراه الأمم تحت قدميه؟

- أجاب القسّ: إن الإنجيليين لم يصححوا بدقة النسخ التي بين أيديهم بحيث وجدت روايات مختلفة.

قال ولفرد لمينا: «أتؤمنين بحقيقة هذه الرؤيا؟».

- من يمكنه أن يشكّ بها عندما يرويها؟.

سأل ولفرد: من هذا الذي تستخدمين له صيغة المذكر؟.

أجابت مينا وهي تشير إلى القصر: ذلك الموجود هناك!.

- «تعنين سرافيتا؟!» سأل الغريب مندهشاً.

أحنت الفتاة رأسها إيجاباً وهي ترميه بنظرة ملأى بمكر مُحَبَب.

تابع ولفرد: وأنت أيضاً يسرّك أن تشوّشي أفكاري. من هي؟ وما رأيك فيها؟.

أجابت مينا وقد احمرّت خجلا: ما أشعر به لا تفسير له.

هتف القسّ: إنكم مجانين!.

فقال ولفرد: إلى اللقاء غداً.

IV

سحب المعبد [1]

هنالك مشاهد تساهم فيها جميع الروائع المادية التي تهيّأت للانسان؛ فأم من العبيد والغطّاسين ذهبت تبحث بين رمال البحر وشقوق الصخور عن تلك اللآلىء والجواهر التي تزين المشاهدين. وبانتقالها من إرث إلى إرث، التمعت تلك القطع البهية على جميع الجبهات المتوّجة، فغدت، لو انها استطاعت النطق الأكثر صدقاً بين التواريخ البشرية. ألم تعرف آلام كلٍّ من الكبار والصغار وأفراحهم؟ تمّ التزيّن بها في كل مناسبة فُوضِعت بزهو في الأعياد والاحتفالات، وحملت بقنوط إلى المرابين، وانتزعت بالدم والسلب، وأدرجت في التحف التي ابتكرتها الفنون لحفظها. وباستثناء ما أضاعته كيلوباترة، ما من واحدة منها قد ضاعت: فالكبار، والسعداء يتجمعون ليشهدوا تتويج ملك، زينته هي نتاج صناعة البشر، لكنه في مجده يرتدي أرجواناً أقل كمالاً من أبسط زهرة في الحقول. هذه الاحتفالات

---

(١) - هذا العنوان مستمد من مؤلف لإكارتسهوزن: «السحب فوق المعبد أو شيء مالا تشك به فلسفتنا المتعجرفة» (ترجمة كوسن ١٨٢٩) كما أن لويس لامبر يقول: «الرجل القلب الإيمان، لكنه يضيف بحزن: وللإيمان سحب المعبد، وللملاك وحده النور». بالنسبة لإكارتسهوزن فإن السر (الذي ينسب لله أو للطبيعة) هو فقط في ضعف كياننا غير القادر على تحمّل النور، والذي لم يهيأ لنظرة طاهرة للحقيقة العارية. هذا الضعف هو السحابة التي تغطي المعبد، وهو يعتقد أن مفتاح الأسرار سيسلم لنا: «ولكننا نقترب الآن من الزمن الذي ستجعل الروح فيه الأرض حيّة، والذي ستختفي فيه السحابة التي تغطي المعبد، فتنتقل الهيروغليفية إلى رؤيا حقيقية، والكلمات إلى إدراك.

المبهرة بالأضواء، الزاخرة بالموسيقى، حيث يجرّب كلام الإنسان أن يجلجل؛ وكل ما حققته يده من تلك الانتصارات، يمكن لفكرة واحدة أو عاطفة أن تسحقها. فالفكر يمكن أن يجمع حول الإنسان وفي الإنسان الأنوار الأشد تألقاً، ويسمعه الأنغام الأكثر تناسقاً، ويحمله ليسائل متن سحب المجرات الأكثر بريقاً. والقلب يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. يمكن للإنسان أن يوجد وجهاً لوجه أمام مخلوق واحد، ويجد في كلمة واحدة، وفي نظرة واحدة، حملاً هو من الثقل في وزره، والمضاء في بريقه، والنفاذ في صوته ما يجعله يرزح تحته ويجثو. فالروائع الحقيقية ليست في الأشياء، وإنما هي في ذواتنا. ألا يشكل سرٌّ في أحد العلوم، بالنسبة للباحث، عالماً كاملاً من الأعاجيب؟ هل ترافق احتفالاته أبواق القوّة، وتألّقات الثروة، وأنغام الفرح، وتوافد الناس جموعاً؟ كلاّ، إنه يقبع في ركن منعزل معتم، حيث يقول له في الغالب رجل شاحب، مضنى، كلمة واحدة ،هامساً. فتكون تلك الكلمة كمشعل ألقي في سرداب، تضيء له العلوم. إن كل الأفكار البشرية، المكتسبة بأكثر الأشكال جاذبية، والتي ابتكرتها الأسرار الخفيّة كانت تحيط بأعمى جالساً في حمأة على حافة طريق. والعوالم الثلاثة: الطبيعي، والروحي، والالهي، بجميع مستوياتها انكشفت لمنفي فلورنسي مسكين: كان يمشي يرافقه السعداء والتعساء، فيهم من يصلّي وفيهم من يصرخ، منهم الملائكة والملعونون. وعندما ظهر مبعوث الله، الذي يعرف والقادر على كل شيء، لثلاثة من أتباعه، كان ذلك ذات مساء، على المائدة المشتركة في أحقر الخانات، في تلك اللحظة، انبثق النور، فحطم الأشكال المادية، وأضاء القدرات الروحية، ورؤوه في مجده، فلم تعد الأرض تحت أقدامهم إلا كنعل يسهل خلعه.

شعر السيد بكر وولفرد ومينا باضطراب مشوب بخشية وهم ذاهبون لزيارة الكائن الخارق الذي ارتؤوا استجوابه، فالقصر السويدي المتسامي بدا لكل منهم بمشهد عملاق، مماثل لتلك المشاهد التي يصورّ كتلها وألوانها الشعراء بمزيد من المهارة والتناسق حيث الشخصيات، ممثّلون خياليون بالنسبة للناس، لكنهم حقيقيون لأولئك الذين يبدؤون بالتغلغل إلى العالم الروحي. على درجات مسرح

الكوليزه[1]، ذاك حشد السيد بكر حجافل شكّه المكفهرة، وأفكاره القاتمة، وصيغ جدله الحرون؛ دعا إليه مختلف العوالم الفلسفية والدينية التي تتصارع، والتي تظهر جميعها تحت شكل نظام معروق كالزمن المرسوم من الانسان، عجوز يرفع بيد المنجل، ويحمل بالأخرى كوناً هزيلاً، الكون البشري. ودعا ولفرد إليه أوهامه الأولى وآماله الأخيرة، وأحلّ فيه القدر الإنساني ومعاركه، والدين وهيمناته الظافرة. ،رأت فيه مينا بإبهام السماء في انقشاع، فالحب قد رفع لها ستاراً مطرّزاً من الصور الخفيّة والاصوات المتناسقة التي تضاعف من فضولها عند وصولها إلى مسامعها. كانت هذه الأمسية بالنسبة لهم كعشاء الحجّاج الثلاثة في عمواس [2]، كرؤيا دانتي وكالهام هوميروس. فتكشفت بالنسبة اليهم أشكال العالم الثلاثة، وتمزّقت الحجب، وتبدّدت الشكوك، وانقشعت الظلمات. فالبشرية بكل درجاتها، وبانتظارها النور، لا يمكن أن تكون أكثر ظهوراً منها في هذه الفتاة، وذلك الرجل، وهذين العجوزين، حيث الواحد منهما على درجة من العلم تدفعه إلى الشكّ، والآخر على درجة من الجهل تدفعه إلى الإيمان. وما من مشهد قط كان أكثر بساطة في المظهر، وأكثر سعة في الحقيقة.

عندما دخلوا يتقدمهم دافيد العجوز وجدوا سرافيتا واقفة أمام طاولة وضعت عليها مختلف الأشياء اللازمة لتناول الشاي: ضيافة تقوم في الشمال مكان تقدمة كأس من خمر في البلدان الجنوبية. من المؤكّد، أنه ما من شيء فيها، أو فيه! ينبىء عن هذا الكائن ذي القدرة الغريبة على الظهور بشكلين متميّزين؛ ما من شيء يكشف عن القوى المختلفة التي تمتلكها. وقد اهتمت بشكل عام بالترحيب بضيوفها الثلاثة فطلبت من دافيد أن يضع مزيداً من الحطب في المدفأة ثم قالت:

---

(١) - الكوليزه: مسرح روما الشهير في القرن الأوّل الميلادي، وكان يحوي/ ٨٠/ ثمانين صفاً مدرّجاً ويتسع لمئة ألف متفرج، وما تزال انقاضه البارزة في عدة طوابق أحد معالم روما الشهيرة. (ملاحظة المترجم).

(٢) - عمواس: قرية على بعد أميال من أورشليم (القدس) ظهر فيها يسوع بعد قيامه لتلميذين من تلاميذه (لوقا ١٣ - ٢٤).

«طاب يومكم، ياجيراني، لقد أحسنت صنعاً بمجيئك يا عزيزي السيد بِكِرِ، فقد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تراني فيها حيّة، فهذا الشتاء قد قتلني؛ وأنت ياسيدي تفضل بالجلوس، مشيرة إلى ولفرد، وانت يا مينا تعالي إلى جانبي وأشار إلى كرسي قريب منه، إنّك تحملين أدوات تطريزك معك، هل وجدت القطعة المناسبة؟ إن الرسم جميل جداً! لمن تحضّرين هذه القطعة؟ لوالدك أوللسيد؟ قالت وهي تلتفت إلى ولفرد. ألا ينبغي أن نقدّم له قبل سفره ذكرى من فتيات النروج؟

قال ولفرد: «إذا فقد تألمت أيضاً البارحة؟».

قالت: هذا لا شيء، فهذا الألم يروق لي، إنّه ضروري للخروج من الحياة.

قال السيد بِكِرِ باسماً، وهو غير مصدق أنها مريضة: «إن الموت لا يفزعك أبداً إذاً؟

- كلا يا عزيزي القس، فهناك مفهومان للموت: فهو بالنسبة لبعضهم انتصار، وبالنسبة لبعض الآخر اندحار.

قالت مينا: وأنت تعتقد أنك قد دحرته؟

أجابت: لا أعلم، ربما لم تكن إلا خطوة ليس أكثر؟.

تغيّر البهاء الجليبي في جبينها، واحتجبت عيناها تحت جفنيها اللذين انبسطا ببطء، مما أثر في الفضوليين الثلاثة وجمدّهم على بساطة هذه الحركة، وكان السيد بكر الأكثر جرأة فقال: «يا ابنتي العزيزة، إنك الطهارة مجسّمة، ولكنك أيضاً ذات طيبة الهية، وأنا أريد منك في هذا المساء شيئاً آخر عدا الأطايب المرافقة للشاي، إذ أنك، وفقاً لما يذكره بعض الأشخاص، تعرفين أشياء غريبة، فإذا كان الأمر كذلك أليس من الإحسان أن تبدّدي بعض شكوكنا.

فقالت باسمة: إنني أسير فوق السحب، أنا بحالة أفضل فوق لجج الفيورد، فالبحر مطيّة تمكنت من كبح جماحها، وأعرف أين تنبت الزهرة التي تغني، وأين ينسكب النور الذي يتكلّم، وأين تلتمع وتحيا الألوان التي تفوح بالعطر. إن لدي

خاتم سليمان، فأنا جنيّة ألقي أوامري للريح فتنفذها كعبد مطيع، أرى الكنوز في باطن الأرض، وأنا العذراء التي تتطاير من حولها اللآلىء و . . .

قالت مينا مقاطعة: ونسير فوق جبل فالبرغ دون خطر.

أجاب الكائن وهو يرمي الفتاة بنظرة وضاءة ملأتها قلقاً: «وأنت أيضاً! لو لم تكن لديّ القدرة على قراءة الحافز الذي حدا بكم للمجيء مرتسماً على جباهكم هل كنت من تعتقدون؟ قالت ذلك وهي تجتاح الثلاثة بنظرة كاسحة ملأت بالرضى العارم نفس دافيد فذهب وهو يفرك يديه حبوراً. ثم تابعت بعد توقف: - آه! جئتم أنتم الثلاثة مدفوعين بفضول طفل. تساءلت يا عزيزي المسكين بكر: هل من الممكن لفتاة في السابعة عشرة من عمرها أن تعرف آحد آلاف الأسرار التي يبحث فيها العلماء وأنفهم في الأرض بدلاً من أن يرفعوا عيونهم إلى السماء؟. لو ذكرت لك كيف وأين يتصل النبات بالحيوان لبدأت تشكّ في شكوكك! لقد تآمرتما على سؤالي، ألا تعترفان بذلك؟.

أجاب ولفرد: نعم يا عزيزتي سرافيتا، لكن أليست هذه الرغبة طبيعية في البشر؟

قالت وهي تضع يدها على شعر مينا بحركة مداعبة: تريدان أن تسببا الملل لهذه الطفلة؟.

رفعت مينا عينيها وبدت وكأنها تريد أن تنصهر في سرافيتا.

قال الكائن الغامض برصانة: «الكلام خير للجميع، ويالتعاسة من يحافظ على الصمت وسط الصحراء معتقدا أن ليس من يسمعه: الكلّ يتكلم والكلّ يسمع هنا؛ الكلام يحرك العوالم، وأنا أتمنى يا سيد بكر ألا أقول شيئاً عبثاً. إنني أعرف الصعوبات التي تشغل بالك أكثر ما يكون: «هل احقق أعجوبة إن أحَط أولاً بماضي وجدانك؟ إيه! الواقع أن الأعجوبة ستتم، فاصغ اليّ؛ إنّك لم تعترف يوماً بشكوكك بكامل مداها، وأنا فقط بإيماني الذي لا يتزعزع يمكنني أن أحدثك عنها،

وأن أرعبك من ذاتك؛ إنَّك في الناحية الأكثر ظلمة من الشكّ، فأنت لا تؤمن بالله، وكل شيء هنا يغدو ثانوياً لمن يهاجم مبدأ الأشياء فلنتخل عن المناقشات التي أثارها الفلاسفة المزيّفون دون طائل؛ والأجيال الروحانية لم تقلّ جهودها العابثة لإنكار المادة عن محاولات الأجيال المادية لإنكار الروح! لماذا هذا الجدل؟ ألم يقدّم الإنسان بهذا المذهب وذاك براهين لا تدحض؟ ألا تصادف فيه أشياء مادية، وأشياء روحية[1]؟ . إن المجنون وحده يمكنه أن يمتنع عن رؤية جزء من المادة في الجسم البشري؛ وقد وجدت علومكم الطبيعية بتحليله فرقاً قليلاً بين عناصره وعناصر الحيوانات الأخرى. والفكرة التي تحدثها في الناس مقارنة عدة أشياء لا تبدو لأي انسان من مجال المادة. وهنا لا أريد البتّ فالأمر يتعلق بشكوكم لا بقناعاتي. وعليكم، كما على معظم المفكرين، بيان العلاقات التي لديكم القدرة على اكتشافها بين الأشياء التي أثبتت أحاسيسكم أنها غير مادية. فالكون الطبيعي للأشياء والكائنات ينتهي إذا في الإنسان بالكون فوق الطبيعي للتماثلات أو الفروق التي يلاحظها بين الأشكال التي لا حصر لها في الطبيعة، وهي علاقات متضاعفة إلى حدّ تبدو فيه لا متناهية؛ ذلك أنه إن لم يتمكن أحد، حتى الوقت الحاضر من أن يحصي الكائنات، فأي انسان يمكنه أن يعدّد العلاقات؟ أليس الكسر الذي تعرفونه عنها هو بالنسبة لعددها الاجمالي كما العدد بالنسبة للانهاية؟ هنا تصلون إلى إدراك اللانهاية، وهذا يجعلكم بالتأكيد تتصورون عالماً روحياً صرفاً. هكذا يقدّم الانسان برهاناً كافياً لهذين العاملين المادة والروح ففيه ينتهي عالم منظور نهائي، ومنه يبدأ عالم غير منظور ولا نهائي[2]: عالمان لا يتعارفان: هل تعرف حصى الفيورد سرّ

---

(١) – يتساءل لويس لامبر أيضاً فيقول: «ربّما كانت كلمتا مادية وروحية تعبران عن وجهي شيء واحد» والكاتب المجهول الذي أعدّ تقريراً عن مؤلفات البارون ماسياس وڤيري، مهاجماً بروسيه يصرح بأن مفهومي المادية والروحية لا يتلاءمان مع المذاهب العلمية الحالية وأن الكلمتين القديمتين للمادة والروح لا يمكن أن تتناسق مع الوقائع المثبتة» والسيد بروسيه ليس ماديا لمهاجمته الروحانية لأنه لم يفهم تماماً معنى الكلمتين، كما أن سرافيتا ترفض هذا التناقض وتقيم مذهبها على وحدة العنصر.

(٢) – كتب لويس لامبر: ألا يجب أن يكون الإنسان هو الرابط بين الطبيعة المرئية والطبيعة غير المرئية كذلك قال سويدنبرغ: الانسان هو وسيلة الاتحاد بين الطبيعي والروحي.

التوافقات بينها؟ هل تدرك الألوان التي تتمثُّل فيها أمام عيني الإنسان؟ هل تسمع موسيقى الأمواج التي تداعبها؟ فلنعبر دون أن نسبر الهوّة التي يعرضها علينا اتحاد كون مادي مع كون روحي: خَلْق مرئي، قابل للقياس، محسوس؛ ينتهي بخلق غير محسوس، وغير مرئي، وغير قابل للقياس؛ والاثنان متباينان كلياً، متباعدان بالعدم، مجتمعان بتوافقات صريحة، متلاقيان في كائن ينتمي لأحدهما كما للآخر! فلندمج في عالم واحد هذين العالمين المتنافرين بالنسبة لفلاسفتكم، المتوافقين في الواقع.

إن العلاقة التي تربط بين شيئين، أيّاً كان التجريد الذي يفترضه الإنسان فيها تشمل سمة ما. أين؟ على ماذا؟ نحن لسنا هنا في مجال التفتيش إلى أيّة نقطة من التدقيق يمكن أن تصل المادة. ولو كان هذا هو الموضوع، فأنا لا أرى لماذا لم يقم من حبك الكواكب بعلاقات فيزيائية ضمن مسافات لا قياسية ليصنع منها غلالة لا يستطيع أن يخلق عناصر مفكرة، ولماذا تحرمونه من القدرة على أن يمنح جسداً للفكرة[1]؟

إذا فكونكم المعنوي غير المرئي، وكونكم الفيزيائي المرئي يشكلان ذات المادة الواحدة. فنحن لن نفصل أبداً بين الخواص والأجسام، ولا بين الأشياء والعلاقات. فكل ما هو موجود، وما يضغط علينا، وما يرهقنا؛ فوقنا وتحتنا

---

(١) -الفكرة ذاتها في لويس لامير: في هذا النهج لا يفقد الله أيا من حقوقه. فالفكرة المادية قد قصّت عليّ كبراً جديداً، وماذا يفيد الله أن يكون العنصر مفكراً، كما يرد لدى مؤلف مقال بروسيه الذي ذكر في ملاحظة سابقة: «أن نقول أن الفكر هو نتيجة فعل وإثارة الجهاز العصبي لا يعني تهديم الروح، وإنما هو الاعتراف بطراز آخر من الوجود لها غير ذلك الذي اتفق على منحها اياه وفي غياب كل امتحان مسبق. كما أننا لا نهدّم خلودها إن اعترفنا أن عضويتها ناتجة عن قوانين عامة وخالدة في الطبيعة. «أن ننسب إلى العضوية القدرة على أن تمنح للقوى الخفيّة في الطبيعة الاحساس بوجودها لا يعني تقليلاً من شأن الله ولا الروح وإنما بكل بساطة الاعتراف بما نحن».

إذا فموقف بلزاك ليس مبتكراً وإنما مستمد من مواقف الطبيعيين في زمنه الذي قبلوا وجود الله. وسيرد فيما بعد تصريح لسرافيتا تقول فيه: «بتسميتنا الله خالقاً فإننا ننتقص منه...».

وأمامنا، وفينا، ماتراه أعيننا وما تلاحظه أفكارنا، كل هذه الأشياء المسماة وغير المسماة تشكّل، -لتكييف مشكلة الخلق على قياس منطقكم- كتلة مادة نهائية ولو كانت لا نهائية. لما كان الله هو السيّد.

لا يمكن هنا، بالنسبة إليك يا عزيزي القسّ، وأيا كانت الطريقة التي يُمَزجُ فيها الله اللا نهائي بهذه الكتلة من المادة المنتهية؛ أن يوجد الله بالخاصيّات التي يقلده الانسان بها. فإن طلبناه بالوقائع فهو عدم، وإن طلبناه بالمحاكمة فهو عدم أيضاً: فروحياً ومادياً، يغدو الله مستحيلاً. فلنستمع إلى كلمة العقل البشري مكثّفاً في نتائجه الأخيرة.

«إذا وضعنا الله وجهاً لوجه مع هذا الكلّ الكبير، فليس بينهما إلا حالتان ممكنتان: المادة والله متعاصران، أو أن الله سابق في الوجود وحده على المادة [1]، إذا افترضنا أن العقل الذي يهدي السلالات البشرية، منذ بدء وجودها، قد تراكم في رأس واحد، فهل يمكن لهذا الرأس العملاق أن يبتكر طريقة ثالثة للوجود إلا إذا حذف المادة والله؟ ومهما جمع الفلاسفة الانسانيون من جبال الكلمات والأفكار، ومهما راكمت الديانات من الصور والمعتقدات والتكشفات والأسرار، فعلينا أن نصل إلى هذه المعضلة الرهيبة وأن نختار أحد الاقتراحين اللذين يشكلانها؛ ولكن ليس عليكم الاختيار، فكلاهما يقودان العقل البشري إلى الشك فالمشكلة المطروحة ستكون: ما أهمية الروح والمادة؟! ما أهمية السير بالعوالم في هذا الاتجاه أو ذاك،

---

(١) - تعرّض بلزاك مرات عديدة لمشكلة خلق العالم بطرح قضايا الصدفة، أو شراكة المادة في الأزليّة، أو أسبقية الخالق، أو ترتيب العالم المعنوي أو وجود الشرّ الذي لا تفسره لا أحدية الوجود ولا المانويّة (الصراع بين النور والظلام). وموضوع كون خالد أثير في تعليق «للأستاذ ماتريكنت» في فالثورن، كما أن ملاحظة فلسفية تحضيرية في ستيني تطرح معضلة خلق معاصر لله أو لاحق له، وتترافق المناقشة بنقد للفلسفات والديانات السابقة والتمثيلات التي تطرح عن الله، وفي رسالة إلى شارل نوديه يرفض بلزاك: «جميع اللاهوتيّات الماضية والحاضرة والمستقبلة» كما أن لويس لامبر في رسالته لعمه يبرّر عودته لسويدنبرغ بنقد المسيحية ثم يشحذ نقده للفلسفات العقلية، في ذات الوقت الذي يعدّد فيه جميع الاعتراضات التي ينبغي دحضها والتي تعالجها بدقة سرافيتا.

ما دام الكائن الذي يقودها مقتنع باللامعقولية؟ ما فائدة البحث في أن يكون الإنسان متقدماً نحو السماء أو عائداً منها، أو إن كان الخَلْق يرتفع نحو الروح أو يهبط نحو المادة حين لا تعطي العوالم المستجوبة أي ردّ؟ ما معنى دراسات نسب الآلهة وجيوشهم؟ وماذا تعني اللاهوتيات ومبادئها؛ في اللحظة التي لا يعود فيها الله موجوداً أيّاً كان اختيار الإنسان بين وجهي المشكلة؟ فلنستعرض الوجه الأول؛ ولنفترض الله معاصراً للمادة؟ أهو إله من يتحمل تأثير عنصر غريب عنه في الوجود أو مشاركته؟ ألا يغدو الله، ضمن هذا المنهج، عاملاً ثانوياً ملزماً بتنظيم المادة؟ ومن يلزمه؟ ومن عسى أن يكون الحكم بينه وبين رفيقته الفظة؟ من يسدّد إذا أجر الأيام الستة المعزوّة إلى هذا الفنان الكبير؟ إن وجدت قوة ما حاسمة، ليست هي الله ولا المادة؛ وبرؤية الله منشغلاً بصنع ماكنة العوالم، فإن من السخرية تسميته الله، كما كان من السخرية تسمية العبد الذي يدير الرحى في رومة مواطناً رومانياً. كما تبرز مشكلة يصعب حلّها على هذا العقل السامي كصعوبتها بالنسبة لله. أليست إحالة المشكلة إلى ما هو أعلى كطريقة الهنود في أسطورة الخلق: يضعون العالم على ظهر سلحفاة والسلحفاة على ظهر فيل؛ لكنهم لم يستطيعوا أن يحدّدوا أين تستقر أقدام الفيل؟ أيمكن لهذه الإرادة الفائقة السمو المنبثقة من صراع المادة والله، ايمكن لهذا الله، الأكثر من الله، أن يبقى خلال أزل دون أن يرد ما أراده، هذا إن قبلنا أن الأزل يمكن أن ينقسم إلى أزلين؟ واينما كان الله، ألا يتلاشى عقله الحدسي اذا لم يعرف فكرته اللاحقة؟! وأي هذين الأزلين سيكون على حقّ إذا؟ أهو الأزل غير المخلوق أو الأزل المخلوق؟ إن كان قد شاء على الدوام، أن يكون العالم كما هو، فإن هذه الضرورة الجديدة، وهي المتناسقة أصلاً مع فكرة العقل السيّد، تستتبع شراكة المادة في الأزلية. وسواء كانت المادة شريكة في الأزلية بإرادة إلهية مماثلة لذاتها بالضرورة في كل زمن، أو كانت المادة شريكة في الأزلية بحدّ ذاتها، فإن قدرة الله، المتوجب أن تكون مطلقة، تتلاشى مع حرية اختياره. وسيجد في ذاته على الدوام سبباً جازماً يهيمن عليه. أيكون الله وهو لا يستطيع أن ينفصل عن خلقه في أزل سابق أو لاحق؟ أيكون هذا الوجه من المشكلة غير قابل

للحلّ في سببه؟ فلنفحصه في نتائجه. إذا كان الله الملزم بخلق العالم منذ الأزل، يبدو غير قابل للتفسير، فإنه أيضاً كذلك مع ترابطه المستمر بعمله؛ ان الله الملزم بأن يعيش أزلياً في اتحاد مع خلقه، فهو أيضاً منتقص كما في شرطه الأول كعامل. أتتصورون الهاً لا يمكنه أن يكون مستقلاً بقدر ما هو غير مستقلٍ بخلقه؟ هل يمكنه أن ينقضه دون أن يجرّح ذاته؟ افحصوا، واختاروا! أن ينقضه يوماً، أو لا ينقضه أبداً. كل من الحالتين مشؤومة بالنسبة للخاصيات التي لا يتحقق وجوده دونها. هل الكون تجربة، هل هو شكل بائد سيحل به التهديم؟ألا يعتبر الله غير منطقي وعاجزاً؟ غير منطقي، ألا ينبغي أن يعرف النتيجة قبل التجربة، فلماذا يتأخر في تحطيم ما سيتحطم؟ عاجز: هل كان عليه أن يخلق كوناً ناقصاً؟. إذا كان الخلق الناقص يناقض القدرات التي يمنحها الإنسان لله، فلنقلب المسألة إذاً! لنفترض الخلق تاماً. الفكرة في انسجام مع فكرة إله ذكي بشكل لا يمكن أن يخطىء فيه بشيء؛ إذا فلماذا التقهقهر؟ ولماذا التجدُّد؟ ومن ثمّ فالعالم الكامل هو بالضرورة غير قابل للنقض، وأشكاله لا ينالها البلى فهو عالم لا يتأخر ولا يتقدّم أبداً، وهو يدور في دائرة أزلية لايخرج منها أبداً! فالله سيكون سيكون مرهونا بعمله فهو مشاركه في الأزلية إذاً! وهذا ما يعود بنا إلى إحدى الاقتراحات التي تطعن في الله. العالم غير الكامل يقبل السير والتقدم، والعالم الكامل مستقر. إذا كان من المتعذر قبول إله متدرج، لا يعرف منذ الأزل نتيجة خلقه، فهل يمكن وجود إله ثابت؟ أليس في هذا نصر للمادة؟ أليس هذا أكبر الإنكارات جميعها؟ في الفرضية الأولى، الله يتلاشى بالضعف؛ وفي الفرضية الثانية يتلاشى بقوة القصور الذاتي. وهكذا ففي تصورّ العوالم كما في تنفيذها، يعتبر افتراض المادة معاصرة لله لكل فكر حسن النية انكاراً لله. وأجيال كاملة من كبار المفكرين، الذين قسروا على اختيار أحد وجهي المشكلة لحكم الأمم فآثروا هذا الوجه. ومن هنا عقيدة المبدأين للشعوذة، التي مرّت من آسية إلى أوروبة في شكل الشيطان الذي يجابه الأب الأزلي. لكن أليست هذه الصيغة الدينية، والتأليهات العديدة المشتقة منها جرائم قدح في الذات الالهية؟ أي اسم آخر يمكن أن نعطي للمعتقد الذي يضع أمام الله

منافساً في الشر المشخّص، وهو أزلياً تحت جهود عقله الكليّ القدرة دون أي انتصار ممكن؟ إن توازنيتكم السكونية تقول إن قوّتين تتجابهان هكذا تنعدمان بالتبادل.

أتتحولون إلى الوجه الثاني من المشكلة؟ إن الله سابق للوجود وحده وبمفرده:

لن نكرر مجموعة الأدلة السابقة التي تعود بكل قوتها المتعلقة بانشقاق الأزل إلى زمنين: الزمن غير المخلوق والزمن المخلوق ولنترك أيضاً القضايا التي أثارها سير العوالم أو سكونها. ولنكتف بالصعوبات المرتبطة بهذه المقولة الثانية:

إذا كان الله سابق في الوجود وحده، فالعالم انبثق منه، والمادة إذا مأخوذة من خلاصته. إذاً لا مادة! وجميع الأشكال حجب تختفي تحتها الروح الإلهية. وعند ذاك فالعالم ازلي؛ أي أن العالم هو الله! أليست هذه الفرضية أكثر شؤماً من سابقتها فيما يتعلّق بالخاصيات المسبغة على الله من قبل العقل الإنساني؟ أتكون الحالة الراهنة للمادة، الخارجة من صميم الله، المتحدة به دوماً، قابلة للشرح هكذا؟ كيف يمكن الاعتقاد أن القادر على كل شيء الطيب للغاية في روحه، وفي قدراته، يمكن أن يولّد أشياء متباينة، ليست في كل شيء، وفي كل مكان مماثلة لذاتها؟ هل كان فيه إذاً أقسام سيئة عمد إلى التخلّص منها يوماً؟ رَجْم هو أكثر رهبة منه قَدْحاً أو إثارة للسخرية؛ لأنه يتضمن في ذاته العودة إلى هذين المبدئين اللذين برهنت الفرضية السابقة أنهما غير مقبولين. يجب أن يكون الله واحداً؛ لا يمكن أن يتجزأ دون التخلّي عن أهم شروطه، من المستحيل اذن القبول بجزء من الله ليس هو الله؟ هذه الفرضية بدت مجرمة في نظر الكنيسة الكاثوليكية إلى حدٍّ جعلت فيه كليَّة الوجود قسما من العقيدة الدينية في أقل قسيمات الأوخاريستيا (سرّ القربان المقدس). كيف يمكن إذاً افتراض عقل كلي الوجود لا ينتصر؟ كيف نضيفه، دون انتصار مباشر إلى الطبيعة؟ وهذه الطبيعة تبحث، وتدبّر، وترمّم، وتموت، وتولد ثانية؛ وهي تتحرك عندما تخلُق أكثر منها عندما ينصهر كل شيء؛ فهي تتألّم، وتتنهد، وتجهل، وتنحلّ، وتحدث الضرر، وتنخدع، وتبطل، وتختفي، وتبدأ من

جديد؟ كيف نبررّ الإنكار شبه العام للمبدأ الالهي؟ ولِمَ الموت؟ ولِمَ عبقرية الشر؟ وهل تولّد هذا الملك الأرضي من قبل إله كلّي الطيبة في عنصره كما في قدراته؟ ألا يجب ألاّ ينتج إلاّ ما هو متلائماً مع ذاته؟ ولكن إذا انتقلنا من هذه النتيجة القاسية، التي تؤدي بنا أولاً إلى اللا معقول، وبحثنا في التفاصيل، فأيّة نهاية يمكن أن نخصّ بها العالم؟ إذا كان الكلّ هو الله، فالكلّ بالتبادل نتيجة وسبب، أو بالأحرى لايوجد سبب ولا نتيجة: الكلّ واحد كالله، ولا تلاحظون نقطة انطلاق ولا نقطة وصول، أتكون النهاية الحقيقية دوران المادة المنطلقة كالإختلاس؟ وأيّاً كان اتجاهها ألا تكون كلعبة الأطفال آلية هذه المادة التي تخرج من الله لتعود إلى الله؟ ولماذا تبدو فظّة؟ وبأي شكل يكون الله أكثر ألوهية؟ أيّهما على حق، المادة أو الروح عندما لايكون أي النمطين على خطأ؟ من يمكنه أن يتعرف على الله في هذه الصناعة الخالدة التي يقسم فيها ذاته إلى طبيعتين، إحداهما لا تعرف شيئاً، والأخرى تعرف كل شيء؟ أتتصورون الله وهو يتسلى بذاته على شكل انسان؟ فيضحك من جهوده الخاصة، ويموت الجمعة ليبعث الأحد، ويتابع هذه المهزلة من قرن إلى قرن، وهو يعرف نهايتها منذ الأزل؟ فلا يقول شيئاً لنفسه كمخلوق، عما يفعله كخالق؟ إن الله في الفرضية السابقة، هذا الاله المنعدم بقدرة قصوره الذاتي يبدو أكثر احتمالاً، إذا كان لا بد من الأختيار في المستحيل، من هذا الله الآخر الساخر ببلاهة الذي يقتل نفسه، عندما يتواجه قسمان من الإنسانية والسلاح في أيديهما. وأيا كان المظهر الهزلي في هذا التعبير السامي للوجه الثاني من المشكلة، فإن نصف الجنس البشري قد تبناها لدى الأمم التي خلقت لنفسها ميتولوجية ضاحكة. هذه الأمم المحبّة كانت منطقية: كل شيء عندها كان الله، حتى الخوف وتخاذلاته، حتى الجريمة وعربداتها. بقبول الأحدية[1]، مذهب بعض كبار العبقريات البشرية، من عاد يعرف أين موقع العقل؟ أهو لدى المتوحش، الحرّفي صحرائه، المتسربل بعريه، المتسامي والعادل دائماً في تصرفاته أيّاً كانت، يستمع إلى الشمس، يتحدث مع

(١) - الأحدية: Panthéisme: أو الحلولية أو وحدة الوجود: مذهب يقول بأن الله والطبيعة شيء واحد.

البحر؟ أم هو لدى الإنسان المتحضر الذي لا يجد ملذاته الكبرى إلا في الأكاذيب؛ الذي يلوي الطبيعة ويعتصرها ليضع بندقية على كتفه، الذي استغلّ ذكاءه ليقدم ساعة موته، وليخلق أمراضاً في جميع مسراته؟ عندما يمرّ ممشاط الطاعون أو سكة الحرب، ويجتاح جنّي الصحارى زاويةً من الأرض يمسح منها كل شيء، فلمن تكون الغلبة؟ لمتوحش النوبة، أم لحكم طيبة؟ إن شكوككم تهبط من أعلى إلى أسفل، فتحيط بكل شيء، بالغاية وبالوسائل. إذا كان العالم الفيزيائي يبدو غير قابل للتفسير، والعالم المعنوي يبرهن عما هو ضد الله. فأين يكون التقدّم إذا؟! إذا كان كل شيء يسير إلى الكمال، فلماذا نموت أطفالا؟ لماذا لا تخلد الأمم على الأقل؟ والعالم المتحدّر من الله، والمحتوى في الله، هل هو ثابت؟ هل نحيا مرة أخرى؟ هل نحيا دائماً، إذا كنا نحيا مرّة مزحومين بسير الكلّ الكبير الذي لم تعط لنا معرفته. فلنتصرف كما نرغب! إن كنا خالدين، فلنساير ذلك! هل يكون المخلوق مذنباً وإن وجد في فترة المراحل الانتقالية؟ إذا أخطأ في لحظة التحوّل الكبير، فهل يعاقب بعد أن كان الضحية؟ ماذا تغدو الطيبة الالهية إن لم تضعنا مباشرة في المناطق السعيدة إن وجدت؟ ماذا سيغدو كَشْفُ الله إن كان يجهل نتيجة التجارب التي يُخضعنا لها؟ وما هذا الخيار المعروض على الانسان من قبل جميع الديانات ليذهب والغليان دخل مرجل خالد، أو ان يتجول في برداء أبيض، وسعفة في يده، وهالة تزنر رأسه؟ أيمكن أن يكون هذا الابتكار الوثني آخر كلمة لإله؟! ألا تجد كل روح شهمة أن من غير الجدير بالانسان و بالله، تلك الفضيلة المشروطة التي تفترض خلوداً من المسرّات، مقدّما من جميع الأديان لمن يملأ خلال بضع ساعات من وجوده، بعض الشروط الغريبة والتي هي غالباً ضد الطبيعة؟ أليس مثيراً للسخرية أن يعطى الإنسان أحاسيس حادة، ويمنع عنه إشباعها؟ ومع ذلك، فما فائدة هذه الاعتراضات إذا ألغي الخير والشر كلاهما؟! هل للشر وجود؟ إذا كان العنصر بجميع أشكاله هو الله، فالشرّ هو الله! إنّ القدرة على المحاكمة كالقدرة على الحس أعطيت للانسان لاستخدامها، وما من شيء جدير بالغفران اكثر من البحث عن معنى الآلام الانسانية والسؤال عن المستقبل، وإذا كانت هذه

المحاكمات المباشرة والدقيقة تقود إلى هذا الاستخلاص، فأي غموض! فهذا العالم ليس له أي ثبات إذاً: فلا شيء يتقدّم ولا شيء يتوقفّ. كل شيء يتبدّل، ولا شيء يتهدّم، كل شيء يعود بعد أن يترمم، فإن كان عقلكم لم يظهر لكم بدقة نهاية ما، فمن المستحيل أيضاً أن يبرهن على فناء أقل قسيمة من المادة: يمكنها أن تتحوّل لكنها لا تفنى. وإذا كانت القوة العمياء تغلّب الملحد، فإن القوة العاقلة غير قابلة للتفسير، لأنها وهي المنبثقة من الله؛ يجب ألا تصادف عقبات؛ ألا يجب أن يكون انتصارها مباشراً؟ أين هو الله؟ إذا كان الأحياء لا يلاحظونه، فهل يعثر عليه الموتى؟ تقوّضي يا عبادات الأوثان؛ ويا أيتها الأديان! اسقطي أيتها المفاتيح الضعيفة لجميع القباب الاجتماعية التي لم تؤخّر سقوط جميع الأمم الماضية، ولاموتها، ولانسيانها، أيّاً كانت القوة التي تأسست عليها. اسقطي أيتها الأخلاقيات والعدالات، فجرائمنا نسبيّة تماماً؛ وهي تأثيرات إلهية، ولا نعرف أسبابها! الكلّ هو الله، أو نحن الله، أو أن الله غير موجود؛ يا ابن القرن الذي وضعت كلّ سنةٍ على جبينك جليد شكوكها، أيّها العجوز! تلك هي خلاصة علومكم، وخلاصة تأملاتكم الطويلة. عزيزي السيد بكر؛ وضعت رأسك على وسادة الشكّ، لأنك وجدت فيها الحل الأكثر ملائمة من جميع الحلول، متصرّفاً هكذا كمعظم الجنس البشري الذي يقول في نفسه: «لندع التفكير في هذه المشكلة، ما دمنا في فترة لم ينعم فيها الله علينا بهبة برهان جبري لحلّها، بينما منحنا الكثير للانطلاق بثقة من الأرض إلى الكواكب». أليست هذه هي أفكارك الحميمة؟ هل زغت عنها؟ أم أنني، بالعكس، زدت من إبرازها؟ لنفرض عقيدة المبدأين: التضاد حيث الله يتلاشى بهذه القدرة الكليّة نفسها التي يتسلّى بمصارعتها، أو الأَحَدِيّة[1] العبثية حيث كل شيء هو الله، حتى لم يعد الله موجوداً: «هذان المصدران اللذان تنتج عنهما الديانات التي استخدمت الأرض لنصرتها، كلاهما مؤذ ها قد ألقيت بيننا الفأس ذات الحدّ المضاعف التي تقطعون بها رأس هذا العجوز الأبيض المتوّج

(١) الأَحَدِيّة: Panthéisme: أو الحلولية أو وحدة الوجود: المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وبأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الألهية.

من قبلكم فوق عرش السحب؛ والآن فإن الفأس لي!» نظر السيد بكر وولفرد إلى الفتاة بنوع من الذعر.

استأنفت سرافيتا تقول بصوت امرأة بعد أن كانت تتكلّم بصوت الرجل:

«الإيمان هبة، الإيمان إحساس، لكي نؤمن بالله علينا أن نحسّ به، وهذا الإحساس هو خاصة تكتسب ببطء من قبل الكائن كما تكتسب القدرات المدهشة التي تعجبون بها لدى عظماء الرجال، لدى المقاتلين، والفنانين، والعلماء، لدى أولئك الذين يعرفون، وأولئك الذين ينتجون، وأولئك الذين يتحركون. والفكر حزمة علاقات تلاحظونها بين الأشياء، وهو لغة عقلية يتعلمها المرء؛ أليس كذلك؟ والإيمان الذي هو حزمة حقائق سماوية، لغة أيضاً، لكنه أسمى من الفكر كما أن الفكر أسمى من الغريزة. وهذه اللغة تتعلم. فالمؤمن يجيب بحركة واحدة، وبصرخة واحدة، فالإيمان يضع في يده سيفاً برّاقاً يقطع به كل شيء ويضيء له كل شيء. المستبصر لا ينزل مجدداً من السماء، إنّه يتأملّها ويصمت. وهناك مخلوق يؤمن ويستبصر يعرف ويقدر، يحب ويرجو وينتظر. وهو مستسلم، يطمح إلى مملكة النور، ليس فيه ازدراء المؤمن، ولا صمت المستبصر، إنه يستمع ويجيب؛ بالنسبة له ليس شك القرون المظلمة سلاحاً قاتلاً، إنما خيط موجّه؛ إنه يقبل المعركة بجميع أشكالها، ويطوّع لسانه لجميع اللغات، ولا يحتدّ وإنما يشفق، لا يدين ولا يقتل انساناً، بل ينقذ ويواسي. ليس له فظاظة المعتدي، إنّما حلاوة ورقة النور الذي ينفذ، ويدفئ ويضيء كلّ شيء. ليس الشكّ في عينيه إلحاداً ولا تجديفاً ولا جريمة، وإنّما انتقال حيث يرتدّ الإنسان إلى خطواته في الظلمات أو يتقدم نحو النور. هكذا إذاً يا عزيزي القسّ. فلنعلّل: إنّك لا تؤمن بالله لماذا؟ إن الله بالنسبة إليك مبهم. أوافقك [1]؛ وأنا لا أقول لك إن فهم الله كلياً يجعلك إلهاً، ولا أقول لك أن ترفض ما يبدو لك غامضاً لإعطائي الحق بتأكيد ما يبدو لي قابلا للإيمان.

---

(١) – يضيف بلزاك إلى مذهب سويدنبرغ «الإبهامية» وهي تأكيد ثابت لدى الغنوصيين فالله بالنسبة لهم «كل – الآخر» و «الله الذي لااسم له» و «الكائن فوق الكائن» الخ...

هناك حقيقة بديهية موجودة في ذاتك. في رأيك أن المادة تنتهي إلى العقل، وتعتقد أن العقل البشري ينتهي إلى الظلمات، وإلى الشك، وإلى العدم؟! إذا كان الله يبدو لك مبهماً غامضاً، اعترف على الأقل أنك ترى في كلّ شيء فيزيائي صرف عاملاً سامياً منطقياً، فلماذا يتوقف منطق الله عند الإنسان، مخلوقه الأكثر اكتمالاً؟ إذا كان هذا السؤال ليس مقنعاً، فإنه يستحق بعض التأملاّت على الأقلّ. إذا كنت تنكر الله، فإنك لحسن الحظ، ومن أجل توطيد شكوكك، تعترف بوقائع ذات حدّ مضاعف تقتل محاكماتك بقدر ما تقتل هذه المحاكمات الله لديك.

سلّمنا كذلك بأن المادة والروح خَلْقان لا يفهم أحدهما الآخر مطلقاً، إن العالم الروحي يتألف من علاقات لا نهائية يعطيها له العالم المادي المنتهي. وأنه إذا لم يكن أحد على هذه الأرض يتمكن في أن يتطابق في قدرة عقله مع مجموعة المخلوقات الأرضية فالأحرى ألا يتمكن أحد من أن يرتفع إلى معرفة العلاقات التي يلاحظها العقل بين هذه المخلوقات. وهكذا نستطيع أن ننتهي دفعة واحدة إلى نفي قدرتك على فهم الله، كما تنفي عن حصى الفيورد القدرة على أن تعدّ نفسها او تراها أتعلم أنها لو لم تنكر الإنسان هي بدورها، لما أمكن له أن يستخدمها في بناء منزله؟.

هنالك واقع يسحقك انه اللانهاية، فإذا كنت تشعر بها في داخلك، فكيف لا تقبل نتائجها؟ هل يمكن للمنتهي أن يحصل على معرفة كاملة للا منتهي؟ إذا لم تتمكن من الإحاطة بالعلاقات التي هي باعترافك لا متناهية فكيف يمكنك أن تحيط بالنتيجة البعيدة التي تُجملها. إن النسق الذي يعتبر تجليه أحد حاجاتك لا متناه؛ فهل يمكن لإدراكك المحدد فهمه؟ ولا تسأل لماذا لا يفهم الانسان كله ما يمكن أن يلاحظه، لأنه يلاحظ أيضاً ما لا يفهمه. وإذا برهنت لك أن عقلك يجهل كلّ ما هو في متناوله، فهل توافقني على أن من المستحيل عليه أن يلاحظ ما يتجاوزه؟ ألا أكون على حقّ عندئذ في أن أقول لك: إن كان أحد الحدود الذي يتلاشى الله بموجبه أمام محكمة عقلك يمكن أن يكون صحيحاً، فالآخر خاطىء. بوجود الخلق

تشعر بضرورة غاية له. ألا ينبغي أن تكون هذه الغاية جميلة؟ والحال، إذا كانت المادة تنتهي في الإنسان بالعقل، فلماذا لا ترضى بأن تكون نهاية العقل الإنسان هي بداية نور المستويات الاسمى المختزن بها حدس هذا الله الذي يبدو لك مشكلة غير قابلة للحل؟ أليس للأنواع التي هي أدنى منك إدراكها عن العوالم، ولك ادراكك، فلماذا لا تكون في مستو أعلى منك أنواع أكثر إدراكا منك؟ وقبل أن يستخدم الانسان قدرته لقياس الله، أليس عليه أن يكن أكثر وعياً لانه لا يستطيع قياس نفسه؟ وقبل أن يهدد الأنجم التي تضيئه، ويهاجم اشكال اليقين البعيدة في ارتفاعها، اليس عليه التثبت من اشكال اليقين التي تلامسه؟ لكن على انكارات الشك، عليَّ أن أجيب بإنكارات. الآن إذاً، أسألك إن كان في هذه الدنيا شيء ما، على قدر من البداهة بنفسه يمكنني أن أزيدك به إيماناً؟ وفي لحظة سأبين لك بأنك تؤمن بشكل وثيق بأشياء تتحرك وهي ليست كائنات، وتولّد الفكر وليست عقولاً، تؤمن بمجرّدات حيّة لا تصمد بأي شكل أمام الإدراك، ولا وجود لها وتعتقد أنها في كل مكان؛ لا اسم لها، وقد أعطيتموها أسماء؛ مماثلة لله الذي تصورتموه بالجسد وهي تتلاشى أمام المبهم والغامض واللا معقول. وسأسألك كيف تتبنى هذه الأشياء وتحتفظ بشكوكك تجاه الله. إنّك تؤمن **بالعدد** أساساً تقيم عليه بناء العلوم التي تسميها صحيحة، دون العدد لا توجد رياضيات. لا بأس وأيّ كائن غامض هذا الذي منح القدرة على العيش الدائم يستطيع أن ينهي النطق، وبأيّة لغة فورية ينطق ذلك العدد الذي يحتوي الأعداد اللا متناهية التي برهن لكم فكركم على وجودها؟ اطلبوا إيضاحاً من أذكى العبقريات البشرية، سيجلس لألف عام الى طاولة ورأسه بين يديه، بماذا سيجيبكم؟ لن تعرفوا أين يبدأ العدد وأين يتوقف، ومتى سينتهي. هنا تسمونه الزمان، وهناك تسمونه المكان، لا شيء يوجد إلا به، دونه كل شيء يغدو العنصر الوحيد ذاته، فهو وحده الذي يميّز ويصف. والعدد بالنسبة لعقلكم كما هو بالنسبة للمادة عامل مبهم؛ أتجعلون منه إلهاً؟ أهو كائن؟ أهو نسمة انبعثت من الله لتنظم العالم المادي حيث ما من شيء يأخذ شكله إلا

بالانقسامية وهي في الواقع عدد؟ ألاتتميّز أصغر المخلوقات كما أكبرها؛ فيما بينها بكمياتها ومواصفاتها وأبعادها، وقواها، بكلّ الخواص المتولّدة من العدد؟ اللامتناهي من الأعداد واقع برهن عليه عقلكم، دون توفر أي دليل مادي عليه. الرياضي يقول لكم إن اللا متناهي من الأعداد موجود، ولا يبرهن عليه. «إن الله، يا عزيزي القس، عدد وهُبَ حركة، يحسُّ به المرء ولا يبرهن عليه، كما يقول لك المؤمن، ويبدأ كالوحدة أعداداً لا رابطة بينها. إن وجود العدد يتعلق بالوحدة، التي دون أن تكون عدداً، تولّدها جميعاً. إن الله يا عزيزي القس، وحدة رائعة لا رابطة مشتركة لها مع مخلوقاتها وهي مع ذلك تولّدها [1]. إنّك توافق معي بأنك تجهل أين يبدأ العدد وأين ينتهي؛ مثلما تجهل أين يبدأوأين ينتهي الأزل المخلوق؟ إذا كنت تعتقد بوجود العدد، فلِمَ تنكر وجود الله؟ أليس الخلق موضوعاً بين اللا متناهي من العناصر غير المنظمة واللا متناهي من الآفاق الالهية، كما الوحدة قائمة بين اللامتناهي من الكسور التي سميتموها منذ فترة قريبة عشرية واللا متناهي من الأعداد التي تسمونها صحيحة؟ أنتم وحدكم على الأرض تفهمون العدد، هذه الدرجة الأولى من الواجهة المعمدّة التي تقود إلى الله، وقد زلّ عقلكم فيها. إيه! ماذا؟ إنكم لا تستطيعون أن تقيسوا التجريد الأول الذي سلمكم إياه الله ولا أن تستوعبوه، وتريدون أن تخضعوا لقياسكم غايات الله [2] ماذا سيكون وضعكم إن

(١) - يؤسس بلزاك برهانه على دليل خاص، وهو يستنتج من لا نهائية الأعداد، اللا نهائية الالهية وهو بإعطائه للدليل الرياضي أسراراً خفية على طريقة سويدنبرغ، يحدّد الله ليس وفق شكل تجسيمي، إنّما وفق شكل كوسمولوجي (كوني)، فهو عدد وهب حركة، وهو الوحدة التي تولد الأعداد أي جميع المخلوقات، وهذه فكرة قديمة فيثاغورية تناولها الغنوصيون ففي كتاب ج. ماتر (التاريخ التحليلي للغنوصية) ورد «أترون أن الأعداد وهي منبثقة جميعاً من عدد أولي تشبهه وتتركب من عنصره بينما تتغير حتى اللا نهاية».

(٢) - يكتب بلزاك في رسالة للسيدة هانسكا «من الغريب ألا ترى سرافيتا ملؤها الايمان، الإيمان يؤكد، وكل شيء قد قيل بالنسبة لها. فالملاك قد نزل من عليائه ليأتي إلى وسط مماحكات الجدل وهو يقارع الحجة بالحجة، وليس جديراً به ألا يصوغ الشك وما من مؤلف - وإن أفعم قداسة يمكنه أن يبرهن عن وجود الله بمثل هذه القوة. إنّ البرهان المستمد من لا نهاية الأعداد قد ادهش العلماء، فأحنوا له رأسهم، هذا يعني مقارعتهم في ميدانهم وبسلاحهم (من رسالة في نهاية حزيران ١٨٣٦).

غصت بكم في لجج الحركة، هذه القوة التي تنظم العدد؟ وهكذا فعندما سأقول إن الكون ليس إلا عدداً وحركة، ترون أننا نتكلم لغة مختلفة. إنني أفهم الواحد والآخر، وأنتم لم تدركوهما ألبتة. ماذا سيكون الأمر لو أضفت أن الحركة والعدد متولّدان من كلام الله [1]؟ هذه الكلمة السبب السامي للمستبصرين والانبياء الذين سمعوا سابقاً نسمة الله التي سقط تحتها القديس بولس. أنتم تسخرون منها. مع أن جميع نتاجكم كبشر: أعمالكم المرئية، ومجتمعاتكم، وأوابدكم. وعقودكم، وعواطفكم منبثقة عن كلمة ضعيفة منكم، وأنكم لولا الكلام لكنتم أشبه بذلك التمثال من الخشب المماثل لزنجي. أنتم تعتقدون بيقين بالعدد وبالحركة. قوة ونتيجة غامضتين مبهمتين. يمكن أن أضيف لوجودهما المعضلة ذات الحدين التي أعفتكم منذ قليل من الاعتقاد بالله.

وأنت، أيها المبرهن القدير، ألا تعفيني من التدليل على أن اللانهائي يجب أن يكون مماثلاً لذاته في كل مكان فهو بالضرورة واحد. الله وحده لانهائي، إذ من المؤكد أنه لا يمكن وجود لا متناهيين اثنين. وإذا أردنا أن نستخدم الكلمات البشرية، فاذا بدا لك أي شيء يبرهن عليه في هذا العالم بمظهر لا متّناهٍ فتأكد من أنك تستشف فيه من وجود الله. لنتابع. انتحلتم لأنفسكم مكاناً في اللا متناهي من

---

(١) - يأخذ الثالوث الالهي هنا صيغة خفية، وقد فصل بلزاك مرات عديدة في الأعداد، الثلاثة هي صيغة العوالم المخلوقة. . . والاثنان هو عدد التكوّن. الثلاثة عدد الوجود وهو يشمل التكون والناتج فإذا أضفنا الأربعة نتجت السبعة وهي صيغة السماء، والله فوق، انه الوحدة (لويس لامبر) هناك ستصادفون الثلاثية الخفية، التي جثت أمامها في كل الأزمنة: «الإنسانية، والمادة الأوليّة والوسيلة والنتيجة» (رواية البحث عن المطلق). . . العدد ثلاثة هو صيغة الخَلْق: المادة، والحركة والناتج (رواية حول كاترين دي مديسي). هو أي شيء أكثر انسجاماً مع أفكارنا عن الله من الاعتقاد بأنه فعل كل شيء بالوسيلة الأكثر بساطة؟ التدلّه الفيثاغوري بالرقم واحد الذي تشتق منه كل الأعداد، والممثل للمادة الواحدة، ثم العدد اثنان أول تجمع ونموذج التجمعات الأخرى جميعها، والرقم ثلاثة الذي صور الله في جميع الأزمنة وهو يعني المادة، والقوة والناتج، ألا تختصر تقليدياً المعرفة المبهمة بالمطلق؟ ألم تكن بالنسبة لستال وباراسلس وبيشر وأغريبا، وجميع الباحثين الكبار في علوم السحر والتنجيم كلمة سرّ هي «العظيم ثلاثة» (من رواية البحث عن المطلق).

العدد، ولاءمتم له على قياسكم مكانا خلقتموه - إن كان لكم أن تخلقوا من شيء - هو الرياضيات - الأساس الذي يستند عليه كل شيء - حتى مجتمعاتكم. وكما قام العدد - وهو الشيء الوحيد الذي قام به كفّاركم المزعومون - بتنظيم الخَلْق الفيزيائي. قامت الرياضيات مُستَخدمة العدد، بتنظيم العالم المعنوي. هذا التقسيم يجب أن يكون مطلقاً كجميع الأشياء الحقيقية بذاتها. لكنه نسبي تماماً، فهو غير موجود قطعاً، ولا يمكن إعطاء أي برهان على حقيقته. ولئن كان هذا التقسيم بارعاً في عدّ العناصر المنظَّمة، فإنه عاجز نسبياً أمام العناصر الناظمة فالأولى متناهية والأخرى لامتناهية. والإنسان الذي يتصوّر اللا متناهي بعقله، لا يمكنه أن يتدبّره بكلّيته، إذ أنه بذلك يغدو إلهاً. فتقسيمكم يطبق على الأشياء المتناهية وليس على اللا متناهي، وهو صحيح بالنسبة للتفاصيل التي تلاحظونها، لكنه خاطىء بالنسبة للمجموع الذي لا تلاحظونه، وإذا كانت الطبيعة مماثلة لنفسها في القوى الناظمة أو في مبادئها وهي لا متناهية فإنها ليست البتة في تأثيراتها المتناهية، وهكذا لايصادف في أي مكان في الطبيعة شيئان متماثلان: ففي الترتيب الطبيعي، اثنان زائد اثنان لا يمكن أبداً أن تعطي أربعة إذ يجب جمع وحدات متماثلة تماماً، وأنتم تعرفون أن من المستحيل أن نجد ورقتين متشابهتين على شجرة واحدة، ولا شجرتين متماثلتين من ذات الصنف من النبات. هذه البديهية في عدّكم، مغلوطة في الطبيعة المرئية ومغلوطة أيضاً في الكون غير المرئي من مجرّداتكم، حيث يوجد التنوّع نفسه في أفكاركم، وهي من أشياء العالم المنظور ولكنها ممتدة في علاقاتها، وهكذا فإن الفروق تكون هنا بيّنة أكثر منها في أي مكان. والواقع أن كلّ شيء فيها يتعلق بمزاج الأفراد وقوتهم، وطبائعهم، وعاداتهم، وهي لا تتشابه أبداً فيما بينهم، فأقل الأشياء تتمثّل فيها العواطف الشخصية. من المؤكد أن الانسان، إن كان قد تمكّن من خلق وحدات فذلك بإعطائه وزناً وعياراً مساويين لقطع من الذهب؟ والواقع أنّ بالإمكان ضمّ دينار الفقير إلى دينار الغني والقول لخزينة الدولة إن الكميتين متساويتان؛ أما في عين المفكّر فلا جرم أن إحدهما أكبر معنوياً من الآخر بكثير، فإحدهما يمثل شهُراً من السعادة، بينما لا يمثل الثاني أكثر من نزوة عابرة. اثنان زائد

اثنان لا يعطيان أربعة إلا بتجريد خاطىء ومشوّه، كما أن الكسر لا يوجد أبداً في الطبيعة، فما تسمونه جزءاً هو شيء منته في ذاته؛ ولكن ألا يحدث غالباً، ولديكم براهين على ذلك أن جزءاً من مئة من عنصر قد يكون أقوى مما تسمونه الوحدة الكاملة. وإذا كان الكسر لا يوجد في الترتيب الطبيعي، فوجوده أقلّ في الترتيب المعنوي حيث يمكن للأفكار والعواطف أن تختلف كما الأنواع في عالم النبات إنّما هي دائماً كليّة. فنظرية الكسور هي أيضاً مجاملة ملحوظة من عقلكم. فالعدد في أجزائه اللامتناهية في الصغر وفي مجموعاته اللامتناهية هو استطاعة في قسم بسيط منها معروفة، إنما لا تدركون مرماها، بنيتم كوخاً في اللا منتهي من الأعداد، وزخرفتموه بهيروغليفيات مرتّبة ومدهونة ببراعة وصرختم: «هذا هو الشيء المهم». فلننتقل من العدد الصرف إلى العدد المجّسم: أثبتت هندستكم أن الخط المستقيم هو الطريق الأقصر بين نقطة وأخرى لكن علم فلككم قد أظهر أن الله قد استخدم المنحنيات. هنا إذا حقيقتان برهن عليهما بالتساوي في العلم الواحد: احداهما بشهادة عقلكم والأخرى بشهادة حواسكم مكبرة بالتلسكوب لكن كلاً منهما تناقض الأخرى. الانسان وهو معرض للخطأ يؤكّد واحدة، وصانع العوالم الذي لم تسجّلوا عليه خطأ في أي مكان يكذّبها، من يحكم اذن بين الهندسة الخطية المستقيمة والهندسة المقوّسة المسارات؟ بين نظرية المستقيم ونظرية المنحني؟ إذا كان الفنان الخفي، في عمله، وهو من يعرف الوصول بسرعة عجائبية إلى أهدافه لم يستعمل الخط المستقيم إلا ليقطعه بزاوية قائمة للوصول إلى المنحني، فالانسان نفسه لم يستطع ابداً الاعتماد عليه: فكرة المدفع التي أراد الانسان توجيهها في خط مستقيم تنطلق في منحني، وعندما تريدون بالتأكيد الوصول إلى نقطة في الفضاء تطلبون من القذيفة أن تتبع قطعها المكافىء الطاغي. ما من أحد من علمائكم استنتج هذا الاستقراء البسيط؛ وهو أن المنحني هو قانون العوالم المادية، وأن المستقيم هو قانون الروحية: أحدها نظرية المخلوقات المتناهية، والآخر هو نظرية اللامتناهي، والإنسان وحده على هذه الأرض له معرفة اللامنتهي يمكنه وحده معرفة الخط المستقيم، وحده له حسّ الشاقولية مهيّأة له في عضو خاص، أيكون التعلّق في خلق

المنحنيات هو لدى بعض الاشخاص قرينة شائبة في طبيعتهم ما تزال مقترنة بالعناصر المادية التي ولّدتنا، وحب العقول الكبرى للخط المستقيم يشير لديهم إلى حَدْس بالسماء؟! بين هذين الخطين هوّة كما بين المنتهي واللا منتهي، كما بين المادة والروح، كما بين الانسان والفكرة كما بين الحركة والجسم المتحرك، كما بين المخلوق والله. اطلبوا من الحبّ الالهي أجنحته وستعبرون هذه اللجة، وما بعدها يبدأ انكشاف الكلمة. ما من مكان تبدو فيه الأشياء التي تسمونها مادية دون عمق؛ فالخطوط هي نهايات صلابات تشمل قوة فعل تحذفونها من نظرياتكم، وهذا ما يجعلها مغلوطة بالنسبة للأجسام المأخوذة بكلّيتها، ومن هنا هذا التهديم المستمر لجميع الأوابد الانسانية التي تجهزونها دون علمكم بخواص فعّالة. ليس للطبيعة إلاّ الأجسام، وعلمكم لا يوفّق فيها إلا الظواهر، وهكذا فالطبيعة تعطي في كل خطوة تكذيبان لجميع قوانينكم؛ جدوا لي واحداً منها لم يشجب بواقعه؟ وقوانين علم توازن القوى لديكم قد صفعت بألف حادث في الفيزياء، ذلك لأن المائع يزلزل أثقل الجبال ويبين لكم أنّ العناصر الأكثر ثقلاً يمكن أن ترفع بعناصر لا وزن لها. وقوانينكم في علم الصوت وعلم الضوء ملغاة بالأصوات التي تسمعونها في أنفسكم خلال النوم، وبضوء شمس كهربائية تبهركم بأشعتها غالباً، وأنتم لا تعرفون مدى تأثير الضوء بكم بمقدار عدم معرفتكم بالطريقة البسيطة والسهلة التي يتغير فيها إلى ألوان الياقوت والسفير والأويال والزمرد على عنق طائر في الهند بينما يبقى رمادياً قاتماً على عنق الطائر ذاته الذي يعيش تحت سماء أوروبة الغائمة، ولا كيف يبقى أبيض في قلب الطبيعة القطبية. لا يمكنكم أن تقرروا إن كان اللون قدرة وهبت للأجسام أم أنَّه تأثير ناتج عن انسكاب الضوء. أنتم تسلّمون بمرارة البحر دون أن تتحققوا إن كانت ملوحته شاملة لكل عمقه. تعرفتم على وجود عدة عناصر تخترق ما تعتقدون أنه الفراغ؛ عناصر لا يمكن احتجازها بأيّ من الأشكال التي تتخذها المادة، بل أنّها تتناسق معها رغم جميع العوائق. ومع حدوث هذا تؤمنون بالنتائج الحاصلة بالكيماء بالرغم من أن هذا العلم لم يتوصل حتى الآن إلى أيّة وسيلة لتقييم التغيرات الحاصلة بمدّ وجزر هذه العناصر التي تروح وتغدو عبر

بلوراتكم وماكناتكم على عروق لا تلتقط من الحرارة والضوء، مقادة ومصدّرة بألفات المعدن أو الصوّان المتزجج؛ مع أنكم لا تحصلون إلا على عناصر ميتة، طردتم منها القوة المجهولة التي تعارض كل ما يتحلل على هذه الأرض، وحيث الجذب والاهتزاز والتماسك والاستقطاب ليست إلا ظواهر. إن الحياة هي فكرة الأجسام، والأجسام ليست إلا واسطة لتثبيتها، لاحتوائها في طريقها، ولو أن الأجسام كانت كائنات حية بذاتها لغدت سبباً فلا تموت. عندما يتحقق انسان من نتائج الحركة العامة التي تتقاسمها جميع المخلوقات وفقاً لقدرة امتصاصها، تشهرونه عالماً بامتياز، كأن العبقرية تتعلّق بشرح ما هو موجود، بينما يجب أن توجّه العبقرية الأعيّن إلى ماهو أبعد من التأثيرات، وكل علمائكم يضحكون ساخرين إن قلتم لهم: «قد توجد علاقات مؤكّدةبين كائنين، أحدهما هنا، والآخر في جاوا بحيث يستطيعان في ذات اللحظة الشعور بالإحساس، ويمتلكان ذات الوعي، ويتساءلان ويتجاوبان دون خطأ! كما أن هنالك عناصر معدنية تبدر منها انجذابات بمثل بُعد ماذكرته، تؤمنون بقدرة الكهرباء المثبتة في مغناطيس، وتنكرون قدرة تلك التي تبثها الروح. بالنسبة لكم ليس للقمر، وقد برهن على تأثيره على المدّ والجزر، أي تأثير على الرياح أو على النبات، أو على البشر. إنه يحركّ البحر، ويقرض الزجاج، لكنه يحترم المرضى، وله علاقات أكيدة مع نصف البشرية، لكن ليس له أي تأثير على النصف الآخر. ذلك هو الأكثر غنى من تحققاتكم. لنذهب إلى أبعد من ذلك. ألا تؤمنون بالفيزياء؟ لكن فيزياءكم تبدأ كالمذهب الكاثوليكي بفعل إيمان: ألا تعترف بقوة مميّزة عن الأجسام، تربط بها الحركة؟ ترون آثارها، ولكن ما هي؟ اين هي؟ ما هي خلاصتها، حياتها؟، هل لها حدود؟ وأنتم تنكرون الله!...

«وهكذا فإن معظم بديهياتكم العلمية، وهي صحيحة بالنسبة للانسان، خاطئة بالنسبة للمجموع. العلم واحد لكنكم جزّأتموه، ولمعرفة المعنى الحقيقي للقوانين الظواهريّة، ألا يجب معرفة العلاقات الموجودة بين الظواهر والقانون العام؟ في كل شيء ظاهر يوثر على حواسكم، وتحت هذا الظاهر تتحرك روح،

هناك الجسم والقدرة، أين تعلمّون تقصي العلاقات التي تربط الأشياء فيما بينها؟ ولا في أي مكان! أليس لديكم شيء مطلق؟ مواضيعكم الأكثريقيناً تستند إلى تحليل للأشكال المادية حيث تهمل الروح دون انقطاع من قبلكم. هنالك علم سام أستشفه بعض الناس مؤخراً دون أن يجرؤوا على التصريح به؛ هؤلاء الناس فهموا ضرورة اعتبار الأجسام ليس فقط وفق خواصها الرياضية وإنما أيضاً في مجموعها، ووفق ألفاتها الخفيّة. لقد عرف الأكبر بين علمائكم[1] قبيل نهاية حياته، أنّ كل شيء علّة ومعلول بالتبادل، وأن العوالم المنظورة مترابطة فيما بينها، وخاضعة لعوالم غير منظورة؛ وتحسرّ لأنّه جرّب إقامة قواعد مطلقة. فقد شرح، معتبراً عوالمه كحبات عنب متناثرة في الأثير، التماسك بقوانين التجاذب الكوكبي والجزيئي؛ وقد عظّمتم هذا الرجل.. إيه! الواقع انه كما أقول لكم، قد مات في قنوط. فبافتراضه تساوي القوتين النابذة والجابذة اللتين ابتكرهما لتعليل الكون، يتوقّف الكون عن الحركة، وقد سلّم له، مع ذلك، بحركة في اتجاه غير محدّد؛ لكن اذا افترضنا ان هذه القوى غير متساوية فإن فوضى العوالم ستتلو سريعاً، فقوانينه إذاً ليست مطلقة، كما توجد أيضاً مشكلة أكبر من المبدأ الذي يعتمد عليه مجده الزائف، فارتباط النجوم فيما بينها والتأثير النابذ لحركتها الداخلية جعله ينسى أين يعلّق عنقود عنبه؟! فيا له من شقي! كلّما كبّر فضاء عنقوده كلما ازداد ثقله! قال لكم كيف يتمّ التوازن بين الأقسام؛ لكن أين يذهب المجموع؟! تأمّلَ المدى لا متناهياً في عين الإنسان، ممتلئاً بتلك المجموعات من العوالم التي يكشف تلسكوبنا قسماً ضئيلاً منها، لكن اتساعها ينكشف من سرعة الضوء؛ هذا التأمّل السامي منحه إدراك العوالم اللا متناهية المنزرعة في هذا الفضاء كالأزهار في المرج، تولد كالأطفال، وتكبر كالأشخاص، وتموت كالعجائز، تعيش وهي تتمثل في جوّها العناصر الخاصة بتغذيتها، ولها مركز ومبدأ حياة، يحتمي بعضها من بعضها الآخر بمجال أمان، وهي مماثلة للنبات تمتصّ ويجري امتصاصها، وتشكّل مجموعة وُهبت الحياة

(١) - هو العالم نيوتن الذي توجه إلى الصوفية وأجرى شرحاً وتعليقاً على رؤيا يوحنا.

ولها مصيرها . . أمام هذا المظهر ارتعش ذلك الرجل، إنه يعرف أن الحياة ناتجة عن اتحاد الشيء بمبدئه، وأن الموت أو العطالة؛ وفي النهاية؛ الثقالة تنتج عن انفصال بين الشيء والحركة الخاصة به؛ عند ئذ استشعر تفجرّ هذه العوالم؛ الهالكة إن سحب الله منها كلمته. فراح يفتش في الرؤيا عن آثار هذه الكلمة! وظننتم أن الجنون قد أصابه. اعرفوا إذاً اعلموا أنه كان يفتش عن غفران لعبقريته. وانت يا ولفرد جئت لترجوني أن أحلّ معادلات، وأن ارتفع على غيمة مطرية، وأن أغوص في الفيورد، لأظهر من جديد بهيئة تمّ اذا كان العلم أو المعجزات غاية الانسانية، فقد أورثكم موسى حساب المشتقات، وأضاء لكم يسوع المسيح ظلمات علومكم، وأشار لكم رسله من أين تخرج هذه الدفقات من الغازات أو المعادن المعلّقة بنوى تدور لتتصلّب وهي تبحث عن مكان في الأثير، والتي تدخل بعنف أحياناً في منظومة عندما تندمج في نجم فتصدمه أو تحطمه باحتكاكها أو تتلفه بتسرّب غازاتها المميتة. وبدلاً من أن يجعلكم تعيشون في الله، قام القديس بولس فشرح كيف أن الغذاء هو الرابطة المقدسة لجميع الخلائق، والرابطة البديهية لجميع الاجناس الحيّة.

أكبر العجائب اليوم هي إيجاد الربع المماثل للدائرة؛ مشكلة تعتبرون أنها مستحيلة وقد سبق حلّها دون شك أثناء سير العوالم بتقاطع خط رياضي ما، بَدَت التفافاته لعين الارواح الوافدة الى المستويات السامية. صدقوني إن العجائب هي في أنفسنا وليست خارجها. هكذا اكتملت الأشياء الطبيعية التي اعتبرت فوق طبيعية ألم يبد الله ظالماً باظهاره تجلّيه لأجيال وحرمانه أخرى من بيّناته؟ . بينما عصا العقاب تنال الجميع؛ لا موسى ولا يعقوب، ولا زرادشت، ولا بولس، ولافيثاغورث، ولا سويدنبرغ، ولا أكثر المرسلين غموضاً، ولا أكثر أنبياء الله وضوحاً بأسمى مما يمكن أن تكونوا، إنما هناك بين الأمم فترات تكون فيها أقرب إلى الإيمان. إذ يجب اعتبار العلم المادي هدف الجهود البشرية، فاعترفوا أن المجتمعات، هذه البؤر الكبرى لتجمع البشر ستبقى دائماً متفرقة سماوياً؟ لئن كانت

الحضارة هدف النوع، فهل يفنى العقل؟ هل ستبقى فردياً خالصاً؟ إن عظمة جميع الأمم التي كانت عظيمة تأسست على الاستثناءات: فما إن توقّف الاستثناء حتى ماتت القدرة! ألم يضع المستبصرون، والأنبياء، والرسل، اليد على العلم بدلا من أن يعتمدوا على الإيمان؟ أمّا كان بإمكانهم أن يتوجّهوا إلى أدمغتكم بدلا من أن يلامسوا قلوبكم؟ جاؤوا جميعاً ليدفعوا الأمم نحو الله؛ وأرشدوا إلى الطريق المقدسة، متحدثين اليكم بكلمات بسيطة تقود إلى مملكة السموات. كلّهم متقدون حباً وإيماناً، وكلهم استوحوا هذه الكلمة، التي ترفّ فوق الشعوب، فتضمّها، وتهزّها، وتعمل على رفعها؛ ولم يستخدموها لأي غرض بشري. إن عبقرياتكم الكبرى، وشعراءكم، وعلماءكم، وملوككم، انطووا مع مدنهم وغمرتهم الصحراء في فيافي رمالها؛ بينما أسماء هؤلاء الرعاة الطيّبين، ما تزال تسبّح وتطفو فوق النكبات. لا يمكننا أن نتفاهم حول أيّة نقطة. إن لجحاً تفصلنا. أنتم في جانب الظلمات، وأنا أحيا في النور الحقيقي! هل هذه هي الكلمات التي تريدون سماعها؟ يمكنني أن أقولها بغبطة، إن أمكنها أن تغيّركم! . اعرفوا إذا أن هناك علوماً للمادة، وعلوماً للروح، وهناك حيث ترون أجساداً، أرى قوى يتوجّه بعض منها الى بعضها الآخر بحركة مولّدة، إن ميزة الأجسام بالنسبة لي هي قرينة مبادئها، وعلاقة خواصها. هذه المبادىء تولّد ألفات تتفلّت منكم وترتبط بمراكز؛ والأنواع العديدة التي تتوزّع الحياة فيها هي ينابيع لا تتوقف وتتواصل فيما بينها، ولكل منها انتاجه الخاص. والانسان علة ومعلول، هو مُغذّى لكنه يتغذى بدوره. بتسميتكم الله، خالقاً تحطون من قدره، إنّه لم يخلق، كما تظنون، النبات ولاالحيوان، ولا الكواكب؛ هل يمكنه أن يستخدم عدّة وسائل؟ ألم يؤثر بوحدة التركيب؟ وهكذا فإنه أعطى مبادىء يمكنها أن تتطوّر وفقاً لقانونه العام حسب الأوساط التي وجدت فيها. إذا عنصر واحد والحركة؛ نبتة واحدة؛ حيوان واحد؛ إنّما علاقات مستمرّة والواقع ان جميع الألفات المرتبطة بتماثلات متجاورة، وحياة العوالم منجذبة نحو المراكز بتوقٍ متعطش كم تنجذبون جميعاً بدافع الجوع نحو

الغذاء[1]. ولإعطائكم مثلاً عن التجانسات المرتبطة بتماثلات؛ أذكر قانوناً ثانوياً يستند إليه إبداع من فكركم: الموسيقى، وهي الفن السماوي الذي يطبّق هذا المبدأ: أليست مجموعة من الأصوات المتناسقة بالعدد؟ والصوت أليس تغيّراً في الهواء، منضغطاً ومتمدّداً، ومرتدّاً؟ وأنتم تعرفون تركيب الهواء: آزوت وأوكسجين وغاز كربون؛ وبما أنكم لا تحصلون على صوت في الفراغ، فمن الواضح أن الموسيقى والصوت البشري هما نتيجة عناصر كيميائية منظمة تميل إلى الاتحاد بعناصر مماثلة محضّرة من قبلكم بالفكر مترابطة بواسطة الضوء المغذي الأكبر على كرتنا الأرضية[2]. هل استطعتم أن تتأملوا تراكم النترات المتوضعة بواسطة الثلوج؛ هل

---

(١) - هذا العلم السامي الذي تنادي به سرافيتا، العلم المطلق يجمع علوم المادة والروح بتصوّر شامل للأسباب والنتائج، للأجسام والقوى، في رؤيا للكل الذي يفسّر الخاص، في ترابط العوالم المرئية وخضوعها للعوالم غير المرئية كما تصوّرها نيوتن بالحدس في أواخر أيامه، إن المبدأ البلزاكي هو أحدية أونطولوجية وديناميكية، وهو قائم على وحدة التركيب العضوي التي حدّدها جيوفروا سان هيلير وطبقها كالصوفيين على جميع العوالم وعلى فكرة إحياء المادة، المفروضة بعلوم الزمن والفلسفات التجريبية، وهو يسير على منوال **حلم دالمبر** لديدرو ويدمج التأملات القديمة بالقوى الحيّة أو الخفيّة التي تنسب إلى الطبيعة والتي ترتبط بواسطة شروح ابن رشد والغنوصية، والقبلانية، والأفلاطونية بالأرباب الكوكبية للكلدانيين.

(٢) - نجد حول هذا الموضوع من العلاقات الموجودة بين الأحاسيس، والأفكار والقدرات الروحية أوضاعاً مماثلة في مختصر هند مارش. فالمؤلف يصرح أن الأحساس أو الادراك الناتج عنه هو خاصّة لا تنفصل عن العنصر الذي يركب العضو (ورغم ابهام التعابير ندرك ماذا يعني المؤلّف) وهو يضيف أن ليس العضو الذي يلتقط وإنما «الروح ترى بواسطة العين وتسمع بواسطة الأذن وتذوق بواسطة اللسان» ويقول بلزاك عن سرازين في استماعه إلى غناء زمبينلا: «كانت روحه تتركز في أذنيه وعينيه، وقد ظنّ أنه يستمع بكل سمّ من مسامه». «إن العواطف، والتمييزات والأفكار التي تبدو للجميع آتية إلى الروح من لا شيء - إن صحّ القول - أو تعوم فيها وكأنها أبخرة خالصة، أو أنها تصاعدات وخلاصات أثيرية، دون احتوائها على شيء جوهري، هي في الحقيقة تغيّرات أو تعديلات أو أنواع من الحالة أو الشكل، وهي ليست فقط عناصر طبيعية في المخ، وإنما هي أيضا عناصر روحية من الأكثر نقاء في الروح البشرية، إذ يستحيل لأي شيء أن ينقل إلى الإنسان بطريقة تؤثّر فيه سواء داخلياً أو خارجياً، إن لم يكن فيه مادة جوهرية قادرة على استقباله والتقاطه وحفظه» (من قصة سارازين أيضاً).

من المؤكد أن بلزاك يعتبر عنصر العقل مادياً مما يسمح له أن يتناسق مع الإحساس، إنما مبدأ الهويّة بين الحاوي والمحتوى، المشترك بين بلزاك وسويد نبرغ يعود إلى الحكمة السكولائية.

تمكنتم أن تروا تفريغات شحنات الصاعقة، والنباتات التي تتنفس من الهواء المعادن التي تحتويها دون استنتاج أن الشمس تصهر وتوزع العنصر السامي الذي يغذي كل شيء على هذه الأرض؟

وكما قال سويد نبرغ: «**الأرض انسان**[1]؛ فعلومكم الحالية، هذه التي تجعلكم كباراً في أعينكم بالذات، هي تعاسات إلى جانب البوارق التي تغمر المستبصرين. توقفوا، توقفوا عن سؤالي إن لغاتنا مختلفة، استخدمت لفترة لغتكم لألقي في روحكم بارقة إيمان، ولأمنحكم طرفاً من معطفي، ولأقودكم إلي مناطق الصلاة البهيّة. هل على الله أن يهبط إليكم؟ أم عليكم أنتم أن ترتفعوا إلى الله؟ إذا عجزت قوى السلّم الذي نصبه العقل الإنساني ليطال الله ويبرهن عليه عن أن تتوصل إلى ذلك، أليس من البديهي أن يفتش عن طريق آخر لمعرفته؟ هذا الطريق هو في أنفسنا. المستبصر والمؤمن يجد ان في نفسيهما أعيناً أكثر نفاذاً من الأعين المستخدمة لرؤية أشياء الأرض، ويلحظون فجراً. اسمعوا هذه الحقيقة! علومكم الأكثر دقّة، وتأمّلاتكم الأكثر جرأة، وأجمل جلاءات أفكاركم هي سحب فوق المعبد الذي ينبثق منه النور الحقيقي.»

---

(١) - في مسوّدات «الشهداء المجهولين» يمكن أن نقرأ أن الفكرة المادية لا تشهد ضد الله: «يوجد على الأكثر ما يلخّص أن الأرض تختصر ككتلة مخلوق واحد في عينيه. الأرض هي انسان واحد كما يقول سويدنبرغ. لكن هذه الصيغة قد حذفت. وفي رواية «النسيب بونس» يذكر بلزاك أيضاً أن سويدنبرغ النبي السويدي الكبير قال: «إن الأرض إنسان» والواقع أن نصّ سويدنبرغ في مختصر دايان دي لاتوش هو: «السماء، والكون بكامله، يمثل انساناً، ويسمى الانسان الكبير والإنسان، المماثل لنا، يمثل العالم الروحاني، ويجسده العالم الطبيعي، وهكذا فقد سمي من قبل بعض القدماء «العالم الصغير: ميكروكوم» كما يتحدث سويدنبرغ عن قلب السماء أو الانسان الكبير جداً (غرانديسيم). وقد لجأ بودلير إلى صيغة مماثلة عند حديثه عن السويدي فقال في «الفن الرومنسي» (السماء رجل كبير جداً) استمد سويدنبرغ هذه الصيغة من الغنوصيين، فانتروبوس أو الإنسان الأولي يتصورّ تارة وكأنه إسقاط للعنصر الالهي الموجود مسبقاً في العالم والهابط من المادة ليبث في الأرواح البشرية قسيمة من هذا العنصر، ويتصور مرة أخرى مماثلاً للعالم الأكبر، والكوسموس صورة العالم الروحي هو أيضاً رجلٌ «مسبق الوجود» ماثل في الله وهكذا يقال عن الكوسموس أو العالم الأكبر أنه «الإنسان الأكبر».

قال ولفرد للسيد بِكرٍ وهو يميل على أذنه: «من قال لها ذلك؟».

أجاب بِكرٍ: «لا أعلم».

قالت مينا في نفسها: «كان أكثر رقّة على الفالبرغ».

قالت سرافيتا وقد ظلّلت عينيها بيدها ولاحت على شفيتها ابتسامة: «أراكما تستغرقان في التفكير، هذا المساء، يا سيديَّ، وتعاملاننا أنا ومينا كرجال تحدثانهم في السياسة أو التجارة بينما نحن فتاتان يجب أن تقصا عليهما الحكايات أثناء تناول الشاي، كما جرت العادة في سهراتنا في النروج. هيّا يا سيد بكر ألا تحدثني عن بعض قصص الساجا[1] التي لا أعرفها؟ احكِ لي قصة فرتييوف[2]، هذه الحكاية المحلية التي تصدق وقائعها ووعدتني بسردها عليَّ؛ قصّ

---

(١) - **الساجا**: حكايات نثرية كانت تنشد سابقاً من قبل الشعراء الغنائيين أو البطوليين المحلقين بقصور الملوك الاسكندينافيين، أو المتجولين من قصر إلى قصر تدعوهم العائلات الكبرى، وقد تمّ تداولها «شفهياً» أولاً ولم تكتب إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر. ذكرت هذه التقاليد في إيسلندة حيث احتفظت بمزاياها الابتدائية، وهي غنيّة بالمعلومات عن التاريخ، والعادات القضائية، والتقاليد والدين، وأساطير شعوب الشمال، وتميّز عامّة الساجا البطولية ذات الأساس التاريخي والقيم الوثائقية الأصلية عن حياة بلاد وعصر، والساجا الشاعرية حيث لا تغيب الحقيقة العامة لكن الفعل يأخذ شكل الرواية والساجا الاسطورية ذات الأساس الجرماني أو الاسكندينافي. ويلاحظ أن قصص الساجا الأكثر قدماً تعود إلى القرن العاشر وتدور حول أحداث وتقاليد حقيقية مستمدة من ماضي العائلات ووضعها الواقعي عامل يدعو إلى تصديقها، ولكن الساجا تطورّت بدءاً من القرن الثالث عشر نحو تلوين السياق التاريخي الأكثر عمومية وتضمينه ناحية بسيكولوجية أكثر ظهوراً، اهتماماً أكبر بالعواطف وأسلوباً أكثر رقة كما تجلّى ذلك في ساجا فرتييوف.

(٢) - **ساجا فرتييوف أو فريتجوف**: تعود إلى القرن الثالث عشر تقريبا وتصنف من بين الساجا الاسكندينافية الشعرية والأسطورية. وهي ذات اصل أيسلندي انما تقع في النروج وتقصُّ حكاية عائلة تسكن في مقاطعة سوغن. وقد بقيت هذه الساجا مدة طويلة كثيرة الشعبية في الشمال وتبدو لوحة تصوّر تفكّك العائلات الكبرى عقب تنافسها ومنازعاتها عبر قصة خيالية لعاشقين متباعدين. **فريتجوف** ابن بارون تورستن العاشق لانجبورج ابنة بلّ ملك المقاطعة، وقد تربى الشاب مع الفتاة ورغب في الزواج منها، وتأتي العقبات بعد وفاة الأهل فالأخوان **هلجي وهلفدن** يرفضان فريتجوف خطيباً لاختهما، ويزوجانها لملك من الجوار اسمه هرينغ ويطردان الشاب، لكن هذا خلال غيابهما ورغم منعه من دخول المنطقة يستمتع بحياة غبطة يقضيها إلى جانب حبيبته الحبيسة في قلعة. ويحكم عليه بدفع غرامة فيبحر على متن **الإليد**////

علينا قصة ابن الفلاح الذي يمتلك سفينة ذات روح وتتكلّم، إنّني أحلم بالفرقاطة إليدا[1]، أليس على هذه الجنيّة ذات الأشرعة تحلم الفتيات بالإبحار؟.

قال ولفرد وعيناه معلّقتان بسرافيتا كسارق مختبىء في الظلمة وهو يحدّق بالمكان الذي يرى فيه كنزاً: «بما أننا عائدون إلى جرفيس، ألا تذكرين لنا لماذا لا تتزوجين؟».

أجابت: إنكم تولدون جميعاً أرامل أو أرملات، لكن زواجي مهيأ منذ ولادتي وأنا مخطوبة...

- فهتفوا جميعاً بصوت واحد: «لمن؟».

قالت: دعوني أحتفظ بسري، لكنني أعدكم، إن وافق والدنا، بدعوتكم إلى هذه الأعراس المكتنفة بالأسرار.

- هل سيكون ذلك قريباً؟.

- أنا أنتظر.

ساد صمت طويل بعد هذا الكلام، ثم قالت سرافيتا:

//// أفضل سفينة رؤيت في النروج، وبفضلها ينتصر على كثير من مخاطر البحر، وهو يغني وسط العاصفة حبه لخطيبته البعيدة، ويلعن الساحرات المرسلات من قبل أعدائه واللواتي ينتصبن أمامه في اللجج، وبعد عودة أولى إلى البلاد حيث يسدّد الغرامة المفروضة عليه، يطعن أحد الأخوين ويحرق المعبد ويعود إلى قرصنته التائهة ويغدو ملك البحار، لكنه لا يمارس قرصنته إلا ضد الأغنياء والأقوياء متجنباً الصيادين والتجار، لكن أسفه على إنجبورج يعذبه، وبعد ثلاث سنوات من السفر يظهر متنكراً في بلاط الملك هرينغ، وينتهي، هذا إلى التعرف عليه، لكنّه يثق باخلاصه وشرفه، ويحتفظ به إلى جانبه ويحس بقرب موته فيعهد إليه بالعناية بأولاده ومملكته، ويموت الملك ويتزوج فريتجوف إنجبورج ويملك معها، ويهاجمه الأخوان عدوّاه فيقتل أحدهما ويفرض على الآخر دفع غرامة.

(1) - إذا كان المقصود بالفرقاطه إليدا تلك السفينة إليد التي أبحر عليها فريتجوف، فإن جميع الوثائق التي تتحدّث عن الساجا لا تذكر ابن فلاح يملك سفينة تتكلم ولها روح سواء منها ساجا فريتجوف أو نِجَال أو غوللوجي.

«قد أتى الربيع، وانقصاف الجليد المتكسر مع صوت جريان الماء قد بدأ، ألا تأتون لتحية أول ربيع في القرن الجديد؟

ونهضت يتبعها ولفرد فتوجّها معاً إلى نافذة كان دافيد قد فتحها، وكانت أصوات خرير المياه تسمع تحت الجليد وترن في الفيورد، بعد صمت الشتاء الطويل، فتبدو كالموسيقى. إذ أن الفضاء ينقي بعض الأصوات التي تصل إلى الأذن كالأمواج المفعمة في آن واحد بالنور والطراوة.

قالت: توقّف يا ولفرد، توقف عن توليد أفكار سيئة، الانتصار فيها يتعبك حمله. مَن لا يقرأ رغباتك في الشرر المنطلق من نظراتك؟. كن طيّباً! تقدم خطوة في الخير. أليس في تضحيتنا بأنفسنا بشكل كامل من أجل من نحب، انطلاق إلى ما هو أبعد من حبّ البشر. أطعني وسأقودك في طريق تحصل فيه على كل الكبر الذي تصبو إليه إلى حيث يكون الحب، حقاً، لا متناهياً».

تركت ولفرد مفكراً.

كان يقول في نفسه: «أتكون هذه المخلوقة الناعمة النبيَّة التي جاءت تلقي البرق في الأعين، ويرعد كلامها في العوالم، وتحرّك في يدها فأس الشكّ ضد علومنا؟ أيكون السهاد قد انتابنا للحظات؟.

عادت سرافيتا إلى قرب ابنة القس وقالت: «مينا، إن النسور تطير حيث الجثث، والحمائم ترفّ حيث الينابيع الحيّة، تحت الظلال الخضراء الهادئة. النسر يصعد إلى السموات، والحمامة تنزل. توقّفي عن المغامرة في منطقة لا تجدين فيها ينابيع ولا ظلالاً، إذا كنت منذ فترة قريبة لم تستطيعي تأمل اللجج دون التعرض لخطر التحطمّ، فاحرصي على قواك لمن ستحبينه. هيا يا فتاتي المسكينة، أتعرفين؟ إنَّ لي خطيبة!».

نهضت مينا وأتت مع سرافيتوس إلى النافذة حيث كان ولفرد ما يزال واقفاً وراح الثلاثة يستمعون إلى نهر السيغ يقفز تحت وطأة المياه المتدفقة التي تتساقط من

ذوبان الجليد فوق الأشجار، واسترد الفيورد صوته، وانقشعت الأوهام، وراح الجميع يتأملون الطبيعة بإعجاب وهي تتحرّر من قيودها، وبدت وهي تجيب بتناسق سام مع الروح التي جاء صوتها ليوقظها.

عندما غادر الضيوف الثلاثة هذا الكائن الغامض كانت تسطير عليهم عاطفة مبهمة ليست نعاساً ولا خدراً، ولا دهشة، إنّما شيء من كل هذا وهي ليست الغسق، ولا الفجر إنّما تثير التوق إلى النور. وكانوا جميعاً يفكرون.

قال السيد بكر: بدأت أعتقد أنها روح يتخفّى بشكل بشري.

وعاد ولفرد إلى منزله هادئاً مقتنعاً لا يعرف كيف يتصارع مع هذه القوى الجليلة جلالاً إلهياً.

وقالت مينا في نفسها: «لماذا لا يريد أن أحبه؟».

V

الوداع

في الإنسان ظاهرة تسبب القنوط للعقول المولعة بالتأمّل، التي تريد أن تجد معنى لسير المجتمعات وإعطاء قوانين للتقدّم في حركة الفكر، وأيّاً كانت أهمية الحدث، وحتى إن أمكن وجود أحداث فوق طبيعية، وأيّاً كانت عظمة الأعجوبة الجارية علَناً؛ فإن بريق ذلك الحدث، ودوي تلك الأعجوبة يخمدان في المحيط المعنوي الذي ما يكاد سطحه يتعكر بهذا الجيشان المفاجىء حتى يعود سريعاً إلى تموجاته المألوفة.

هل يستلزم حسن الفهم أن يمرّ الصوت عبر أشداق الحيوان؟ وأن تسطّر اليد أحرفاً على أفاريز القاعة التي يلهو البلاط فيها؟ وأن توقظ العين الملك من رقاده؟ وأن يفسّر النبي الأحلام؟ وأن ينتصب الموت المتذكّر في المناطق الساطعة التي تنبعث فيها القدرات؟ وأن تسحق الروح المادة على قدم السلم الخفيّ للعوالم الروحانية السبعة التي يتنضد بعضها فوق البعض الآخر في الفضاء وتتكشّف بأمواج لمّاعة تسقط شلالات على درجات النعيم السماوي؟ أيّاً كان عمق الكشف الداخلي، وأيا كان وضع الكشف الخارجي؛ فإن بلعام[1] يشك في اليوم التالي بأتانه

(١) - هو بلعام بن بعور كاهن الرب على الفرات، وقد دعاه بالاق بن صفور ملك موآب ليلعن له قوم موسى الخارجين من مصر، ويذكر الإصحاح الثاني والعشرون من سفر العدد أن بلعام سار إلى بالاق راكباً على أتانه التي مالت عن الطريق لأن ملاك الرب وقف في وجهها وسيفه مسلول في يده، وقد فتح الرب فم الأتان بعد أن ضربها سيدها مراراً فكلّمته وعاتبته على ضربها وذكرت له أن وقوفها كان بأمر الرب الذي أظهر عند ذاك ملاكه لبلعام وطلب منه مباركة شعب موسى بدلا من لعنه.

وبنفسه، وبلشصرّ وفرعون يعتمدان في تفسير كلام الله على النبيين موسى ودانيال[1]. تأتي الروح فتحلّق بالإنسان فوق الأرض، وتشقّ له البحار، وتجعله يرى الأعماق وتظهر له الأنواع المنقرضة، وتعيد أمامه الحياة إلى العظام الرميمة التي تملأ مكاحلها الوادي الكبير: ويكتب الرسول الرؤيا! وبعد عشرين قرناً يأتي العلم الانساني ليؤيد الرسول، ويفسّر صوره إلى حقائق مقررة. وبلا مبالاة! تتابع الجماهير عيشها كما كانت تعيش بالأمس، وكما عاشت في أوّل أولمبياد إغريقي. وكما عاشت غداة الخلق أو عشيّة الطوفان. الشك يحجب كل شيء بلججه، والأمواج المتلاطمة ذاتها تضرب بذات الحركة الغرانيت البشري الصلد المستخدم صوى على محيط الفكر، وبعد أن يتساءل الإنسان إن كان حقيقة ما رآه، وإن كان فعلاً قد سمع الكلمات المقالة، إن كان الحدث حدثاً، الفكرةُ فكرةً، يسير على نهجه السابق ويفكّر بأعماله كالمعتاد، ويمتثل لهذا الخادم الذي يتبع الموت، ألا وهو النسيان الذي يحجب بمعطفه الأسود الإنسانية القديمة فلا يحتفظ البشر الجدد بأي ذكرى عنها. لا يفتأ الإنسان يسير، يسعى، ينساق بخمول إلى أن يحلّ اليوم الذي تأتيه الضربة القاضية. فإذا كانت قدرة هذا الموج، والضغط العالي لهذه المياه المرّة تحول دون أي تقدّم، فإنها تنذر دون شك بالموت، والأرواح المهيأة للإيمان من بين االكائنات السامية تلاحظ وحدها فقط سلم يعقوب الخفي.

- بعد سماع جواب سرافيتا، التي طُرِح عليها الموضوع، فبسطت المدى الالهي كأرغن دوعبت ملامسه فملأ الكنيسة أنغاماً، وكشف الكون الموسيقي وهو

---

(١) -بلشصر اخر ملوك بابل (٥٥٤ - ٥٣٨ ق.م) شرب مع عظمائه وزوجاته وسراريه الخمر بآنية الذهب والفضة التي أحضرها ابوه نبوخذ نصر من هيكل أورشليم. فظهرت يدٌ غير مرئية كتبت بأحرف من لهب على الحائط كلمات «منَا، تقيل، وفَرس» وفسر النبي دانيال للملك هذه الكلمات:

منا: أحصى الله ملكوتك وأنهاه.

تقيل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً.

فرس: قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس.

في تلك الليلة قتل بلشصر. وأخذ المملكة داريوس المادي. (عن الاصحاح الخامس من سفر دانيال).

يسكب أصواته الشجيّة على القباب الأكثر مناعة، ويتموّج كالنور على أدق الأزهار التي تزيّن تيجان الأعمدة. بعد سماع ذلك عاد ولفرد إلى منزله مذعوراً لأنه رأى العالم في خراب، وفوق هذا الخراب جلاءات مجهولة تتدفق كالأمواج بين يدي تلك الشابة. في اليوم التالي كان ما يزال دائم التفكير بها، لكن الذعر خفّ، فلم يعد يشعر بالدمار أو بالتغيّر، واستيقظت أهواؤه وأفكاره نضرة متنشطة، وذهب لتناول الغداء لدى السيّد بكر فوجده غارقاً بجدّ في **المفصّل في التعزيمات** وهو يقلّبه منذ الصباح ليطمئن ضيفه، وبإيمان العالم الطيّب الساذج طوى القسّ بعض الصفحات التي يقدم فيها جان وبير براهين واقعية تبرهن على إمكانية الأحداث الحاصلة خلال السهرة، لأن الفكرة بالنسبة للبحاثة هي حدث، كما أن أكبر الأحداث تكاد لا تتعدّى الفكرة. وبعد كأس الشاي الخامس الذي تناوله هذان الفيلسوفان غدت السهرة الغامضة طبيعية، واعتبرت الحقائق السماوية استدلالات مختلفة في درجة قوّتها وخاضعة للفحص والتدقيق، وبدت لهما سرافيتا فتاة على قدر من الفصاحة، يجب أن يؤخذ بالاعتبار صوتها الساحر، وجمالها الفاتن، وحركتها الرشيقة، وجميع هذه الوسائل الخطابية التي يلجأ إليها ممثل فيضع في عبارته عالماً من الأفكار والعواطف، بينما تكون هذه العبارة في الحقيقة عادية غالباً.

قال رجل الكهنوت الطيب وهو يدهن فطيرته بطبقة من الزبدة المملحة وقد بدت على ملامحه تقطيبة صغيرة: إيه! تقع الكلمة الأخيرة من هذه الألغاز الجميلة على عمق ستة أقدام تحت الأرض.

قال ولفرد وهو يحلّي كأس شايه: ومع ذلك فلا أتصوّر كيف يمكن لفتاة في السادسة عشرة من عمرها أن تتوصل إلى جميع هذه المعارف. فهي تمسك بزمام الكلام وكأنها ملزمة وثيقة الشدّ.

قال القس: إقرأ إذا قصة تلك الفتاة الإيطالية التي تكلّمت باثنتين وأربعين لغة منها القديم ومنها الحديث وهي لم تتعد الثانية عشرة من عمرها، وقصة ذلك

الراهب الذي يخمن الفكرة عن طريق الشم[1]! وفي مفصل جان وبير ودزينة من المفصلات الأخرى التي يمكنني أن أعرضها عليك لتقرأها ألف برهان مماثل.

- إنني موافق يا عزيزي القس، لكن سرافيتا في رأيي امرأة إلهية تستحق الإفتتان بها.

- أجاب السيد بيكر بلجهة ارتياب: «إنها ذكيّة فعلاً».

مرت بضعة أيام راحت ثلوج الوديان خلالها تذوب رويداً رويداً، وبرزت خضرة الغابات كالأعشاب الجديدة، وقامت الطبيعة النروجية بتحضيرات زينتها لعرس يوم. وخلال هذه الأوقات حيث تسمح نعومة النسيم بالخروج، بقيت سرافيتا في عزلتها. وازداد هوى ولفرد بالإثارة التي يسببها جوار امرأة محبوبة لاتظهر. أما عند استقبالها لمينا فبدت مخلوقاً يتعذر بيانه، وقد لاحظت عليه مينا فتك نار داخلية، فغدا فيه الصوت عميقاً، وراح لونه يزداد شقرة، وإذا كان الشعراء قد قارنوا بياض البشرة بلون الألماس فإن سرافيتا بدت ببريق الياقوت الأصغر.

سأل ولفرد مينا بعد عودتها وكان ينتظرها وهو يرود حول القصر السويدي: «هل رأيتها؟».

أجابت الفتاة الشابة وعيناها مليئتان بالدموع: «سنفقده!».

هتف الغريب وهو يحبس ضخامة صوته وقد أثاره الغضب: «يا آنسة، لا تستخفّي بي، لا يمكنك أن تحبي سرافيتا إلا كما تحبُّ فتاة رفيقتها ولا كالحبّ الذي تلهمني إياه، أنت تجهلين أي خطر تتسببيّن به إن أُثيرت غيرتي حقاً. لماذا لا استطيع الذهاب إليها؟ أأنت التي تضعين في طريقي العقبات؟.

أجابت مينا وقد بدا عليها الهدوء ظاهرياً، إنما كانت فريسة رعب عميق: لاأعلم! ولكن بأي حق تسبر أعماق قلبي؟ ثم أضافت وقد وجدت الجرأة على التعبير عن إيمان قلبها: «نعم إنني أحبّه، لكن غيرتي عليه، وهي طبيعية في الحبّ،

---

(١) - لم يهتد الباحثون إلى مصدر هاتين السيرتين ولا يعرف إن كانتا حقيقة أو اختلاقاً.

لا تروّع أي انسان هنا، فأنا أغار من العاطفة الخفية التي تشغله، وأحسّ أن بيني وبينه مسافات لا أستطيع اجتيازها. أريد أن أعرف أي منّا أكثر حبّاله: أنا أم النجوم؟، وأيّ أسرع تضحية من أجل سعادته؟ لكن أمام الموت، يمكننا أن نعبرّ عن ميولنا، وسرافيتوس في طريقه إلى الموت يا سيدي!

- انك مخدوعة يا مينا، فجنيّة البحر التي غمرتها غالباً برغباتي، وأتاحت لي التعبير عن إعجابي وهي مستلقية بغنج فوق أريكتها ظريفة، ضعيفة، مكتئبة، ليست رجلاً.

أجابت مينا قلقة: «سيدي، إن من قادتني يده القوية إلى الفالبرغ، إلى هذا السُكر المظلّل بقبعة الجليد؛ هناك» - وأشارت بيدها إلى أعلى القمة - «لا يمكن أبداً أن يكون فتاة ضعيفة. آه لو سمعته ينطق بوحي سماوي! كانت قصيدته موسيقى من الفكر؛ وما من فتاة يمكن أن تبسط تلك النبرات القوية من الصوت التي تحرك الروح»

قال ولفرد: لكن أي يقين تمتلكين؟...

أجابت مينا مرتبكة ومعجلة في مقاطعة الغريب: إحساس القلب ليس إلاّ...

هتف ولفرد وهو يلقي على مينا نظرة مرعبة ملؤها الرغبة والشهوة الحسيّة القاتلة: إيه! أما أنا فإنني أعرف مدى سلطانها عليّ وسأبرهن لك على خطئك»

في تلك اللحظة التي تسارعت فيها الكلمات على لسان ولفرد بمثل الحيوية التي تواردت فيها الأفكار على رأسه، رأى سرافيتا تخرج من القصر السويدي يتبعها دافيد، وقد هدأ هذا الظهور غليانه فقال لمينا: «انظري، يمكن للمرأة فقط أن تتميزّ بهذه الرقة وهذه اللدونة».

قالت مينا: «إنّه يتألّم وهو يتنزّه للمرّة الأخيرة».

عاد دافيد من حيث أتى بعد إشارة من سيدته وقد وصل إلى قربها ولفرد ومينا.

قال لهما ذلك المخلوق وهو يظهر إحدى تلك الرغبات المماثلة لتلك التي تصدر عن مريض فنبادر لتلبيتها: «هيا بنا حتى مساقط شلالات السيغ».

كان ضباب خفيف أبيض يغطي عند ئذ الوديان والجبال المحيطة بالفيورد، فتبدو وهي تبرق كالنجوم تخترق تلك الغلالة فتضفي عليها مظهر مجرةٍ تسير، والشمس تبدو عبر هذا الدخان الأرضي مثل كرة من حديد حمراء. رغم هذه المظاهر الأخيرة للشتاء، فإن بعض نفحات من هواء دافىء، حملت روائح البتولا، وتزيّنت باكراً بازهراراتها الشقراء، وتضوّعت بالعطور العابقة من الأرزيات وقد جدّدت شراباتها الحريرية؛ هذه النسمات المسخّنة ببخور الأرض وتنهداتها كانت تشهد على ربيع الشمال الجميل، وهو الفرحة القصيرة للطبيعة الأكثر اكتئاباً. وبدأ الهواء يزيح تلك الغلالة من السحب التي تخفي جزئياً منظر الخليج. كانت الطيور تغرد، والشمس لم تخفف عن لحاء الشجر مساري الجليد، فتسيل مياهها كالجداول هامسة لتبهج المنظر بمظاهر خلاّبة.

وكان الثلاثة يسيرون بصمت على طول ضفة النهر الرملية، وولفرد ومينا يتأمّلان وحدهما ذلك المشهد العجيب بالنسبة لهما بعد معاناة لوحة الطبيعة الرتيبة شتاء، وكان رفيقهما يمشي مفكراً وكأنه يسعى إلى تمييز صوت محدّد في هذا التناغم، ووصلوا إلى قرب الصخور التي ينبجس منها السيغ في نهاية طريق تحف به أشجار التنوب القديمة حيث مجرى السيل قد رسم، متموّجاً عبر الغابة، شعباً مغطى بعقود صغيرة ذات عصيبات بارزة كعقود الكاتدرائيات. من هناك كان الفيورد ينكشف بكامله والبحر يلتمع في الأفق كصفيحة فولاذ. في تلك اللحظة انقشع الضباب فكشف عن زرقة السماء، وفي كل مكان في الوديان وحول الأشجار ما تزال تتطاير نُتَف برّاقة وأغبرة ألماس تكنسها نسمة عليلة، وأقفاص كأطر الخواتم تلتمع نقاطها كاللآلىء وهي معلقة على أطراف الأغصان بشكل هرمي

والسيل يجري من أعلى ومن بساطه ينبعث بخار تسكب عليه الشمس كل فوارق الألوان حيث تتفكك أشعتها متحللة إلى الألوان السبعة فترسم غلالات قوس قزح تنبثق من آلاف المواشير التي تتشابك انعكاساتها وتتباين. هذه الضفة الوحشية مفروشة بعدة أنواع من الأشنيات قطعة نسيج جميلة تتموج بالرطوبة فتتصور سُجُفاً رائعة من حرير وبواكير أزهار الخلنج تتّوج بأكاليها الممتزجة بمهارة هامات الصخور وكل الفروع المورقة تجذبها رطوبة المياه فتدلّى جدائلها المحلولة فوقها والأرزيات تحرك غمماتها مداعبة الصنوبريات المنتصبة كالشيوخ المنشغلي البال. هذه الحلية العامرة غنى ولوناً كانت تتباين مع وقار الأعمدة الضخمة التي ترسمها جذوع الأشجار المعمرةُ في الغابات المتنضدة فوق الجبال والتي تنعكس ظلالها على بساط الفيورد الكبير الممتد تحت أقدام المشاهدين الثلاثة حيث السيل يغرق غضبه. أخيراً فالبحر يحيط بهذه الصفحة المكتوبة من قبل أكبر الشعراء، والمصادفة وحدها تظهر اختلاط الخلائق المهملة لذاتها ظاهرياً. حيث جرڤيس نقطة ضائعة في هذا المشهد بسعته وسموّه كما جميع أصحاب العمر القصير في تقديمهم صورة سريعة عن الكمال، فكأن هناك قانوناً، مشؤوماً في أعيننا فقط، يقتضي ألا يكون للخلائق المكتملة ظاهرياً، الذين يعمرون قلوبنا وانظارنا حباً إلاّ ربيع واحد. من أعلى هذه المنطقة الصخرية، كان يمكن لهذه المخلوقات الثلاثة أن يعتقدوا أنهم وحيدون في العالم[1]. وهتف ولفرد: ياللبهجة!

قالت سرافيتا: إن للطبيعة ترتيلاتها، أليست هذه الموسيقى عذبة؟ ألا تعترف بذلك يا ولفرد؟ هل تمكنت واحدة من النساء اللواتي عرفتهن من أن تكتشف مثل هذا المكان المنعزل الجميل؟ هنا أشعر بعاطفة لا توحي بها مناظر المدن، إلا نادرا وهي تدفعني إلى الرقاد وسط هذه الأعشاب النامية بسرعة، هنا العينان تتوجّهان إلى السماء، والقلب منفتح ضائع في قلب المدى الفسيح؛ أسرح مع سماع تنهد الزهرة، التي تريد أن تركض عندما تتحرّر من طبيعتها البدائية، وصرخات بطّ

---

(١) - ينقل بلزاك هنا في وصفه لحركة النور والماء انطباعات ج. أسربي حول مالاحظه قرب شلال نهركيرو، كما انه هنا يستعيد وصفاً أعده في قصة فالثورن عن تجدّد الطبيعة في الربيع.

الإيدر الذي فقد صبره لأنه لا يملك غير الجناحين، وهو يذكّرني برغبات الانسان الذي يملك كل شيء ويرغب أيضاً بالمزيد! لكن هذا يا ولفرد هو من الخيال الشعري لدى النساء! تراودك فكرة شهوانية بملاحظة هذا المدى المتموّج الرائع وهذه الغلالات المطرزة حيث الطبيعة تبدو كخطيبة مغناج في هذا الجو وقد عطّرت لزفافها شعرها المخضر؛ أتريد أن ترى شكل ربّة الينابيع في هذا االستر الشفاف من الأبخرة؟ بينما يجب عليّ في رأيك أن أسمع الصوت الذكوري للسيل!

أجاب ولفرد: أليس الحبّ هنا كنحلة فوق تويج زهرة؟ ونظر إليها كأنه يلحظ فيها لأول مرّة آثار عاطفة أرضية تدفعه إلى الظن بأن اللحظة مناسبة للتعبير عن عاطفته الجيّاشة.

أجابت سرافيتا باسمة وهي ترقى صخرة لاحظت عليها، بعد أن تركتها مينا، أزهاراً من كاسرات الحجر الزرقاء: «أنت دائم التفكير بهذا إذاً؟».

أجاب ولفرد وهو يلقي عليها نظرة مهيمنة صادفت فيها قساوة الألماس: «أنت تجهلين على الدوام من أنا، وماذا أستطيع، وماذا أريد. لا ترفضي رجائي الأخير، كوني لي من أجل سعادة العالم الذي تحملينه في قلبك! كوني لي من أجل أن أمتلك ضميراً طاهراً، من أجل أن يرنّ في سمعي صوت سماوي موحياً لي بالخير في المشروع الكبير الذي عزمت عليه مسترشداً بحقدي ضد الأمم لكن سأتممه عند ئذ من أجل هنائهم إن صحبتني! أيّة مهمة جميلة تمنحينها عند ئد للحب؟ وأيّ دور رائع يمكن للمرأة أن تحلم به؟ إنني جئت إلى هذه المقاطعات وأنا عازم على أمر كبير!.

قالت: وستضحي بعظمته من أجل فتاة بسيطة ستحبّها وستقودك إلى حياة مطمئنة.

قال متابعاً حديثه: هذا لا يهمني! أنا لا أريد غيرك؛ إليك سرّي، لقد طفت جميع مناطق الشمال، هذا المعمل الكبير الذي تتكوّن فيه السلالات الجديدة التي تنتشر على الأرض كأبسطة بشرية منوط بها أن تجدّد الحضارات القديمة، وأردت أن

أبدأ مشروعي بواحدة من هذه النقاط، أن احتل فيه امبراطورية تمنح القوة والذكاء لقوم وتؤهلهم للمعارك والشروع في الحرب، وتنشرهم للحريق، فيفترسون أوروبة، وهم يصرخون منادين بالحرية لهؤلاء، والنهب لأولئك، بالمجد لهذا، والمتعة لذاك، ولكن على أن أبقى أنا كوجه القدر عنيداً وقاسياً أو أسير كالعاصفة التي تتمثل جميع القسيمات التي تشكّل الصاعقة، وأنا أتغذّى بالبشر كالكارثة الأكالة! هكذا سأخضع أوروبة، وهي موجودة في حقبة تنتظر فيها مسيحاً جديدا يجب أن يدمّر العالم ليعيد بناء المجتمعات. إن أوروبة لا تؤمن إلا بمن يسحقها تحت قدميه؛ وفي يوم ما سيبرّر الشعراء والمؤرخون تصرّفي، وسيعظمونني، وسينسبون إليّ أفكاراً كبيرة أنا من لم يقم بهذه المهزلة الكبيرة التي كتبت بالدم، إلا انتقاماً، لكنني يا عزيزتي سرافيتا، تقززت نتيجة ملاحظاتي من الشمال، فالقوة فيه غاشمة جداً، وبي شوق إلى الهند! فالصراع مع حكومة أنانية، جبانة، جشعة يستهويني بشكل أكبر. كما أن إثارة خيال الشعوب القابعة عند أقدام القوقاز أسهل من إقناع عقول البلدان المجلّدة في هذا المكان. إذا فاختراق السهوب الروسية والوصول إلى حدود آسية يغريني، هناك سأغطيها حتى نهر الغانج بالموجة البشرية المنتصرة وسأقهر السلطة الانكليزية المسيطرة. سبعة رجال حققوا في العصور الماضية هذه الخطة. سأجدّد الفنون كما فعل العرب الذين أطلقهم الإسلام إلى أوروبة. لن أكون ملكاً حقيراً كأولئك الذين يحكمون اليوم المقاطعات الرومانية القديمة الذين تخاصموا مع شعوبهم بخصوص رسوم المكوس. كلا ما من شيء سيوقف صواعق نظري، ولا عواصف عباراتي، ستطأ قدماي ثلث الكرة الأرضية كما فعل جنكيز خان[1]: وستقبض يدي على آسية كما فعل أورانزب[2]. كوني رفيقتي، اجلسي وجهاً جميلاً أبيض على عرش. أنا لم أشكّ أبداً بالنجاح لكن كوني في قلبي، فأغدو واثقاً منه.

---

(١) - جنكيز خان: (١١٦٠ - ١٢٢٧) مؤسّس أوّل دولة مغولية، استولى على الصين الشمالية تغلغل حتى روسية وأسس امبراطورية اشتهرت بنظامها القاسي.

(٢) - أورانزب: (١٦١٨ - ١٧٠٧) امبراطور مغولي من أحفاد تيمور لنك ساد في الهند واشتهر بقسوته فقد سجن أباه وأخته وقتل أخوته.

قالت سرافيتا: سبق أن ملكت.

كانت هذه العبارة كضربة فأس يوجهها حطّاب ماهر إلى ساق شجيرة فتّية فسقطت على الفور، إن الرجال وحدهم يعرفون الغضب الذي تثيره امرأة في نفس رجل يريد أن يبرهن لهذه المرأة المعشوقة عن قوّته أو سلطته أو ذكائه أو تفوّقه فتردُّ بنزوة وهي تهزُّ رأسها هذا لا شيء أو عندما تعتبر القوة خسة، فتبتسم بسخرية قائلة: «أنا أعرف هذا!»

هتف ولفرد قانطاً: أتعرفين ثروات الفنون، وكنوز العوالم، وأبّهات البلاط؟!.

أوقفته بحركة استنكار من شفتيها وقالت: «إن كائنات أكثر قدرة منك قدموا لي ما هو أفضل!»

– «ايه! أليس لك روح، ألا تغريك إمكانية مواساة رجل عظيم سيضحّي من أجل العيش معك في بيت صغير قرب بحيرة بكل شيء؟».

قالت: «ولكنني حظيت بحب لا حدود له».

صرخ ولفرد وهو يندفع نحو سرافيتا بحركة جنون ليلقي بها في شلالات السيغ المزبدة:

«ممن؟».

نظرت إليه فأحسّ بذراعه تتلاشى وأشارت بذراعها إلى مينا التي كانت تركض نحوها بضّة متوردة كالأزهار التي تحملها في يدها.

وقال سرافيتوس وهو يهرع إلى لقائها: «يا صغيرتي».

بقي ولفرد على أعلى الصخرة ساكناً كأنه تمثال، غارقاً في أفكاره، يودّ لو يلقي بنفسه في السيغ، كإحدى هذه الأشجار الساقطة فيه، والمنسابة منجرفة أمام عينيه لتذهب وتختفي في قلب الخليج.

قالت مينا وهي تقدّم باقة الأزهار للكائن المعبود: «لقد جمعتها من أجلك»

ثم أشارت إلى إحداها وقالت: أليست هذه مماثلة لتلك التي عثرنا عليها في الفالبرغ؟».

نظر سرافيتوس مرّة إلى الزهرة وأخرى إلى مينا وقال: «لماذا تطرحين عليّ هذا السؤال؟ أتشكين بي؟»

قالت الفتاة: «كلا، إن ثقتي بك لا متناهية؛ وإذا كنت بالنسبة لي أجمل من هذه الطبيعة الجميلة، فإنّك تبدو لي أيضاً أكثر ذكاءً من البشرية بأجمعها. ويخال إليّ أنني عندما رأيتك صليت لله. وأريدُ...

قال سرافيتوس وهو يرميها بنظرة، كشف فيها للفتاة عن المدى الشاسع الفاصل بينهما:

«تريدين ماذا؟».

- أريد أن أتألم بدلا عنك...

قال سرافيتوس في نفسه: «هذه هي أكثر المخلوقات خطراً؛ أتكون فكرة مجرمة انني أردت أن أقدمها لك، يا الهي!». ثم توجه إلى الفتاة وقال وهو يشير إلى قمة قبعة الجليد: «ألا تتذكرين ما قلته لك في الأعلى؟»

قالت مينا في نفسها وهي ترتعش خشية: «هوذا قد عاد رهيباً».

كان صوت السيغ يرافق أفكار هذه الكائنات الثلاثة الذين بقوا لبضع لحظات مجتمعين فوق مصطبة الصخور البارزة إنما منفصلين بلجج في العالم الروحاني.

قالت مينا بصوت فضي كاللؤلؤ، وعذب حسّاس كحساسية نبتة المستحية: إيه! يا سرافيتوس علّمني ماذا علي أن أفعل حتى لا أشعر بحبّك؟ من لا يعجب بك؟ إن الحب إعجاب لا يتعب أبداً.

قال سرافيتوس وقد شحب لونه: «يا للصغيرة المسكينة! لا يمكن أن نحب هكذا إلا كائنا واحداً.

سألت مينا: «ومن هو؟».

قال بصوت ضعيف كإنسان يرقد ليموت: «ستعرفينه!».

صرخت مينا: «النجدة! إنّه يموت».

هرع ولفرد فرأى هذا الكائن وقد استلقى برقّة فوق صخرة من الغنايس كساها الزمن بمعطف مخملي من أشنياته اللّماعة، وطحالبه البنفسجية وقد صقلتها الشمس فقال: كم هي جميلة!.

قالت وهي تستجمع قواها لتنهض: «هذه آخر نظرة استطيع أن ألقيها على هذه الطبيعة في العمل».

وتقدمت نحو حافة الصخرة، حيث كان يمكنها أن تعانق بنظرها ذلك المشهد الكبير السامي بروائعه المزهرة، والمخضرّة، والملأى حيوية، بعد أن كان في السابق مدفونا تحت جلباب من الثلوج

قالت: وداعاً يا بؤرة لا هبة من الحبّ، حيث كلّ شيء يسير بحماس من المركز إلي الأطراف، وحيث الأطراف تتجمَّع كشعر امرأة مسترسل لتجدل ضفيرة مجهولة تتعلق بها، في الأثير المبهم، بالفكر الإلهي!.

أترون هذا المنحني على ثَلَمٍ سقُيَ من عرقه، وهو ينهض لحظة ليسأل السماء؟أترون تلك الذي تحضن أطفالها لترضعهم من حليبها؟ وذلك الذي يعقد الحبال ليدرأ جبروت العاصفة؟ وتلك التي تجلس في تجويف الصخر منتظرة عودة الأب؟ أترون جميع هؤلاء الذين يمدّون اليد بعد حياة استهلكت في أعمال قاسية؟ للجميع السلام والمثابرة، للجميع أقول: وداعاً!

أتسمعون صرخة الجندي المحتضر المجهول، ونداء الرجل الضال الذي يبكي في الصحراء؟! لهما الجرأة والسلام، ولهما الوداع. وداعاً، إليكم يا من تموتون

من أجل ملوك الأرض؛ ولكن وداعاً أيضاً أيتها الشعوب التي لا وطن لها. ووداعاً، يا أراضي بلا شعوب، يا من يشتاق كل منكما إلى الآخر.

وداعاً، لك خاصة أنت يا من لا تعرف أين تضع رأسك، أيها المنفي السامي! ووداعاً، أيتها البريئات اللاتي جررن من شعورهن لأنهن أحببن كثيراً!

وداعاً، أيتها الأمهات الجالسات قرب أسرّة أولادكن المحتضرين! وداعاً أيتها الامهات الكليمات! وداعاً أيها الفقراء! وداعاً أيّها الصغار، والضعفاء، والمتألمين! أنتم يا من اقترنت غالباً بآمالكم. وداعاً، انتم يا جميع من تدورون في فَلَك الغريزة لأنكم تتألمون فيها من أجل الآخرين وداعاً، إيها البّحارة الذين يفتشون عن الشرق عبر ظلمات مجرداتكم الواسعة كالمبادىء. وداعاً، يا شهداء الفكرة التي قادتكم إلى النور الحقيقي! وداعاً أيّتها الآفاق المجدّة حيث استمع إلى شكوى العبقرية المهانة، وآهة العالم المستنير متأخراً جداً. هي ذي الموسيقى الملائكية، ونسمة العطور، وبخور القلب المتضوّع من قبل من يصلون، ويواسون، وينشرون النور الالهي والبلسم السماوي في القلوب الحزينة. الجرأة، ياجوقة الحبّ! أنتم يا من تهتف اليكم الشعوب: «واسونا، احمونا» الجرأة والشجاعة!

وداعاً، أيها الغرانيت الصلد، ستغدو زهرة؛ وداعاً، أيتها الزهرة ستصبحين حمامة، وداعاً أيتها الحمامة، ستنقلبين إلى إمرأة، وداعاً أيتها المرأة ستتحولين إلى آلام، وداعاً أيّها الانسان ستغدو إيماناً.

وداعاً يا صديقيّ فستصبحان حباً كلياً وصلاة.

هدّ التعب هذا الكائن المبهم فاستند لأول مرّة إلى ولفرد ومينا ليعود إلى منزله. وشعر ولفرد ومينا عندئذ بأنهما أصيبا بعدوى مجهولة. وما كادوا يمشون بضع خطوات؛ حتى ظهر دافيد باكياً وهو يصرخ من بعيد:

«لماذا جئتم بها إلى هنا؟ ستموت!» حمل العجوز سرافيتا بعد أن استعاد قوى شبابه وطار حتى باب القصر السويدي كأنه نسر يرفع حملاً أبيض وينقله إلى عشّه».

VI

الطريق إلى السماء

في غد اليوم الذي أحست به سرافيتا بنهايتها وأجرت وداعها للأرض ، كسجين ينظر إلى زنزاته قبل أن يغادرها نهائياً ، شعرت بآلام أجبرتها أن تبقى في سكون تام كاولئك الذين يعانون أمراضاً شاقة ، وجاء ولفرد ومينا لرؤيتها فوجداها مستلقية على اريكتها ذات الفراء ؛ كانت روحها التي ما تزال مغلفة بالجسد تشعّ عبر غلافها ، وهي تزيده بياضاً مع مرور الوقت ان الخطا التي تقطعها النفس بنجاح وهي تقوّض الحاجز الأخير الذي يفصلها عن اللانهاية ، تدعى مرضاً أمّا ساعة الحياة فتسمى موتاً ، كان دافيد يبكي وهو يرى سيدته تتألّم دون أن تستجيب لمواساته ، وغدا العجوز كطفل أخرق . كما رغب السيد بكر في أن تتلقى سرافيتا العلاج لكن جميع هذه المساعي ذهبت عبثاً . وذات يوم استدعت الكائنين اللذين محضتهما ودّها ، وقالت لهما إن هذا اليوم هو آخر أيامها السيئة . فجاء ولفرد ومينا وقد تملكهما الرعب ، فهما يعلمان أنهما سيفقدانها وابتسمت لهما سرافيتا مثل مسافر إلى عالم أفضل ، وأحنت رأسها كزهرة أثقلها الندى فأظهرت كمّها الآخر مرة وبثت في الأجواء أواخر عطورها ونظرت إليهما بكآبة مستوحاة من منظرهما ، فهي لم تَعُد تفكر بنفسها ، وشعرا بذلك من غير أن يقدرا على التعبير عن ألمهما الممزوج بالإمتنان . وبقي ولفرد واقفاً ، صامتاً ساكناً ، غارقاً في إحدى تلك

التأملات المستثارة بالاشياء التي تدفعنا رحابتها في هذا العالم إلى فهم المدى المتسع. وتجرأت مينا مدفوعة بضعف هذا الكائن الشديد البأس، أو على الأرجح بخشية فقده نهائياً فمالت عليه لتقول له: «سرافيتوس دعني اتبعك»

أجاب: «وهل يمكنني أن أمنعك؟»

– لكن لماذا لا تحبني إلى الدرجة التي تدفعك إلى البقاء هنا.

– لم أعد أعرف شيئاً أحبه هنا.

– ماذا تحب إذاً.

– السماء

– هل أنت جدير بالسماء إن ازدريت هكذا مخلوقات الله؟

– يا مينا، هل يمكننا أن نحب كائنين في آن واحد؟ أيكون الحبيب حبيباً إن لم يملأ القلب كله، ألا ينبغي أن يكون الأول والأخير والوحيد؟ ألا تقوم التي تمثل القلب كله بهجر العالم من أجل حبيبها؟ فعائلتها بكاملها تغدو ذكرى ولا يعود لها إلا نسيب واحد هو الحبيب! روحها ليست لها إنما للحبيب! وإذا احتفظت بشيء ليس له، فهي لا تحب، كلا فهي لا تحب! والحب بضعف ليس حباً! فكلمة الحبيب تملؤها غبطة وتجري في شرايينها أشد حمرة من الدم القاني، نظرته نور ينفذ إليها، وهي تنصهر به، فحيث يكون الحبيب يغدو كل شيء جميلاً إنه يبعث الدفء في الروح وينير كل شي، بقربه لا يحس المرء بالبرد أو بعتمة الليل أبداً؟ هو حاضر أبداً لا يغيب، هو فينا أبداً، نفكر فيه، وله، ومن أجله. هكذا يا مينا، أنا أحبه.

قالت مينا وقد تملتها غيرة قاتلة: من؟

أجاب سرافيتوس وقد التمع صوته في الأرواح كنار الحرية التي تشتعل من جبل إلى آخر: «الله؛ الله الذي لا يخوننا أبداً، ولا يهجرنا، ويلبي باستمرار رغباتنا، هو وحده يمكنه باستمرار أن يفعم خلقه فرحاً لا متناهياً لا يشوبه كدر! الله الذي لا يتعب أبداً، ولا يعرف إلا الابتسام! الله، الجديد دوماً، يلقي في الروح

كنوزه، ينقي، ليس فيه مرارة، هو تناسق كلي ووهج دائم! الله الذي يحلّ فينا ليزدهر، يستجيب لجميع أمنياتنا، لا يحاسبنا على شيء عندما نكون له، يعطينا نفسه كلياً، يبهرنا، يعظمّنا، يضاعفنا فيه! أخيراً هو الله!.

أحبّك يامينا، لأن بإمكانك أن تكوني له! أحبك، لأنك إن أتيت إليه، فستكونين لي.

قالت مينا وهي تجثو على ركبتيها: إيه! قدني إليه إذاً! خذ بيدي، لا أريد أن أتركك أبداً.

فهتف ولفرد الذي جاء فانضم إلى مينا بحركة عنيفة: خذينا يا سرافيتا، نعم، لقد ولدت في نفسي ظمأ إلى النور وظمأ إلى كلام الله؛ إنني متعطش إلى الحب الذي سكبته في قلبي. سأحتفظ بروحك في روحي. ألقي فيها بإرادتك، فأفعل ما تطلبين مني فعله. فإن لم أستطع الحصول عليك، فأنا أريد أن أحتفظ منك بجميع العواطف التي بثثتها فيّ! إذا لم أستطع الاتحاد بك إلا بقوتي الوحيدة، فإنني سأرتبط بك كما ترتبط النار بما تلتهمه. تكلّمي [1] !

هتف ذلك الكائن المبهم وهو يشملهما معاً بنظرة كأنها معطف لازوردي: «أيها الملاك! أيها الملاك، إن السماء ستكون ميراثك»!

---

(١) - يتضمن كلام سرافيتا الموجّه عدة مظاهر: وهي بوصفها طريقاً نسكياً تؤسس الافتداء الفردي على تدرج في أنواع النفوس قائم هو بالذات على كوسمولوجيا صوفية يقدّم لنا الفصل السابع (الصعود) توضيحاً فائقاً لها. الطريق النسكي الذي يقسمه بلزاك إلى عدة حيوات يعود في مصدره إلى آباء الكنيسة، والمؤلفين الروحانيين ويتجلى بصورة رئيسة بالمرور من الحياة النشطة إلى الحياة التأملية التي تطهّر وتنور وخلاص الروح، الذي يتمّ على مراحل وفقاً لحركة صاعدة من أفق إلى آخر، ينتج عن «درجات وجودها» وفق سويدنبرغ وعلى وجه الدقة حسب توزع الكائنات، بالغنوص الفالنتني «مادي» ونفسي «وروحي». ووفق هذه التقسيمات تطعم سرافيتا تسمية الأجواء في العالم بالأفكار كما حددها لويس لامبر: جو الغريزة، وجو المجرّدات، وجو الاختصاص، غير أن الجو الأخير المشروح متأخراً ينقص في سرافيتا والغنوص منقذ أي أن العقل بترقيه يصل إلى النور بعد أن يعبر العوالم الطبيعية والروحية والالهية.

ساد صمت عميق بعد تلك المناداة التي دوّت في روحي ولفرد ومينا كالنَغَم الأول من موسيقى سماوية. قالت تلك الروح المتألمة: «إذا أردتما أن تعوّدا أقدامكما على السير في الطريق المؤدية إلى السماء فاعرفا أن البدايات ستكون قاسية، فالله يريد أن يُسعى إليه لذاته، وبهذا المعنى فهو غيور، يريدكما بكليتكما، لكن عندما تهبان نفسيكما له فإنه لا يتخلى عنكما أبداً. سأترك لكما مفاتيح المملكة التي يسطع فيها نوره، حيث ستكونان في كل مكان في حضن الأب، في قلب الأب، في قلب الزوج، ما من حارس يمنعكما من الاقتراب منه، يمكنكما الدخول من كافة الجهات، فقصره، وكنوزه، وصولجانه، غير محروسة، يقول للجميع: «خذوها» لكن يجب أن تتوفر إرادة الذهاب اليه. وكما ينبغي من أجل القيام برحلة، ترك المسكن، والتخلي عن المشاريع، وتوديع الأصدقاء، والأب، والأم، والأخت، وحتى أصغر الأخوة الذي يصرخ باكياً، وتوديع الجميع وداعاً أبدياً، لأنكما لن تعودا كما أن الشهداء الذين يسيرون إلى المحرقة لن يعودوا إلى منازلهم ينبغي أخيراً أن تتجردا من العواطف والأشياء التي يتمسك بها البشر فدون ذلك لن تكونا منصرفين كلياً إلى مهمتكما. اعملا من أجل الله كل ما تعملونه من أجل أهدا فكما الأكثر طموحاً، ما تعملانه وأنتما مستغرقان في فن، ما كنتما ستفعلانه لو أنكما أحببتما مخلوقة أكثر منه، أو عندما تسعيان للكشف عن سر من أسرار العلوم الإنسانية، أليس الله هو العلم ذاته، الحب ذاته، مصدر كل شُعُر؟ ألا يمكن لكنوزه أن تثير الجشع؟ إن كنزه لا ينفد، وقصيدته لا تنتهي، وحبه لا يتغير، وعلمه معصوم عن الخطأ ودون أسرار لا تتمسكا بشيء فسيمنحكما كل شيء. نعم، ستجدان في قلبه خيرات لا تقارن بما خسرتماه على الأرض.

ما أقوله لكما أكيد، ستكون لكما قدرته وستستعملانها كما تستعملان ما للخليل أو للعشيقة. المؤسف أن معظم البشر يشكون، وينقصهم الإيمان، والإرادة، والمثابرة. إذ بدأ بعضهم بالسير، فسرعان ما يلتفت إلى الوراء ويعود. قليل من الخلائق يعرفون الاختيار بين هاتين النهايتين: إمّا البقاء أو الرحيل. إمّا الحمأة وإمّا السماء. وكل واحد يتردّد. ومع الضعف يبدأ الضياع، والهوى يقود

إلى طريق السوء والرذيلة، وهي عادة تورّط، فلا يستطيع الانسان احراز تقدّم نحو حالات أفضل. إن جميع الكائنات تمرّ بحياة أولى في جو من الغرائز حيث يجهدون للتعرف على عدم جدوى الثروات الأرضية بعد أن قاموا بآلاف الجهود لتجميعها؛ كم من المرات ستنقضي في هذا العالم الأولّ قبل الخروج منه محضّرين لأفق المجرّدات حيث يمارس الفكر العلوم الزائفة، وحيث تتعب الروح أخيراً من الكلام البشري؛ إذ عندما تستنفد المادة تأتي الروح، وكم من الأشكال التي وعدت بالسماء قد استهلكت قبل أن تتوصل إلى فهم ثمن الصمت والعزلة حيث الفيا في المرصعة بالنجوم هي رحاب العوالم الروحية! بعد اختيار الفراغ والعدم، تلتفت العيون نحو الطريق الصحيح، وعند ذلك يجب استنفاد وجودات أخرى للوصول إلى الدرب الذي يسطع فيه الضوء. إن الموت هو موقف إبدال مطايا هذه الرحلة، وتتم التجارب بعد ذلك في اتجاه معاكس: يلزم غالباً حياة بكاملها لاكتساب الفضائل المعاكسة للأخطاء التي عاناها الانسان سابقاً. وهكذا تأتي أولا الحياة التي نتألم فيها، حيث العذابات تولّد ظمأ للحب، ثم الحياة التي نحبّ فيها، وحيث الإخلاص للمخلوق يولّد الاخلاص للخالق، وحيث فضائل الحب، واستشهاداته الألف، وأمله الملائكي، وأفراحه المتبوعة بالآلام، وصبره، وقناعاته تثير الرغبة في الأشياء الالهية. بعد ذلك تأتي الحياة التي يبحث فيها المرء ضمن الصمت عن آثار كلام الله، وحيث ينشأ التواضع والإحسان. ثم حياة الرغبة وأخيراً حياة الصلاة. هناك الربيع الدائم، وهناك الأزهار، وهناك الحصاد! إن الميزات المكتسبة والتي تنمو ببطء فينا هي الروابط غير المنظورة التي تربط كل منا بوجوداتنا الواحد بعد الآخر، والتي تتذكرها الروح فقط، لأن المادة لا تستطيع أن تستعيد ذكرى أي من الأشياء الروحية. فالفكر وحده يمتلك تقاليد السابق. هذه الوصية المستمرة من الماضي للحاضر، ومن الحاضر للمستقبل هي سرّ العبقريات البشرية: إن للبعض هبة الأشكال، ولآخرين هبة الأعداد، ولهؤلاء هبة الإيقاعات. انها نجاحات في الطريق إلى النور. نعم فمن يمتلك إحدى هذه الهبات يلامس اللانهاية بنقطة؛ إن الكلام العلوي الذي أكشف لكما بعض كلماته هنا تقاسمته الأرض وحولته إلى

غبار، ونثرته في أعمالها، وفي مذاهبها، وفي أشعارها، فإن التمعت حبة دقيقة جداً في مؤلف تقولان: هذا عمل عظيم، هذا حقيقي، هذا سام». هذا الشيء القليل يهز كما ويشعركما بحدس السماء. للبعض المرض الذي يفصلنا عن العالم، وللآخرين العزلة التي تقربّنا من الله، لهذا الشعر، أخيراً كل ما يعطفكما على أنفسكما، ما يوثر فيكما وما يسحقكما، ما يرفعكما أو يحطّ من قدركما، هو صدى للعالم الالهي.

عندما يخط الانسان الثَلم الأول بشكل قويم، يكفيه من أجل تأمين الأثلام الأخرى: فكرة واحدة معمقة، أو صوت مسموع، أو ألم حيّ، فصدى واحد يلقى فيكما الكلمة يغير نهائياً روحكما. كل شيء ينتهي إلى الله؛ إذا فالخطوط كبيرة لتجداه بالسير باستقامة إلى الأمام وعندما يحلّ اليوم السعيد الذي تضعان فيه قدمكما على الطريق الذي تبدأ فيه مسيرة حجكما لن تعرف الأرض شيئاً عنكما، ولن تفهمكما ولن يتم التفاهم ما بينكما وبينها. إن الأشخاص الذين يبلغون هذه المعرفة، ويقولون بضع كلمات من الكلام الالهي الحقيقي؛ اولئك يجدون المكان الذي يريحون فيه رأسهم، سيلاحقون كالحيوانات المتوحشة، وينتهون غالباً على منصات الإعدام تحيط بهم أفراح الجماهير المجتمعة الصاخبة، بينما تفتح لهم الملائكة أبواب السماء. ستكون وجهتكما إذاً سراً بينكما وبين الله، كما أن الحب هو سرّ ما بين قلبين. وستكونان الكنز المخبوء الذي يدور حوله الأشخاص المتعطشون الى الذهب دون أن يعرفوا أنه بقربهم. ويغدو وجودكما دون انقطاع مليئاً بالنشاط، فكل عمل من أعمالكما له معنى يرتبط بالله، كما تكون التصرفات والأفكار في الحب ملأى بالمخلوق المحبوب. لكن الحب وأفراحه، الحبّ وملذاته المحدودة بالحواس هو صورة ناقصة عن الحبّ اللا متناهي الذي يربطكما بالخطيب السماوي. كل فرح أرضي متبوع بمرارات وعدم رضى ومن أجل أن يكون الحبّ بلا تقزّز ينبغي أن يتبعه الموت وهو في أوج متعته، وعند ذاك لن تعرفا الرماد، إنما سيحول الله بؤسنا إلى مسرّة، ويتضاعف الفرح من ذاته فينطلق متزايداً ولن يكون

له حدود، وهكذا ففي الحياة الأرضية، ينتهي الحبّ العابر بمحن مستمرة، بينما تنتهي محنة يوم في الحياة الروحية بأفراح لا متناهية. فروحكما مغتبطة دون انقطاع. تحسان بالله قربكما، وفيكم، يعطي لكل الأشياء طعماً مقدساً، يشعّ في روحكما، يدفعكما إلى اللامبالاة بالأرض من أجل نفسيكما، ويثير اهتمامكما به بإتاحة الفرصة لكما لممارسة قدرته. تصنعان باسمه التحف التي يوحى بها: تجففان الدموع، تتصرفان من أجله، لا تفعلان شيئاً لنفسيكما، تحبان مثله المخلوقات حباً لا يخمد، تريدان لها جميعاً أن تسير إليه كحبيبة حقيقية تريد أن ترى كل شعوب الأرض تخضع لحبيبها.

الحياة الأخيرة التي تختصر جميع سابقاتها، والتي تتوجه إليها كل القوى، والتي تفتح استحقاقاتها الباب المقدس على الكائن هي حياة الصلاة. وهي تجعلكم تفهمون عظمة الصلاة [1] وجلالها، وقواها. فليرنّ صوتي في قلبيكما وليبدلّهما. التزما فجأة بما كنتما ستغدوان فيه بعد التجارب. هناك مخلوقات محظوظة، كالأنبياء، والمستبصرين، والرسل، والشهداء، وجميع أولئك الذين يتألمون من أجل كلمة الله، أو الذين نادوا بها. هذه الأرواح تجتاز الأجواء البشرية بقفزة وترتفع فجأة إلى جوّ الصلاة. هكذا أولئك الذين ألهبتهم نار الإيمان. فكونوا من تلك الأزواج الجريئة. فالله يسمح بالمجازفة، وهو يحب أن يقبل عليه بعنف، ولا يرفض من يتمكن من الوصول اليه أبداً. أعرفا هذا! فالرغبة ذلك السيل من إرادتكما، بقوته الكبيرة لدى الانسان، تمكّنت بدفعة واحدة تطلق بقوة أن تنال كل

---

(١) - يكتب بلزاك في ١١ اذار ١٨٣٥ للسيدة هانسكا: «هناك مفصّل في الصلاة» بعنوان «الطريق للذهاب إلى الله» حيث ترد الكلمات الأخيرة للملاك الذي يرغب بالعيش روحياً. هذه الإشارة تلميح على الأرجح إلى مشروع مؤلف لم يتم أعد في ١٨٢٣ - ١٨٢٤ نشره ف. برتو مع مقدمة مطولة مؤخراً في العام ١٩٤٢ لكن بين العملين فرقاً كبيراً، فالأول عمل فلسفي صرف يتوجه إلى غير المؤمنين بهدف البرهان إلى أن في الإنسان استعداداً في الروح يجعله قادراً على أن يستمتع بغبطة مجهولة لدى كثير من الكائنات السيئة أو الجيّدة التعضي، وأن هذه المتعة تؤمنها الصلاة المتأملة، وهي من الحيوية والسعة بحيث أن الكائنات المهيأة للسمو تنصرف إليها كليّة. هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه نظامنا في الصلاة. فالصلاة تعتبر هنا كأنها ظاهرة نفسية مماثلة للعبقرية. أما في سرافيتا فوجهة النظر مختلفة.

شيء، صرخة واحدة تكفي غالباً تحت ضغط الإيمان. كونا واحداً ممن أفعموا قوّة وإرادة وحباً. كونا منتصري الأرض! وليستول عليكما الظمأ والجوع إلى الله! اهرعا إليه كما يهرع الظبي العطشان الى الينبوع، وسيسلمكما التوق بأجنحته، وستكون الدموع، هذه الأزهار من الندم، كمعمودية سماوية، ستخرج منها روحاكما مطهرتين انطلقا من حضن هذه الأمواج إلى الصلاة؛ والصمت والتأمل هما وسائل فعّالة للسير في ذلك الطريق. إن الله ينكشف دائماً للانسان المنعزل المتأمل. هكذا سيتم الفصل الضروري بين المادة التي أحاطت بكما طويلا بظلماتها والروح التي ولدت فيكما وأنارتكما، إذ سيكون الجلاء بيّناً في روحكما، ويتلقى عندئذ قلبكما المنكسر النور الذي يغمره، فلا تشعران أبداً بالإقتناع فيكما وإنما باليقين المؤكد الباهر. الشاعر يعبّر، والحكيم يتأمّل، والعادل يتصرف، ولكن من يستقر قرب العوالم الإلهية يصلي؛ وصلاته هي في آن واحد كلام وفكرة وفعل. نعم صلاته تحتوي كل شيء، وتضم كل شيء، إنّها تنهي لكما الطبيعة بكشفها لكما الروح والمسيرة انها الفتاة الناصعة الوضاءه بكل الفضائل البشرية، انها عقد تحالف بين الأرض والسماء، ورفيقة ناعمة تنتمي إلى الأسد والحمامة، إن الصلاة ستمنحكما مفتاح السموات هذه الملكة الجميلة التي لا تقهر، الشجاعة والنقيّة كالبراءة، القوية ككل شيء وحيد وبسيط، تعتمد على العالم المادي فتستولي عليه لأنها مماثلة للشمس، تضغط عليه بدائرة من نور. إن الكون يعود لمن يريد، ومن يعرف، ومن يتمكن أن يصلي، ولكن تلزم الارادة والمعرفة والقدرة وبكلمة واحدة امتلاك القوة والحكمة والايمان. وهكذا تكون الصلاة الناتجة عن العديد من التجارب اتماماً لكل الحقائق وكل القدرات وكل العواطف [1]؛ وهي ثمرة تطور

---

(١)- إن أفكار النور، واليقين، والتفكير، والفعل، والقوة، والبراءة، والحكمة، والروحنة، والكلام، والصمت التي تتآزر لإظهار تأثيرات الصلاة، والهبات للمصطفى في حالة الصلاة هي أفكار غنوصية وتذكر بصلوات الروح في رحلتها الكوكبية كما أشار اليها البيان الخطي للحناشيين الذي ذكره ج. فاتر: «تضطلع الروح بماهيتها المنيرة وتدخل في مجال القوة والعقل وتتخلص من المادة وتتقى بنفحة من صوفيا وتنادي شاريس وهو الصمت، وسر الفكر الذي لايُسبَر لبينتوس، وتقدم إشارة الصليب، الخشب غير القابل للفساد بنار الأهواء البشرية، الخشب الطاهر «الصورة المرسومة على شبه البراءة».

شاق، ومتدرّج، ومستمر بجميع الخواص الطبيعية، حيّة بنفحة الكلام الالهية، تمتلك نشاطات ساحرة، فهي آخر الشعائر، وليست هي التعبد المادي الحاوي علي الصور، ولا التعبد الروحي الحاوي على الصيغ، انها تعبد العالم الالهي. نحن لاننطق بالصلوات من بعد فهي تتوقّد فينا، وهي ملكة تتجلى بذاتها، وقد اكتست هذه الميزة من الفعالية التي تجعلها فوق الأشكال، وهي تربط آنئذ الروح بالله الذي تتحدان به كما تتحد جذور الأشجار بالأرض إن عروقكما تعود إلى مبدأ الأشياء، وأنتماتعيشان بحياة العوالم ذاتها. الصلاة تمنح القناعة الخارجية بإدخالكما في العالم المادي، بالتحام جميع قدراتكا بالعناصر البدائية؛ وتمنح القناعة الداخلية بتنمية ذاتكما ومزجها بذات العوالم الروحية. كي تتوصلا إلى أن تصليا هكذا، احصلا على انسلاخ كامل للجسد واكتسبا من نار بوتقات المطهر نقاء الألماس، ذلك أن هذا الاتصال الكامل لا يتمّ إلا بالراحة المطلقة، وبتهدئة جميع العواطف. نعم، الصلاة، وهي التوق الحقيقي للروح منفصلة كلياً عن الجسد، تحمل جميع القوى وتطبقها على الاتحاد الثابت والدائب للمرئي وغير المرئي. بامتلاك القدرة على الصلاة دون كلل، وبحب، وبقوة، وبيقين، وبذكاء؛ فإن طبيعتكما المتروحنة تتقلّد القوّة سريعاً؛ وكريح عاصفة أو كالصاعقة تعبر كل شيء، وتساهم في قدرة الله. تمتلكان سرعة حركة الروح، ففي لحظة يمكنكما أن تتمثلا في جميع المناطق، وتُنقلان ككلام الله ذاته من طرف إلى آخر في العالم، إنه تناسق وأنتما تساهمان فيه، إنه نور وأنتما تريانه، إنّه نغم وإئتلافه فيكما. في هذه الحالة ستشعران بعقلكما ينمو، ويكبر، وتصل نظرته الى مسافات خارقة؛ والواقع أنه مامن زمان ولامكان للروح [1]. فالحيز والوقت نسبتان خلقتا للمادة، وليس بين الروح والمادة علاقة. بالرغم من أن هذه الأشياء تتمّ بهدوء وصمت، ودون اثارة أو حركة

---

(١) - من كتاب رجل الرغبة للويس كلود دي سان مارتن يستخلص ف. برتلو عدة مقاطع أوحت لبلزاك بهذا الشرح عن الصلاة منها هذه المقاطع الثلاثة: ١ - «عنيفة كرياح الشمال العاصفة، ملتهبة كنيران بركان اتنا، دائبة كحركة النجوم هكذا يجب أن تكون صلاة الانسان». ٢- «ستشعر أن عقلك ينمو، ويصل بنظرته إلى مسافات خارقة بحيث يتملكك الإعجاب من خالق كل هذه العجائب. ٣- (وقد استخدمها بلزاك أولاً في المخطوطة للصلاة ثم حذفها منها ووضعها في وصف الحياة الروحية) وهي «إن الله يحولّ تعاساتنا إلى ملذات. . . يحول جميع النكبات الى مسرّات».

خارجية، ومع ذلك فإن الصلاة فعل، إنما هي فعل حيّ، مجرّد من كل جوهرية، وهي مختزلة إلى كونها كحركة العوالم قوة نقيّة وغير منظورة؛ تنزل في كل مكان كالنور، وتعطي الحياة للأرواح التي تقع تحت أشعتها؛ كما الطبيعية تحت الشمس. إنّها تبعث الفضيلة في كل مكان، وتنقّي، وتطهر جميع التصرفات، وتؤنس الوحشة وتعطي تذوقاً أولياً للملذات الخالدة[1]. ما إن تشعرا بمتع النشوة الالهية المتولّدة عن أعمالكما الداخلية، حتى يتم كل شيء! ما أن تمسكا بالمزهر الذي يعزف عليه الله حتى لا تتركانه أبداً، من هنا تأتي العزلة التي تحيا فيها الأرواح الملائكية وازدراؤها لكل الافراح البشرية. أقول لكما: إنهم مستثنون من عدد أولئك الذين ينبغي أن يموتوا، وإن كانوا يعرفون لغاتهم، فإنهم لا يفهمون أفكارهم ويدهشون من حركاتهم، ومما يسمى سياسة، وقوانين مادية، ومجتمعات. بالنسبة لهم لا يوجد سراً غامض، ولا وجود إلا للحقائق. أولئك الذين وصلوا الي النقطة التي تكتشف فيها عيونهم الباب المقدس، والذين لم يلقوا نظرة واحدة إلى الخلف، ولم يعبّروا عن أسف واحد، يتأملون العوالم وهم ينفذون إلى مقاديرها. ، هؤلاء يصمتون، وينتظرون، ويتحملون صراعاتهم الأخيرة، الصراع الأخير هو الأصعب، فالفضيلة الأسمى هي القناعة المطمئنة: أن يكون المرء في المنفى فلا يشكو، أن تعاف نفسه متاع الدنيا وتبتسم، أن ينصرف إلى الله وهو بين البشر. أنتما تسمعان جيداً الصوت الهاتف بكما: إمشِ! امشِ! وفي رؤية سماوية، غالباً ما تهبط الملائكة وتحيطكما بأناشيدها! عليكما دون دموع ولا تذمّر رؤيتهم يطيرون مجدداً الى القفير. الشكوى تعني الانحطاط. القناعة المطمئنة هي الثمرة التي

---

(١) – الميزة السحرية التي تبقى في هذا المفهوم عن الصلاة، تعتبر من المسارات الغنوصية، فالصلاة التي تبدّل الروح هي حالة المسارّ. ولا يتعلّم الغنوصيون فقط مسارّة العلم السامي: المعرفة الروحية، إنّما يكتسبون قدرات هائلة، لأنّهم يبدلون حتى الطبيعة: فمن كائنات مادية يغدون لا ماديين، لا ينفذ اليهم، غير مرئيين، مساوين لكريستوس وقادرين على صنع العجائب والسيطرة على الملائكة. وهم يعتقدون أنهم قد تلقوا القدرة على فعل ذات الأشياء التي فعلها المخلص ويؤكّدون أنهم يمتلكون كل علم، ويعرفون الخلق، ومبدعيه، وأسبابه، وأنهم يرون ويلتقطون كل شيء، وهم غير مرئيين ويتعذر تأثير القوى الكوكبية عليهم (عن ج. ماتر: المسارة لدى الغنوصيين ١٨٣٤)

تنضج على باب السماء. كم هي قوية وجميلة البسمة الهادئة والجبين النقي للمخلوق القانع! مشعّ هو النور الذي يزين هامته. من يعش في جوّه يصبح الأفضل، نظرته تتعمق وتحلو، هو أكثر فصاحة في صمته من النبي في كلامه، ينتصر بوجوده وحده؛ يصيخ بسمعه كالكلب الأمين الذي ينتظر وصول سيده. مخلوقة القناعة أقوى من الحبّ، وأكثر حيوية من الأمل، وأكبر من الإيمان؛ إنّها الفتاة المعبودة، تستلقي على الأرض فتحفظ عليها السعفة المكتسبة لفترة، وتترك فيها انطباع قدميها بلونهما الأبيض النقي وعندما لا يبقى لها من وجود يركض الناس متزاحمين ويقولون: «انظروا!» إن الله يحفظها كوجه تدبّ عند أقدامه أشكال البهيمية وأنواعها لتتعرف على طريقها؛ وتحرّك، في بعض لحظات، النور المشعّ من شعرها فترى، وتتكلّم فتُسمَع، ويقول الجميع: «اعجوبة» وغالباً ما تنتصر باسم الله؛ وينكرها الأناس المذعورون ويحكمون بموتها، فتسلم سيفها وتبتسم للمحرقة بعد أن انقذت الشعوب. كم من الملائكة المغفور لهم انتقلوا من الشهادة الى السماء! أليست سيناء والجلجلة هنا أوهناك؟! لقد صلب الملاك في جميع الأمكنة وجميع الآفاق. والتقربات تصل الى الله من جميع الأنحاء؛ والأرض التي نقف عليها هي إحدى سنابل الحصاد، والبشرية هي أحد الأنواع في الحقل الواسع الذي تزرع فيه أزهار السماء. أخيراً فالله مماثل لذاته في كل مكان، وأينما تتم الصلاة فمن السهل الوصول اليه.

عند هذه الكلمات التي نطقت بها شفتان كأنهما لهاجر [1] جديدة وافدة من الصحراء لكنها وهي تنفذ إلى الروح تحركها كما السهام المرمية من كلام الله تلهب أشعيا، ثم صمت ذلك الكائن فجأة ليستجمع قواه الأخيرة؛ فلم يجرؤ ولفرد ولامينا على الكلام.

---

(١) - هاجر هي الأَمَة المصرية لساره زوجة ابراهيم الشرعية التي ظنت نفسها عاقراً فدفعت زوجها إلى معاشرة أمتها فولدت له اسماعيل، لكن ساره حملت وولدت اسحق فطردت هاجر وابنها الى الصحراء حيث كاد الطفل أن يموت عطشاً، لكن ملاكاً ظهر للأم وأرشدها إلى نبع ماء حيّ، وهكذا فهاجر التي تخلى الناس عنها أنجدها الله. وكما قالت سرافيتا: «التضرعات تصل الى الله من جميع الأنحاء» إن مثال هاجر يختص في رأينا بحالة الروح المستسلمة لله، حيث الشهادة بذاتها صلاة، وهي حالة وصفتها سرافيتا، بالأحرى لهذه الكلمات ذات الحماسة المشبوبة التي تعلن فيها انقيادها الخاص لمشيئة السماء.

وفجأة وقف [1] منتصباً ليموت فهتف:

«يا روح الأشياء جميعها، يا الهي! أنت الذي أحبك لذاتك! أنت الحكم والأب، تفحّص هذا التوق الذي لا قياس له إلا طيبتك اللامتناهية؛ أعطني من ذاتك ومن قدراتك لأكون أحسن استحقاقاً لك. خذني حتى لا أكون أنا ذاتي، وإذا لم أكن قد وصلت إلى النقاء المطلوب، فأغرقني ثانية في أتون التطهير. إن كنت قد قُددت من حديد، فاجعلني سكّة مغذية أو سيفاً منتصراً! . امنحني شهادة ساطعة يمكنني فيها أن أنشر كلامك. إن طرحتني سأحمد عدالتك [2]. إن كان فرط الحبّ يحظى في لحظة واحدة بما يمتنع على جهود قاسية متواصلة فارفعني على عربة نارك! سواء منحتني النصر أو آلاما جديدة فإنني أسبح بحمدك! لكن أليس الألم من أجلك هو انتصار أيضاً! خذني، احتجزني، اقتلعني، احملني! وإن أردت ارفضني! فأنت المعبود الذي لا يعرف العمل السيء! .

ثم صرخت بعد فترة صمت: «آه! لقد تحطمت الروابط!

«أيتها الأرواح الطاهرة، أيّها القطيع المقدس، اخرجوا من اللجج، حلّقوا على سطح الأمواج الوضّاءة! لقد حانت الساعة، تعالوا! تجمعوا! فلنرتل على أبواب المعبد، فتراتيلنا تزيح السحب الأخيرة. فنلوحّد أصواتنا لنحيي فجر اليوم الخالد. هوذّا فجر النور الحقيقي! لماذا لا أتمكن من أن أصحب أصدقائي؟ وداعاً أيتها الأرض المسكينة!

وداعاً! .

(١) - استعملت هنا صيغة المذكر إشارة إلى أنه ملاك.

(٢) - الاستسلام الى الله هو الفضيلة القصوى المطلوبة من الروح قبل الدخول إلى السماء وهي مظهر رئيس من مذهب الطمأنينة التصوّفي الذي قال به فنلون والسيدة غويون، بشكل قبول للقرار الالهي وإن كان إدانةً أو رفضاً وهو مستمد من المذهب الأوغوسطيني في القدر والمصير.

VII

الصعود [1]

هذه التراتيل الأخيرة لم يعبّر عنها بالكلمة، أو بالنظرة أو بالحركة ولا بأيٍّ من الاشارات التي يستخدمها البشر لتبادل أفكارهم، وإنما كما تناجي الروح نفسها ففي اللحظة التي كشفت فيها سرافيتا عن طبيعتها الحقيقية، لم تعد الكلمات البشرية

١- كتب بلزاك للسيدة هانسكا في ١٥ تموز ١٨٣٤ «الفصل الأخير من التجلّي هو بالنسبة لي، مع مراعاة فوارق المقارنة، كما اللوحة لرفاييل» وهذا الفصل هو تتويج المذهب الصوفي، وهو يحوّل الفكرة الى صورة؛ فعبر صعود الروح الملائكية متطهّرة من أفق إلى آخر، وفقاً للأخرويات الغنوصية، يرسم الفيلسوف المستبصر مشهد السماء، ويمكن أن نكشف في هذه اللوحة عن تأثيرات عديدة لكن بلزاك استطاع أن يتمثلها ويهيمن عليها بشكل رائع. فهناك أولاً الأعمال الأدبية الكبرى: «ملاحم كلوبستوك، وميلتون، وتاس ودانتي، التي ذكرها في الصفحات السابقة، وهناك فيدرا لأفلاطون، وقد قرأها بلزاك وهي ترسمُ الطواف السماوي للخالدين وتصف المشاهد الطوباوية «التي تقدّمها التطوّرات التي يكون مجالها السماء، ويتمها بشكل دائري عرق الارباب السعيد» وهو يتأمل الحقائق قبل أن يحتل المكان المخصّص له ثم يعود- ليس كسرافيتا التي تضيع في داخل المعبد، وإنما مثل ولفرد ومينا- المتغذيين من رحيق الآلهة، وكوثر الحقيقة. (من قصة فيدرا- ترجمة ل. روبن. ١٨٥٠). وفي الرؤى الرومنسية لإلوا أو أخت الملائكة لڤيين، واللامتناهي في السموات (تناسقات شعرية ودينية) للامرتين، ويتم صعود الشاعر مقاداً بملاك سرافيم حتى الرحاب المقدسة في مواساة لسانت بوف، وفي الرؤى الموصوفة في «اليتيمة» للسيدة م. ولدور. إن استهلال فاوست لغوته يستحق اشارة خاصة، فالتوتر الذي يفصل الكائن الداخلي التوآق الى العودة إلى أصله عن الكائن الخارجي المقيد بالروابط المادية؛ ووجود الأرواح المتوسطة المشتركة بين جميع الميتولوجيات، وبخار الذهب، ونور السماء والظهورات والمشاهد التي تربط الرحلة بين الانجم التي يدعو الدكتور سيحية (وفيه كثير من ملامح فاوست) مستمعيه إليها في المبعدين مع صعود سرافيتا، تظهر مشهداً يتسم بالتناسق من جهة وأخرى للأفق الأعلى. وقد صرّح ميرسيا إلياد أنه دهش لهذا التناظر ويشرحه باستحضار «غوامض التطابق المتقابل والكلية» الذي يجد تعبيراً متميزاً في أسطورة الخنثى (مفيستوفلس والخنثى) أمآو. ليرغانغ فيقارب مقطعاً من فاوست مع مجموعة صور كونية لهيلدغارد دي بينجن الصوفي من القرن الثاني عشر ويبدي هذه الملاحظة: «يستقي كلا العملين من مصدر مشترك هو «الولتانشونغ» الغنوصي حيث جميع هذه الكيانات التي تتجمع بين الله والانسان: ملائكة ونجوم- رياح- أبخرة وعناصر- تحتل مكاناً كبيراً، كما أن مصير الانسان بين أيديهم. ////

تسيطر على أفكارها، وعنف صلاتها الأخيرة حطّم الروابط. وكحمامة بيضاء بقيت روحها للحظة متوضعة على هذ الجسم الذي راحت عناصره المستنفذة تتلاشى.

كان توق الروح الى السماء شديد العدوى حتى أن ولفرد ومينا لم يلاحظا الموت برؤيتهما الشرارات المشعّة للحياة.

ركعا عندما نهض سرافيتوس متوجّهاً نحو مشرقه وقاسماه انخطافه.

//// أما التأثيرات الدينية فواضحة في هذه اللوحة فعدا النماذج المستمدة من الكتب المقدسة: رؤى، ورفع أنبياء إلى السماء، وتجلي يسوع المسيح لبعض تلاميذه، يستوحي بلزاك نصوصاً إشراقية وغنوصية، وقد تأثر بسمو القصة التي يذكرها سويد نبرغ عن رفعه بواسطة ملاك عمل له كدليل في أول رحلة إلى الأراضي النجومية، وبرؤيا له في كوكب المريخ وصفها في مقال لمجلة باريس ثم ألغاها بعد ذلك، وكان ر. غينون. أول من أشار في مجلة غنور (العدد الخامس- آذار ١٩١٠) إلى أن بلزاك قد نسخ بشكل حرفي تقريباً، في هذا الفصل صفحة من رجل الرغبة للويس كلود دي سان مارتن وفي العام ١٩١٤ وضعت بولين برنهايم على التوازي نصوصاً من سرافيتا ورجل الرغبة، كما أن ف. بالانسبرجر يشير إلى هذه الاستعارات فقي توجيهات غريبة لدى اونوره دي بلزاك (١٩٢٧) وينسبها خطأ إلى رتبة الرجل الروح، وقد صحّح ف. برتو هذا الخطأ وأقام نصوصاً متوازية في طبعة لفصل الصلاة حيث نُجد الحركة الدورانية للعوالم، الصعود المستقيم للروح، وتطهرها التدريجي بالنور، تناسق جميع العناصر الحساسة المتروحنة، تناغم القوى السائدة في الآفاق العليا، الاستجوابات النهائية الموجهة إلى الملوك والعلماء والأغنياء. جميع هذه التأثيرات تجد نقطة اتصالها مع الغنوصية التي من خلالها ثم من بعدها يصعد بلزاك ويجد حتى على المستوى المسرحي في مؤلف ج. ماتر تخطيطاً للأنظمة الغنوصية مناسباً لإثارة خياله وخاصة في مخطط الحناشين وتمثيل بلروم دي فالنسينيان. في هذه الغنوصيات، كما في سرافيتا، تميز صعود الروح بعبور آفاق متدرجة على مراحل هي براهين تطهير باشراف ملاك أو رسول، وتميز كوسموغرافية (وصف الكون) الحناشيين بين الأدنى والأعلى مشهدين الأول يتألف من العالم الأرضي والعالم النجمي، والثاني هو البليروم أو العالم الالهي، ويفصل بين هذين المشهدين الجبهين أو التارتار حيث يذهب غير الهوائيين. إن الآفاق الأرضية محكومة بعبقريات المادة وهي تستجيب «للعالم الطبيعي» والآفاق الكوكبية تسود فيها الأرواح العليا ويمكن أن تتمثل، في حال البعد عن الاسطورة، «بالعالم الروحي» أما آفاق «العالم الالهي» وعددها سبعة فتشكل فيما بينها مجموعة علاقات أفقية وشاقولية تظهر توتراً نحو المركز وهو بيتوس أو الكائن الأسمي، وقمتها هي الحياة.

أما بليروم الفالنسينيين فيبيّن في داخل العالم الالهي آفاقاً عديدة مرتبطاً كل منها بالآخرين أو بالجميع أو بالحركة الدائرية والجيبية وهي تشكل دوّامة وفقاً لمحور صاعد، كل شيء يذهب من القمة النقطة الاصلية للعنصر نحو المركز الذي يشع، ويسترد كل شيء إليه، ويوصل كل شيء الى مصدره.

كانت خشية المخلص الذي خلق الإنسان مرة ثانية وغسله من أدرانه قد افترست قلبيهما .

انحجبت أعينهما عن أشياء الأرض وتفتحت على أنوار السماء .

وبالرغم من أنهما أخذا برعشة الله ، كما يحدث لأولئك المستبصرين المسمين أنبياء بين الناس ، فانهما قاوما ذلك مثلهم ، بوجودهما في المنطقة التي يلتمع فيها مجد الروح .

كان حجاب الجسد الذي حجبه عنهما حتى ذلك الحين قد تبخر شيئاً فشيئاً وأتاح لهما أن يريا العنصر الالهي .

لكنهما بقيا في شفق فجر الولادة حيث الأنوار الضعيفة تحضرهما لرؤية النور الحقيقي وسماع الكلام الحي ، دون أن يموتا .

في هذه الحالة بدأ الاثنان يتصوّران الفروق الشاسعة الفاصلة بين أشياء الأرض وأشياء السماء .

لم تعد الحياة التي وقفا على حافتها يؤازر أحدهما الآخر مرتعشين ، مُلهمين ، كطفلين هرعا إلى ملجأ توقياً من الحريق ؛ هذه الحياة لم تعد تقدّم للحواس أي معنى .

الأفكار التي استخدماها للإدعاء برؤياهما غدت بالنسبة للأشياء المستشفة كالأحاسيس الظاهرة للإنسان بالنسبة لروحه ، الغلاف المادي لذات إلهية .

كانت الروح فوقهما ، تعطر دون رائحة ، تنغّم دون الاستعانة بالأصوات ، هناك حيث كانا ، لا تصادف سطوح ، ولا زوايا ، ولامظهر .

لم يجرؤا عل سؤاله ، ولا على تأمله ، ووجدا نفسيهما في ظلّه ، مثل الوجود تحت أشعة شمس المدارين الحارقة دون المجازفة برفع العينين خشية فقدان البصر .

كانا يعرفان أنهما قربه دون أن يستطيعا تفسيراً للوسيلة التي مكّنتهما من الجلوس كما في الحلم على حدود المرئي وغير المرئي، وكيف لا يشاهدان المرئي، وكيف يمكنهما ملاحظة اللامرئي.

كانا يقولان في نفسيهما: «إن لمسنا سنموت» لكن الروح كانت في اللانهاية، وكانا يجهلان أن لا وجود للزمان ولا للمكان في اللانهاية، وأن لجحاً تفصلهما عنه رغم الإحساس أنه قربهما ظاهرياً.

لم تكن روحاهما مهيأة لتلقي معرفة قدرات هذه الحياة بشكل كلّي، ولم يكن لديهما إلا بعض مدركات مبهمة تتناسب مع ضعفهما.

من جهة أخرى عندما راح يدوّي **الكلام الحي** الذي وصلت أصواته البعيدة إلى آذانهما، ودخل معناه في روحيهما كما تتحد الحياة بالأجسام، فتشرّبتهما منه نبرة واحدة كاعصار من لهب يستحوذ على قشّة خفيفة.

لم يريا إذاً إلا ما سمحت لهما طبيعتهما المستندة إلى قوة الروح برؤيته، ولم يسمعا إلا ما في قدرتهما سماعه.

رغم هذه الطباع كانا يرتعشان عندما دوّى صوت الروح المتألمة، بنشيد النفس التي كانت تنتظر الحياة وتلتمسها بصرخة.

هذه الصرخة جمدتهما حتى نقيّ عظامهما.

قرعت **النفس** على **الباب المقدس**، فأجابها **خورس** رنّ استجوابه في العوالم: «ماذا تريد؟»

- الذهاب الى الله.

- هل انتصرت.

- انتصرت على الجسد بالتقشف، وانتصرت على الكلام الزائف بالصمت، وانتصرت على العلم المزيّف بالتواضع، وانتصرت على العجرفة بالاحسان، وانتصرت على الأرض بالحب، ودفعت الأتاوة المترتبة عليّ بالألم، وتطهرت بالاحتراق بالايمان، وتمنيت الحياة بالصلاة: وأنا أنتظر متعبداً ومستسلماً.

لم يُسمع أي جواب .

– ردت النفس معتقدة أنها قد رفضت [1] : فليكن اسم الله مباركاً»

سالت دموعها وسقطت كالندى على الشاهدين الجاثيين اللذين كانا يرتعشان أمام عدالة الله .

فجأة دوّت أبواق النصر التي حملها الملاك في هذه التجربة الأخيرة ؛ ووصل الدوي مخترقاً المسافات كالصوت والصدى فملأها ، وهزّ الكون وشعر ولفرد ومينا بصغرهما تحت وطأته فارتعشا متأثرين بقلق سببه التخوّف من السرّ الذي عليه ان يكتمل .

بدأت في الواقع حركة كبرى وكأن الجحافل الخالدة بدأت سيرها وتوضعت بشكل حلزوني ؛ والعوالم تُدّوم مماثلة لغيوم محمولة بعاصفة هوجاء . وتمّ كل شي ، بسرعة .

فجأة انشقت الحجب ، وشاهدا في الأعلى كما النجم لكنه أشد لمعاناً ، بما لا يقارن من أشد النجوم المادية بريقاً ، وقد انفصل وسقط كالصاعقة وهو يومض دائماً كالبرق فتخبو عند مروره كل ما اصطلح الناس على تسميته حتى الآن أنواراً .

كان هذا هو الرسول المكلّف باعلان النبأ الطيب ، وعلى خوذته ريشة هي لهب حياة . كان يترك خلفه أخاديد تمتلىء سريعاً بدفق الأنوار الخاصة التي يخترقها .

كان يحمل سيفاً وسعفة ومسّ النفس بسعفته ، فتغيرت النفس سريعاً ، ونشرت جناحيها الأبيين دون ضجة .

---

(١) – تمارس سرافيتا في تجربتها الأخيرة فضيلة الاستسلام كما شرحت استحقاقاتها لو لفرد ومينا وبلزاك ينقل هنا ضمن اتجاه مسيحي مذهب الحناشيين ، فالبنسبة اليهم ، تعرض الروح عند وصولها إلى الآفاق العليا ذاتها النيّرة وتطالب بحقها في حياة إلهية ، وتتوسل بشدّة إلى كاريس ليساعدها ، هذه التوسلات أو الإلحاحات استبدل بها مشهد محاكمة واستجواب من خورس الملائكة الذي يطلب حساباً عن الحياة الارضية وموقف المصطفى متواضع ومستسلم .

أحدث فيض النور [1] الذي بدَّل النفس إلى مـلاك سرافين، وارتداؤه شكله البهي وشكتّه السماوية، إشعاعات جعلت المستبصرين الاثنين مثل المصابين بالصواعق.

وكالرسل الثلاثة الذين ظهر المسيح امام أعينهم في تجليه؛ شعر ولفرد ومينا بوزن جسميهما يتعارض مع حدس كامل دون غيوم لكلام الله والحياة الحقيقية.

أدركا عند ذاك عري روحيهما وأمكنهما أن يلاحظا قلة النور حولهما مقارنة مع الهالة المشعة التي يرتع فيها السرافين ويبدوان إلى جانبها كلطخة مخجلة.

تملكتهما رغبة عارمة في أن يغطسا في حمأة الكون ليعانيا التجارب بحيث يمكنهما يوماً أن ينطقا بانتصار لدى الباب المقدس بالكلمات التي قالها السرافين المشعّ.

جثا هذا الملاك أمام المعبد حيث أُمكن أخيراً تأمَّله وجهاً لوجه وقال وهو يشير اليهما: أتسمح لهما بأن يريا المزيد إلى الامام؟، إنهما يحبان الربّ وسينشران كلامه. عند ذلك الرجاء سقط أحد الحجب، وسواء أكانت القوة المجهولة التي أثقلت على المستبصرين قد ألفت لفترة موقتة شكلهما الجسمي أو أنها عملت على انبثاق روحيهما خارجاً فقد شعرا في داخلهما بنوع من الفصل بين النقي وغير النقي.

---

(1) – عدة ملاحظات تحضيرية في نهاية فالثورن (سرافيتا) تتعلق بصعود مينا تظهر تشابهاً في المواضيع والتعبير مع الصفحات التالية، كما هو الأمر هنا فيما يتعلق باتصال النور منها: «غدت مركز نور جديد أكثر نقاءً من نور النهار. نور جديد أكثر نقاء وحيوية من نور الشمس دون أن يكون له عنقها غلفها إنما باحترام، ونشرت دفقاً من فضة وذهب كسحابة مشت عليها، وكانت في المركز بحيث بدا هذا النور وكأنه يتفجّر من مسام الشابة لأن مينا بدت مشعة بالتدريج وكأن هذا النور قد وهب عاطفة ينتشر كدم جديد وكحياة جديدة».

«هذه الغيمة الأثيرية، الأكثر ميوعة من الفكر، وسمواً من الروح، بدت أنها لا تحيط بها إلا لتدفع عنها كل لوثة، فتتويج الازهار، والماء النقي، وهواء الأرض، لاشيء جدير بها، ويجب ألا تسير إلا وهي محاطة... وألا تتنفس إلا جو السماء.

«كينبوع نقي يجري لأول مرة فوق رمل مذهب يسحر بنعومته عبر بساط من بلور، وكعين طفل بتفكير رجل تركت على مراحل نقاء قطرة الندى لتصبح براقة كحجر سفير كريم...

ارتفعت دموع السرافين حولهما بشكل بخار حجب عنهما العوالم السفلى، وغلفها، وحملها، ونقل إليهما نسيان المدلولات الأرضية، وأعارهما استطاعة فهم معنى الأشياء الإلهية.

ظهر النور الحقيقي وأضاء لهما المخلوقات التي كانت تبدو لهما قاحلة عندما رأيا النبع الذي تستقي منه العوالم الأرضية والروحية، والالهية، الحركة.

كان لكل عالم مركز تنشدُّ إليه جميع نقاط كرته، وهذه العوالم هي بالذات نقاط تنشدُّ إلى مركز نوعها، وكل نوع له مركزه نحو المناطق السماوية المتصلة **بمحرك كل ما هو موجود**، هذا الوهّاج الذي لا ينضب.

هكذا من أكبر العوالم حتى أصغرها، ومن أصغر العوالم حتى أصغر قسيمة تركّبها، كل شيء متفرد، ومع ذلك فالكل واحد.

ما هو تدبير هذا الكائن الثابت في ماهيته، وفي قدراته، التي ينقلها دون أن يضيعها ويظهرها خارجاً عنه دون أن تنفصل منه، ويصدر إلى خارجه جميع مخلوقاته الثابتة في ذاتها والمتحركة في أشكالها؟. إن المدعوين إلى ذلك الاحتفال لم يتمكّنا إلا من رؤية ترتيب الكائنات ووضعها والإعجاب بحالتها المباشرة، والملائكة وحدهم يستطيعون الذهاب الى أبعد من ذلك فيعرفون الوسائل ويدركون الغاية.

لكن ما أمكن للمصطفيين أن يتأمّلاه، وما حملا عنه شهادة أضاءت روحيهما بشكل دائم، كان البرهان على حركة العوالم والكائنات، ووعي الجهد الذي يشدّها إلى النتيجة [1].

---

(١) - هذه الرؤيا مستعارة من صفحة من كتاب رجل الرغبة للويس كلود سان مارتن وفقاً لتقصي ف. برتو «قوة مجهولة أثقلت عليّ سواء لأنها رسّبت مادتي فوق روحي أوجذبت روحي خارج جسمي القاتم، فقد فصلت فيّ النقيّ من غير النقي... نظرت باعجاب كيف يحرك هذا المصدر الشامل جميع الكائنات ويوزع على كل منها النار التي لا تنضب حيث يستمد كل شيء الحركة، كل فرد يشكل مركزاً تنعكس عنه جميع نقاط كرته الفردية. وهؤلاء الأفراد ليسو اهم بالذات إلا نقاط كرات خاصة تُركّب صفهم ونوعهم /////

سمعا مختلف أقسام اللانهاية تشكل تناغماً حياً وفي كلّ فترة يحسّ بالنغمة وكأنها شهقة تنفسيّة واسعة فتنجرُّ العوالم بهذه الحركة الإجماعية وتميل نحو الكائن الواسع الذي يخرج من مركزه المنيع كل شيء ويجذب كل شيء إليه.

هذا التناوب غير المنقطع من الصوت والصمت يبدو أنه الإيقاع الناظم للتراتيل المقدسة التي تتردّد متناغمة باستمرار من جيل إلى جيل عبر الأزمان [1].

أدرك ولفرد ومينا عندئذ بعض العبارات الغامضة لذلك الذي بدا لكل منهما على الأرض بالشكل الذي جعله معتبراً بالنسبة لأحدهما سرافيتوس، وللآخر سرافيتا، وذلك عندما تبين لهما أن كل شيء متجانس [2] هنا.

/// ويوجهها بدوره مركز، ولهذه الكرات مركز في مختلف ممالك الطبيعة؛ ولهذه الممالك مركزها في مختلف مناطق الكون وتتعلّق هذه المناطق بمراكز ناشطة منحت حياة لا تنضب ولها جميعاً مركز هو المحرك الأول والوحيد لكل شيء؛ هكذا كل شيء فردي والجميع واحد. من هو هذا الكائن الواسع الذي يرى من مركزه الذي لا يُختَرق جميع الكائنات، والأنجم، فالكون بكامله لا يشكل إلا نقطة في كرته التي لا قياس لها؟.

لم أر مع ذلك إلا ترتيب ووضع الكائنات، لكن ما كدت أثبت نظري على فعلها حتى اتسعت اللوحة، فعلُها هو الذي يلوّن عاطفة وجودها ويحمل إلى المركز الشامل لجميع الكرات شهادة بالاعتراف بتفوقه الحصري. (عن رجل الرغبة. ص ٧٨-٧٩)

(١) - تذكر بولين برنهيم هذا النصّ عن سان مارتن: «أسمع جميع أقسام الكون تشكّل تناغماً سامياً... وفي كل زمن يحسّ بهذه النغمة الشاملة تبدو الكائنات كلها، وكأنها مساقة بحركة مشتركة، جاثية أمام الخالد تكرّر مظاهر الاجلال والصلوات التي هي في آن الروح والحياة والايقاع الأكثر تناسقاً. هكذا يتمّ النشيد الذي تكلف كل الخليقة بإنشاده منذ أن ردّد صوت العليّ القدير أول تسبيحة مقدسة التي وجب أن تنتشر عبر الأجيال (رجل الرغبة ص ٨٠).

(٢) - من هذا المقطع بصورة خاصة استمد ب. ج. كاستكس فكرته وكتب «سرافيتوس- سرافيتا ليس خنثى وإنما كائن دون جنس (من كتاب القصص الخرافية من نوديه حتى موباسان -١٩٥١) فهذا المخلوق بالنسبة إليه هو أونتولوجياً (أي من حيث علم الكائن) غريب عن كل تمايز، والجنس الظاهر فيه يجب أن يعتبر فقط كظاهرة شخصية بدت تحت مظهرين متعارضين بالنسبة لولفرد ومينا. ووجهة نظر ب. ج. كاستكس ذات أهمية كبيرة فهو يثير الانتباه نحو المشكلة الأدبية والفلسفية عن العلاقة بين الكائن والظاهر بخصوص سرافيتا. ومن هذا الواقع تناقش دوافع القصد الواضح للمؤلف في اظهار كائن ذي طبيعة مضاعفة في طريقه لبلوغ حالة ملاك؛ وترجمة هذا القصد في المظهر النصّي للشخصية، والأنماط التصويرية المولّدة التي أطلقت منها المدلولات.////

كان النور يولّد النغم، والنغم يولّد النور، والألوان نور ونغم؛ والحركة عدّد وهب كلام الله. أخيراً كل شيء كان في آن معاً مرناً وشفافاً، ومتحركاً، بحيث أن كل شيء يتداخل بعضه في البعض الآخر، فالمدى لا عائق فيه، ويمكن أن تعبره الملائكة في عمق اللانهاية [1].

عرفا سخف العلوم البشرية التي تَحدَّثَ لهما عنها.

كان المنظر بالنسبة إليهما دون خط أفق، لجّة تخالجها رغبة حادة في أن يغطسا فيها، لكنها وقد ارتبطا بجسميهما التعسين عاجزان عن تحقيقها.

طوى السرافين جناحيه ليبدأ طيرانه،.فلم يلتفت اليهما البتة: لم يعد لديه شيء مشترك مع الأرض وانطلق: فألقت بسطة الريش الومّاض في جناحيه ظلا خيّراً على المستبصرين سمح لهما بأن يرفعا أعينهما ويراه محمولاً في مجده يرافقه رئيس ملائكة ينتشي فرحاً.

/// الشخصية الروائية لسرافيتا- سرافيتوس هي إذاً صورة الكائن الاسطوري غير المتمايز، لكن يبدو لنا أن هذه الصورة لا ترتسم إلا في نهاية التحوّل عندما يصل إلى حالة سرافين، ويدخل الكائن الأجواء السماوية حيث كل شيء متناسق، وبموجب قدر صوفي يتعلق بالعودة إلى البداية، فإن جميع طرائق الخلق، بالتقهقر، تندمج في العنصر البسيط. وبالمقابل فعلى الأرض يتخذ الحي شكلين- وبالنسبة لبلزاك فالشكل تحقيق للفكرة، وهو مظهر حساس للذات. فهذان الشكلان والحالة هذه هما ثنائية جنسية واضحة في الصورة، لا تبدو كإدراكات شخصية للشاهدين، وإنما تكّشفات جزئية للكائن المعني الذي يتكيف من أجل أن يكون مفهوماً، مع قدرات ذلك أو تلك المتوجّة اليهما برسالته.

من هذا الواقع، جدير بالملاحظة أن ولفرد ومينا لم يكتشفا الحقيقة غير المرئية للملاك إلا من خلال رؤية انخطافية وهو مجرّد من شكله الجسمي. كما أن ولفرد تلقّن سر سرافيتا عبر حلم ظهرت فيه كما هي، لكنها أضافت: «انظر تأملني أيضاً للحظة، لأنك لن تراني بعد ذلك إلا غير كاملة كما ترى الأرض من خلال شمس شاحبة». جزئياً على الأرجح لكن بشكل حقيقي وليس ذاتياً.

(١) - استعارة أخرى من سان مارتن، فات فليب برتو ذكر عبارتها الأولى:

«هذا لا يماثل أبداً مكاننا القاتم حيث الأصوات لا تقارن إلا بالأصوات، والألوان إلا بالألوان والعنصر إلا بمثيله. هناك كل شيء متناسق. فالنور يولّد اصواتاً، والنغم يولّد نوراً، والألوان حركة، لأنها حيّة، وتعبر في لمحة كل المدى (من رجل الرغبة ص ٨٠)

صعد كشمس مشعّة تخرج من قلب الأمواج لكنها أكثر جلالاً من النجم، وموعودة بقدر أكثر بهاء. لم يكن مقيّداً كالكائنات الدنيا بحياة دائرية، بل كان يتبع خط اللانهاية، ويتوجه دون انحراف نحو المركز الوحيد لينغمر في حياة خالدة وليتلقى في ملكاته وفي ذاته القدرة على الاستمتاع بالحب. وهبة الفهم بالحكمة[1].

المشهد الذي انكشف فجأة أمام أعين المستبصرين سحقهما بسعته، إذ أنهما أحسا كأنهما نقطتان لا يمكن أن تقارنا لصغرهما إلا بأقل جزء من اللانهاية يمكن لقابلية التقسيم لدى الانسان أن تتصوره ممثلا أمام لانهاية الأعداد التي لا يتصوّرها إلا الله وحده، كما يتصور ذاته.

أي حظّ وأي كبَر في هاتين النقطتين، كما القوّة والحبّ اللذين وضعتهما الرغبة الأولى لسرافينِ كحلقتين ليضما سعة العوالم الدنيا إلى سعة العوالم العليا.

فَهِما الروابط غير المرئية التي ترتبط بها العوالم المادية بالعوالم الروحية. ويتذكرهمَا الجهود السامية لأكبر العبقريات البشرية، وجدا مبدأ الأنغام بسماعهما تراتيل السماء التي تعطي أحاسيس الألوان، والعطور، والفكر، والتي تذكر بالتفاصيل التي لا حصر لها لجميع الخلائق، كما أن أغنية الأرض تحيي ذكريات الحب العاجزة.

وصلا بإثارة خارقة لقدراتهما الى نقطة دون اسم في اللغة، فاستطاعا أن يلقيا للحظة بأعينهما على العالم الالهي، حيث كان الاحتفال.

آلاف الملائكة كانوا يهرعون جميعاً برفةجناح واحد، دون التباس، جميعهم متشابهون؛ وجميعهم متنافرون، بسطاء كوردة الحقول، فسيحون كالعوالم.

---

(١) - ورد في رجل الرغبة أيضاً (ص٨٠- ٨١): وسط هذا المشهد الرائع، كنت أرى الروح البشرية ترتفع كشمس مشعة تخرج من صميم الأمواج، وهي أكثر جلالاً منها، ومهيأة لمصير آخر، وهي غير مقيّدة مثلها بمسار دائري حيث عندما تصل إلى آخر نقطة ارتفاع لها، تجبر على أن تنحدر دون أن تستطيع الثبات في مكان إقامته..

لكن باتباع خط اللانهاية سريعاً حيث اغترفت ولادتها، كانت ترتفع نحو قمة السموات، وتتوجّه دون أي انحراف نحو هذا المركز الوحيد، المستقر منذ الأبدية في الصف الأعلى، لا يمكنه أبداً أن ينحرف، أو ينزل عن العرش الحيّ حيث لم يحتج أبداً إلى الصعود.

لم يشاهد ولفرد ومينا وصول الملائكة ولا تواريهما، بذروا فجأة اللانهاية بوجودهم فكانوا كالتماع النجوم في الأثير المبهم.

كان وميض تيجانهم المتجمعة ينير الأكوان كما توهّجات السماء في اللحظة التي يظهر فيها النور على جبالنا.

من أشعارهم كانت تنبعث أمواج من النور، وحركاتهم تثير رعدات متموّجة مماثلة لأمواج بحر فوسفوري.

لاحظ المستبصران السرافين قائماً وسط الجحافل الخالدة التي كانت ترف بأجنحتها كما أوراق الأغصان في الغابات الفسيحة تداعبها الأنسام.

وكما مجموعة سهام كنانة أُطلقت معاً[1] طردت الأرواح بنفثة بقايا الشكل القديم للسرافين أثناء طيرانه الصاعد، فغدا أكثر نقاء، ولم يبق منه بعد لحظة إلا طيف خفيف مما سبق لهما رؤيته عندما تجلّى: خطوط من نار دون ظلال[2].

كان يصعد ويتلقى من دائرة إلى أخرى، هبة جديدة، ثم انتقلت اشارة انتخابه إلى الكرة العليا حيث صعد متنقياً على الدوام[3] فلم يصمت أي صوت، وانتشرت التسابيح بجميع أشكالها.

---

(١) - يأخذ بلزاك هنا أيضاً صوراً مستمدة من فالثورن (سرافيتا) حيث كتب: «كما كنانة أطلقت سهاماً في آن واحد، وجهت الشمس حزم نيرانها وأثلام نورها.

(٢) - كذلك تمثل انحلال الأشكال خلال صعودها السماوي في ملاحظات فالثورن (سرافيتا) فقد كتب: «لم يبق من هذه الأشكال الأرضية إلا رسم خفيف، خطوط لماعة كما محيط البلور، فكل ما هو جسم قد اختفى، فغدت كلها نور، كما الحشرة البراقة التي لا يظهر منها في قلب الظلمة إلا الشكل المضيء. لم تكن تحيا أبداً من الحياة الأرضية، والمظهر الوضاء من شكلها يصعد بحركة منتظمة، دون اهتزاز، كانت تنزلق كلية كما الملائكة الهابطة من السماء.

(٣) - تقارب جديد مع سان مارتن «كلما تدرّجت الروح البشرية نحو الخط اللامتناهي كنت أرى قدرات المناطق تقترب منها، تدعمها بأجنحتها، تطرد بنفثاتها الحيّة بقايا الأدران التي علقت بها خلال رقادها في العالم الأرضي، ثم تخط بأيديها النارية الشاهدة الأصلية لمسارتها بحيث يتهيأ لها الدخول سريعاً عند تقدمها إلى المنطقة التالية حيث تتلقى فيها تطهيراً جديداً (رجل الرغبة ص ٨١) إن فكرة الهبات السماوية الممنوحة للروح والجنيّات التي تقودها إلى البليروم هي من منشأ غنوصي وهي في المذهب الفالنتيني. (على مايشيرج. ماتر). ////

السلام لمن صعد حياً! تعالى يا زهرة العوالم! ؛ يا ألماسة خرجت من نار الآلام! يا لؤلؤة دون شائبة، يارغبة دون جسد، ورابطة جديدة بين الأرض والسماء، كوني نوراً! ياروحاً منتصرة، وملكة العالم طيري إلى تاجك!

أيها الظافر في الأرض، تناول إكليلك! وكن معنا [1].

راحت فضائل الملاك تظهر مع جماله، وبدت أول رغبة للسماء حلوة كطفولة نضرة وكما نخبة من كوكبات الأنجم كانت أفعاله تزيّنه ببريقها، ومظاهر إيمانه تلتمع كهياسينت السماء ذي اللون الناري النجمي؛ والاحسان يرمي عليه درره الشرقية، دموعاً متأملة، والحب الالهي يحيطه بوروده، وطمأنينته الورعة ترفع ببياضها كلّ أثر أرضي.

في أعين ولفرد ومينا لم يعد يظهر منه إلا نقطة من لهب تتأجج دوماً وتضيع حركتها في التهاليل الشجية المرحّبة بمجيئه إلى السماء [2] وقد ابكت نغماتها السماوية المُبعدين.

////يتم الخلاص بسلسلة من الطقوس الفعالة التي تتعلق بُرقْيات أو «كلام حياة» أو تقديم إشارة هي رمز أو أثر هو «ختم الحياة الذي تلقاه الكائن الروحي بالمعمودية خلال مسارّة من صوفيا.

إن تصوّر بلزاك أكثر تعلقاً بالإرادة، وهو يتبنى فكرة اشارة الإصطفاء إنما هي اعتراف باستحقاق مكتسب. ، إنها نقل اكتمال الهي إلى الروح التي حُضّرت لتلقيها هي سمو بالكائن، فهو يتلقى كلام الحياة لكن ليس كرقية. كلام الحياة هو جواب الروح على استجواب الملائكة، الكلام المنتصر للأثر الأخير من النقص البشري الذي يثير الهزّة الفَرِحَة في السماء.

(١) - في فالثورن (سرافيتا) عيّرت جوقة الملائكة هكذا: سلاماً لتلك التي صعدت حيّة- المجد لملكة رؤساء الملائكة- لجمة الأرض- عذراء العذارى- الوحيدة التي لم تخطئ، مجد الأرض المليئة من النور الحقيقي- ملكة النساء وملكة الملائكة- كلها حبّ، وكلها جمال، وكلها رحمة.

الإناء المقدّس المختار، عرش الفضيلة- الحبّ فضيلة لديها، وكل الفضائل من الحب ألف مرة جديرة بالسماء. هذه المدائح مستوحاة من المدائح الكاثوليكية للسيدة العذراء، وهي مترافقة بدعوة إلى ترتيلة ترحيب.

(٢) - نقرأ أيضاً في فالثورن سرافيتا: «التمجيد لمينا- والشفافية لمظهرها؛ هذا المظهر النقي كان يتوهج حيوية كلّما تقدّمت وتأججت كالطبيعة والشمس في الصباح- «إن بهاء الأرض هو ظلّ نور السماء»

ويبدو مديح الملاك في هذه الملاحظة: «في هذا الجو النقي النيّر، كان يبدو كل ما انفصل عن الروح، وكانت مينا جالسة على سحابة من الأعمال الخيّرة.

فجأة ساد صمت مميت امتد كحجاب قاتم من الأفق الأول حتى الأفق الأخير فأغرق ولفرد ومينا في انتظار لا يوصف. ففي تلك اللحظة غاب السرافين في قلب المعبد حيث تلقّى هبة الحياة الخالدة.

كانت لحظة عبادة عميقة ملأت المستبصرين بانخطاف ممتزج بالرعب [١].

شعرا أن الجميع يسجدون في الأجواء الالهية، وفي الأجواء الروحية، وفي أجواء الظلمات.

الملائكة يثنون الركب ركوعاً للاحتفال بمجده؛ والأرواح يثنون الركب ركوعاً للتعبير عن تلهفهم، أما الركوع في اللجج فمن الارتعاش رعباً.

انبثقت صيحة فرح عارمة كتفجّر ينبوع بعد انحباس يجدّد آلاف باقاته المزدهرة حيث تتلاعب الشمس وهي تنشر الجواهر واللآلىء قطرات منيرة، في اللحظة التي ظهر فيها السرافين متوهجاً وهو يهتف: «أبدي! أبدي! أبدي!» [٢] فسمعته الأكوان وعرفته، وتغلغل فيها كما يتغلغل الله، ممتلكاً اللانهاية وتحرّكت العوالم الالهية السبعة وردّت عليه.

في تلك اللحظة بدت حركة واسعة كأن الأنجم المتطهرة كلّها قد ارتفعت في إنارة مبهرة خالدة.

أيكون السرافين قد تلقّى كأول مهمة له أن يدعو إلى الله الخلائق التي نفذ إليّها كلامه؟

لكن هللويا السامية رنت في مسامع ولفرد ومينا كأنها آخر تموّجات خاتمة موسيقية.

---

(١) – توقع بلزاك منذ فالثورن «سرافيتا» (أي منذ ١٨٢٣ – ١٨٢٤) هذا الصمت بعد هتاف الملائكة: «بعد هذه الأوشعنا الأخيرة، انحنت الملائكة، وظهر على العرش صمت واسع مدّ سلسلته الجليلة من السرافين حتى الأرض، وعندما جلس كانت كل الأكوان ترتعش بحركة مفاجئة.

(٢) – جاء في «رجل الرغبة» لسان مارتن: جميع المناطق المتجددة بكلام الله والنور ترفع مثلك صوتها حتى السموات، فلا يوجد إلا صوت واحد يدوي الى الأب «قدوس، قدوس، قدوس، قدوس. . .

وبدأت الأنوار السماوية تزول كألوان شمس تغرب ملتفة بأقمطتها الأرجوانية والذهبية.

كان الشرير والموت يقبضان على فريستهما مجدداً.

أحس الفانيان، وهما يدخلان في روابط الجسد الذي كانت روحاهما قد تحرّرت منه لفترة، برقدة سامية مليئة بأحلام برّاقة، كانت ذكراها ترفرف في الروح، لكن الوعي يرفضها للجسم، واللغة البشرية لا تعرف التعبير عنها.

قال ولفرد لمينا: «فلنهبط إلى هناك».

أجابت: «فلنفعل كما قال، فبعد أن رأينا العوالم في سيرها نحو الله، عرفنا الدرب القويم، تيجان أنجمنا هي هناك في الأعالي.

تدحرجا في اللجج، ودخلا في غبار العوالم السفلية، ورأيا فجأة الأرض، وكأنها مكان جوفي أضيء مشهده بالنور الذي يحملانه في روحيهما والذي ما يزال يحيطها بسحابة تتكرر فيها بإبهام إيقاعات السماء وهي تنقشع. كان هذا المشهد الذي وقعت عليه الأعين الداخلية سابقاً للأنبياء، ورؤساء الأديان المختلفة التي تدّعي جميعها الصلاح، والملوك المختصين جميعاً بالقوة والرعب، والمحاربين والعظماء يتقاسمون الشعوب بالتبادل، وعلماء وأغنياء فوق جمهور صاخب ومتألم يسحقونه بجلبته تحت أقدامهم. كانوا جميعاً يرتدون ثياباً من ذهب وفضة، ولا زورد، مزّينة باللآلىء والأحجار الكريمة المنتزعة من باطن الأرض أو المسروقة من أعماق البحار، والتي من أجلها استخدمت البشرية منذ القدم وهي تعرق وتجدّف. لكن هذه الثروات وهذه الأبهات المجّمعة بالدماء كانت كالأسمال العتيقة في أعين المبعدين. صرخ بهم ولفرد: «ماذا تفعلون هنا، وأنتم مصطفّون، ساكنون هكذا؟!»

فلم يجيبوا! لمس ولفرد أيديهم وهو يصرخ بهم: «ماذا تفعلون هنا، مُصطفّين، ساكنين هكذا؟! وبحركة إجماعية فتح الجميع معاطفهم، فظهرت

للعيان أجسام متيبسة، منخورة بالديدان، متعفنة، مسحوقة، انتابتها الأمراض الرهيبة [1].

قال لهم ولفرد: «لقد قدتم الأمم إلى الموت، وأفسدتم الأرض، وزورّتم كلام الله، وعهرّتم العدالة، أبعد أن أكلتم عشب المراعي، تقتلون الخراف؟

أتعتقدون أنكم تبرّئون أنفسكم بإظهار جرحكم؟ سأنذر من بين أخوتي أولئك الذين مازالوا يستطيعون سماع صوت الحقّ ليتمكنوا من الذهاب ليرتووا من الينابيع التي حجبتموها عنهم.

قالت له مينا: فلنحتفظ بقوانا لأجل الصلاة. ليست لك رسالة الأنبياء، ولا المصلحين، ولا المرسلين. ونحن ما نزال على تخوم المستوى الأول فلنجرّب أن نعبر الأجواء على أجنحة الصلاة.

- ستكونين كل حبّي!.

---

(١) - من أجل هذا الاستحضار لجبابرة الأرض يستوحي بلزاك صراحة نصاً لسان مارتن يقول: «يا ملوك الأرض، توقفوا عن التباهي... ويارعاة الأرواح الذين أضعتم خرافكم بدلاً من قيادتها إلى المراعي...
ويا علماء الأرض الذين كانوا كثيري الحساسية لبدايات النور الكاذب...
ويا أغنياء العالم...
تعالوا لتدركوا هنا أقداركم.
أمسكت الروح بالعجوز حملته إلى الأماكن الجوقيّة...
وجد رؤساء كنيسة، وعظماء، مجموعة عديدة من الرجال والنساء جلوساً من كل جهة؛ وقد ارتدوا أثواباً مكسوة بالذهب والأحجار الكريمة.
سألت الروح: «ماذا تفعلون، وأنتم مصطفون، ساكنون هكذا؟! لم يجب أحد «ماذا تفعلون وأنتم مصطفون، ساكنون هكذا؟!. هزوا برؤوسهم ولم يجيبوا البتة. «ماذا تفعلون، وأنتم مصطفون، ساكنون هكذا؟!... لم يجيبوا أبداً، لكنهم فتحوا جميعاً وبحركة واحدة أثوابهم فبدت أجسامهم ينهشها الدود وتملؤها القروح.
أرعبت رهبة هذا المشهد العجوز، وكادت رائحة هذه الجروح تخنقه؛ وتركته الروح غارقاً في الدموع وأمرته أن ينذر أولئك الذين ما يزالون موجودين من أخوانه في منزل أبيهم (عن رجل الرغبة ص: ١٣٨-١٤٠)

- وستكون كل قوتي

- لقد لمحنا الأسرار العليا، ونحن، كل منا بالنسبة للآخر، الكائن الوحيد على هذه الأرض الذي غدا الفرح والحزن مفهومين لديه. فلنصلِّ إذاً، فلقد عرفنا الطريق، ولنسر.

قالت الفتاة: أعطني يدك، إن مشينا دائماً معاً، فطريقي ستكون أقل قساوة، أقل طولاً.

أجاب الرجل: معك فقط، يمكنني أن أخرق العزلة الكبرى دون أن أسمح نفسي بأي تذمر.

قالت: وسنذهب معاً إلى السماء.

أتت السحائب وشكّلت ظلّة قاتمة. وفجأة وجد العاشقان نفسيهما جاثيين أمام جثمان كان داقيد العجوز يحميه من فضول الجميع ويريد أن يدفنه بنفسه.

في الخارج كان يشع ببهائه أول صيف من القرن التاسع عشر، وخيّل للعاشقين أنهما يسمعان صوتاً من خلال أشعة الشمس، وتنشقا نفحة سماوية في الأزهار الجديدة وقالا في نفسيهما وأحدهما يمسك بيد الآخر: «إن البحر الواسع الذي يلتمع هناك هو صورة عما رأينا في الأعالي».

سألهما السيد بكر: إلى أين أنتما ذاهبان؟

قالا: نريد أن نذهب إلى الله، أتأتي معنا يا والدي؟»

جنيف وباريس: كانون أول ١٨٣٣ - تشرين ثاني ١٨٣٥.

دراسة حول الرواية والمؤلف

إعداد: هنري غوتيه.

مقدمة

هذه هي سرافيتا: المؤلف الذي ينتصب متوّجاً **الدراسات الفلسفية**، الأفق الثاني من الملهاة الانسانية، ويقع إن صحّ القول في قمة النتاج؛ **فالدراسات التحليلية**، وقد بدأت تظهر خطوطها الأولى، تقتصر على افتتاح المنحني لدائرة ثالثة غير محدودة، هذا هو المنهج الميتافيزيقي القائم مسبقاً في كتابات الشباب، وهذه باختلاطها مع البحوث السيكولوجية، الفيزيولوجية ومن ثمّ الباطنية في رواية **لويس لامبر** تنظم رؤية الإنسان والعالم، وتضمن تماسك تأليف بلزاك برمته، إن وجود هذا النصّ وموقعه يشوّشان زمرة القراء الذين لا يرون في بلزاك إلا شاهداً على حالة عابرة للمجتمع، وسياسياً خارج تيار التاريخ، ومنحصراً في جدليته رغما عنه، مجمّع وقائع صغيرة حقيقية؛ قصاصاً أنيساً أو مبالغاً، هاوياً للخرافة أو كاتب سيناريو عن الحياة اليومية.

كيف يمكن إنكار قصد المؤلف، وهو البحث عن واقعية الموجود بوصفه موجوداً واحداً رغم تعدّد مظاهره، وفهم الإنسان عبر ملاحظته للناس؟ كيف تُرفض تأكيداته المتكررة بأن ثمة نظاماً يهيمن على إنشاء الخيالي عنده، وكيف نأخذ عليه الأولوية التي يعطيها في هذا النظام للمفاهيم الفلسفية المولدة لرؤيته للعالم والإنسان؟

أيّاً كان الأمر فإنّ **سرافيتا** موجودة، ونراها مترسخة في الوجود عندما ننتهي من قراءة مؤلفات بلزاك؛ وإذا كان المراد الإقرار بأن المعنى الأخير لتأليف يجب أن يشمل جميع المعاني الخاصة حتى لو بدا بعضها يخالف بعضها الآخر، فعلينا البحث عن معنى سرافيتا وقيمتها بالقياس إلى مجموع مؤلفات بلزاك.

إن المخطّط الاختزالي الناظم لمشروع بلزاك الأدبي، والذي يقود القارئ من ملاحظة الطبائع إلى البحث عن أسبابها، ثم إلى اكتشاف مبادئها الأولى، هذا المخطط ذو دلالة سابقة. وتنتمي **سرافيتا** إلى مرتبة عالية فيه؛ فيجعل بلزاك؛ ولفريد، وهو يتحدث عن الشخصية يقول: إنها ليست مخلوقة بسيطة، بل هي خلق كامل». وقد كتبت السيّدة بوتاكا إلى بلزاك في ٤ آذار ١٨٣٤: نقرأ **سرافيتا**، إنها بالتأكيد أجمل وأنبل تعبير عن هذا الكائن الذي تسميه بحق ً**خلقاً** وليس **مخلوقاً**، والذي تلومني لأنني لم أعرف كيف أتعمق فيه؟ تدعو لاحقة بسيطة إلى النقل من مستوى التمثيل الروائي إلى مستوى الإيقونة الفلسفية. وهنا يحقق بلزاك طموحه في أن يضبط المعنى الخفيّ لهذا التجميع الهائل من الوجوه التي يصفها في قصصه ورواياته.

إنها عبارة رئيسة! فالوقائع هي دلالات الحقائق الكامنة، والنجاح الفائق هو في إظهار العلاقة التي تقوم بين الشكل والفكرة التي تحدّده، فالشخصيات تعتبر عند ذاك وجوهاً إثباتية لإيديولوجية.

لا تهدف **سرافيتا** إلى أقل من أن تكون شرحاً كاملاً للإنسان والعالم. وهي تستجيب للرغبة المعبّر عنها مراراً في أن يكتب بحثاً، على غرار لويس - كلود دي سان مارتن[1]، عن العلاقات القائمة بين الإنسان والعالم والله؛ فالكاتب وهو في آن واحد شاعر وفيلسوف هو «من أولئك الذين يبحثون عن إعطاء معنى

(١) - هو مؤلف «لوحة طبيعية عن العلاقات التي توجد بين الله والإنسان والكون» وهي تشمل عدة كتب صدرت في ادمبورغ ١٧٨٩، ١٧٩٢؛ ولندن ١٨٠٨. وقد عبر بلزاك عن مثل هذا الهدف على لسان لامبر في رسالته لخاله: «إن فكرتي هي في أن أحدّد العلاقات الحقيقية التي يمكن أن توجد بين الانسان والله».

للإنسانية[1]» يجدر إذن تناوله من وجهة النظر هذه؛ أما المنهج الذي تمثّل بين ١٨٣٢ و ١٨٣٥ بالإنشاء التناوب لروايتي **لويس لامبر وسرافيتا**، والذي يمكن استشعار هواجسه وأصوله بسهولة في المحاولات الفلسفية الجارية في مطلع الشباب، كما في الانتاج الروائي الأوّل الذي يشوب المؤلفات اللاحقة، فيفرض بعد كل حساب وضع المجموع؛ وبإعادة قراءة **الملهاة الانسانية** بعد تحليل **سرافيتا**، فإن إضاءة جديدة تغيّر الكائنات والأشياء، إذ يلاحظ أن لاشيء أطلق اعتباطاً، فإن بوادر الأفراد وتصرفاتهم تندرج في حركة متعالية، وأن الزمر الاجتماعية الصغيرة تتصل وترتبط بآفاق كونية؛ وأن الأشياء والأجسام والمنازل والشوارع والمناظر، وكلّ المادة، تندمج بالعنصر الأوّلي، وأن العقل، والرغبة، والهوى، والإرادة، وكل قوة حيّة، تساهم في الحياة الكونية، وأن كل المخلوق هو نمط من أنماط الالهي اللامخلوق.

إن محاولات الشرح المنفصلة، التي انصرف إليها بلزاك سابقاً، تنتهي الى نظرة موفّقة وشمولية، وينتج عن ذلك أن تفسير أو شرح رواية مستقلة- ذات خاصة غالبة ماديّة أو روحيّة- لا يرجع إلى النظام المركزي، لن يقدم إلا أحد الوجوه التضادية، مما يسبب تشويهاً لفكر بلزاك.

-I-

كان يمكن أن يبدو مشروع الكاتب محاولة خرقاء: تدوين تأمل ميتافيزيقي بلغة روائية، وإظهار المغامرة الانسانية في أبعادها الصوفيّة، واختيار شخصية لها متمثلة في كائن اسطوري، نصف انسان- نصف ملاك، نصف رجل- نصف امرأة وتناوله من خلال تطوّر ينقله من الأرض إلى السماء، ويحوّل بقاياه البشرية إلى نور ملائكي؛ والاقتراح على علمويي العصر مشاركة الاشراقيين معتقداتهم، وتطبيق مبدأ الطبيعيين في «وحدة التركيب» للكون العضوي على الكون غير المرئي،

(١) - عبارة من قصة «الولد الملعون»

وربطهما بالقوانين نفسها؛ وبيان مصير الانسان، والمصير المماثل للعوالم، من ضمن وصف فخم للحركة الخالدة للأجواء السماوية، وجعل الأسرار الخفية محسومة، إنه إبداع اسطورة: وليس كثيراً من أجل نتيجة كهذه استخدام جميع مصادر الفكر والتخيل واللغة.

أدب ذو صور وأفكار إلى الدرجة الأسمى! فالفكرة تصنع صورة، والصورة تحمل الفكرة، عبر كتابة تتمّم وظيفة كشف. وينبسط وصف الواقع متشكلاً ضمن نظرة متجاوزة للواقع؛ فالأشياء المألوفة، والملابس، والمساكن موصوفة وفق استدلال صحيح، ويبدو التصرّف اليومي معنياً بكائنات، إنما هي في ذاتها نماذج ممثلة ليس لشكل طبع أو نوع مجتمع، لكن لحالة روحانية: فتطوراتهم لا ترسم الحركة في الرواية فقط، وإنما ترقّيهم في العالم المعنوي؛ وترتيب القيم يدور حول القدرة على التقاط غير المرئي والقصد اليه وهو يحدّد تصنيف الكائنات، فما بعد الأنواع الحيوانية، والأنواع الإجتماعية، توجد أنواع روحية، والطبيعة تشترك بتحوّلاتها في هذا العالم الدلالي: هي العلامة والمقابل لتحوّلات الكائنات الحيّة.

ولا يوجد إلا جوهر واحد وحركة واحدة. الكلّ يقول الاسطورة التي إذ تربط بين الإنسان والعالم والله تقيم القوانين العامة التي تحكم وجودهم، وتسجّل بأحرف من نور قصيدة تمجّد الملهاة الانسانية وتجعلها إلهية، وقد كتب بلزاك في مقدمة **الكتاب الروحاني** بأنه شعر في وقت مبكّر بأن مذهب سويدنبرغ هو «بمثابة ملهاة إلهية جديدة».

تخطيط القصة رائع وبسيط، وهو يسجّل النصّ- الموضوع في النصّ المولّد له، يدرجه بلزاك في ألبومه بتأثير سيّالة إلهام مفاجئة، ثم يؤكده بعد ذلك بثلاثة أيام في رسالة إلى السيدة هانسكا. هو إظهار لكائن ذي طبيعة مضاعفة، اعتبر ملاكاً أرضياً، وهو هدف حب تنافسي لرجل وامرأة؛ لكن بوصوله إلى تحوّله الأخير، وبإظهاره في صعوده إلى السماء قابلية الكمال للكائن البشري، يطلق رسالة يعتبر فيها الحب الزوجي الوجه الحقيقي للخُنثى الروحاني، ويجسد مقدّماً إعادة التشكل

للوحـدة الأصليـة للكائن التي تنتظر الانسـان المتحـوّل إلى ملاك في قلب العنصـر الالهي.

في الـواقع، ينتـصب منذ البـدء وجـه اسطوري، وهـو ناتج عن تبلور أفكار سابقةرسمه بمنظر تحفة تشكيلية: هي تمثال ملاك من صنع النحات برا [1]. حُبِكَ فوراً نسيج من الأفكار والصور حول الأحلام الطويلة لشباب المرأة الملاك، والمثالية الرومنسية. ونظرية الملائكة التي سبق أن استعارتها رواية لويس لامبر من سويد نبرغ، وحول موضوع الخنثى الذي استخدمه هنري لاتوش في فراغوليتا [2]. وهكذا فإن شكلاً يحيي فكرة؛ وبعودة جدلية تأخذ الفكرة جسداً وحياة ومعنى؛ ويغدو الكائن الخرافي شخصية في رواية، لكن حوله وبواسطته ومن قبله تتطور أنظمة تفكير ومفاهيم تبرّر في الوقت ذاته الأسطورة، وتفرض رؤية منطقية للوجود الحقيقي؛ وتبدو وكأنها ضرورية تقمصات الشخصية عبر قصة من خرافية خارقة يتحول فيها متزحلقاً على الثلج يندفع كالسهم على قمم تبعث الدوار شأنه شأن ملاك سرافيتي يحلق نحو السماوات.

تظهر بُنى المؤلَّف ومراحل إعداده حركة أخذ وعطاء بين الشخصية والمنهج، بين وظيفتي الرمز والرسول، تلك الحركة التي يملؤها الكائن الأسطوري الذي تعنيه سرافيتا بما هي، وتتحول إليه بما تقول والازدواجية البنيوية للمؤلّف تظهر في التمييز بين فصول يبرز الخيال فيها المشاهد و الصور، وفصول يسيطر فيها التعليم والإرشاد؛ لكن الوحـدة العـميـقـة هي في هذا الاجـتـمـاع الرئيس بين هـذين العنصرين: الكلام يشرح تطور الشخصية، وهذا التطور يصوّر النظام المجرّد.

---

(١) - كتب بلزاك في ٢٠ تشرين ثاني ١٨٣٣ إلى السيّدة هانسكا: «كنت الأحد الماضي- ١٧ تشرين ثاني عند برا BRA النحات، ورأيت هناك أجمل لوحة يمكن أن توجد، ولا استثنى جوبيتر الأولمبي، ولاموسى، ولا فينوس، ولا أبولون هو تمثال للعذراء تحمل الطفل يسوع بين ملاكين».

ثم يكتب بعد ذلك في رسالة للويز في نهاية آذار ١٨٣٦ : «يجب الذهاب إلى محترف برا ومشاهدة تمثال العذراء، والوقوف لفترة أمام ملاك اليمين، فهذا هو سرافيتا»

(٢) - فراغوليتا FRAGOLETTA: رواية سبق أن كتب عنها بلزاك تقريراً لمجلة «مركور دي فرانس، العام ١٨٢٩» وهي من تأليف هنري لاتوش (١٧٨٥ - ١٨٥١).

ينتظم المؤلف بشكله الحالي، وفق توال، مترابط، بالرغم من أن التفريق بين الفصول ومزج الأجناس الارشادية والمشهدية فيها شيء من التكلف. وأيّا كان الأمر، فإن تطوراً متوازياً يقوم بين سياق السرد ومجرى الارشادات؛ فمن البداية الوصفية المحدّدة لاطار النروج إلى النهاية التي ترسم المشهد المتخيّل الذي يجري في السموات عبر مشاهد شائعة، أو خيالية، أو دينية تقع في منزل قسّ القرية، أو في القصر السويدي، أو على ضفاف نهر السيغ، واللحظات المخصصة للتعليقات على تجربة العالم، والشروح عن الفلسفة العالية أو المسارّات المتحمّسة، نشهد تحوّلات متتابعة للشخصية ونسمع بالتدريج كلامها الرسولي.

إذا كان مخطط القصة وترتيب الفصول قد ثبّتا باكراً، فإن إنشاء المؤلف لم يسر وفق توقعات الكاتب. فالاقسام قد كوّنت بطريقة مستقلة وفق الالهام أو حسب حالة القراءات والأفكارولم تحظ بأهميتها الحقيقية إلا بعد تنقيحات عديدة. وبتتبُّع مراحل التأليف تمّ التوصل إلى ملاحظات ملفتة للنظر.

يفرض الفصلان الأوّلان المعدّان في نهاية العام ١٨٣٣ موضوع الملاك -الخنثى [1] ويظهران قدراته الغريبة، ويقيمان علاقاته الملتبسة مع ولفرد ومينا بعد ستة أشهر، أي في حزيران ١٨٣٤ ينشيء بلزاك بداية الفصل الثالث، حيث تتلقى سرافيتا بعد شرح مذهب سويدنبرغ، ، الأصل العجائبي، وتتحول نحو الكائن الروحاني. وفي الشهر نفسه، من الممكن (بالاعتماد على التاريخ المضاعف المسجّل على المخطوطة »حزيران ١٨٣٤ - ١٨٣٥») أن يكون بلزاك قد صاغ مسودة الفصل الأخير - الصعود- الذي فكّر فيه منذ شهر شباط. يبدو إذاً أن بداية الرواية ونهايتها قد دبّجتا كتابة أو على الأقل في فكر بلزاك خلال فترة قصيرة من الز من، ليصف بحر كة واحدة الطبيعة، والخاصيات ومصير «الروح الملائكية». يلي ذ لك انقطاع طويل، ثم في زمن ثان، في العام ١٨٣٥، يعطي بلزاك لشخصيته ميزة الرسول الالهي، بالتأكيد على التشابه بين حياته ورسالته، وحياة يسوع المسيح ورسالته،

---

(١) - الذي هو في الوقت ذاته ذكر وأنثى. (المترجم)

وإقامة نفسه معلماً مرشداً، ولسان حال ديانة جديدة. وهكذا فإن العناصر المشهدية والمرئية قد ترجمت في النص قبل التطورات التصورّية وبشكل أسهل. ومن الجدير بالملاحظة أن البنية الأسطورية قد رسمت قبل أن تتخذ المناهج ،التي يجب أن توضحها، شكلها. .

- إن ترتيب إنشاء الأقسام المذهبية ليس أقل دلالة، وإذا كان البيان الموضّح لمذهب سويدنبرغ قد ظهر في مطلع الفصل الثالث منذ حزيران ١٨٣٤ ، فإنّه يشكل فاتحة ليس لها فائدتها إلا بصفة مرجع تيوزوفي لتبرير وجود الملائكة على الأرض. أما ما يتعلق بالأبحاث والتأملات البلزاكية بالضبط، فيلاحظ بأن مذهب سرافيتا المساريّ الموجود في الفصل السادس «**الطريق للذهاب إلى السماء**» قد انشئ بين الأول والعاشر من آذار ١٨٣٥ ، وقد سبق النظام الانتروبولوجي الذي يضمّ وصفاً لولفرد في نهاية الفصل الثالث (الفصل الخامس من المخطوطة الذي أنشئ في نهاية الشهر ذاته - آذار) ونقد الفلسفات والعلوم المبين في الفصل الرابع **سحب المعبد** (وقد تبعت صياغته، مباشرة صياغة الفصل الخامس من المخطوطة) هو نقد يختتم أونطولوجية وضعية موحدّة. .

- هذه السيرورة تثير الدهشة، إذ يبدو فيها عكسٌ بين الترتيب الطبيعي للإدراك، وترتيب تدبيج المناهج. ففي ترتيب التفكير المنطقي، مصوبّاً بالتنسيق الحالي للفصول، يجب أن يسبق نقدُ الأوضاع التقليدية صياغة الميتافيزيقا الوضعية وهي أساس الانتروبولوجية، حيث تمّ الاستدلال على فرضية صوفية. والحقيقة أن مشكلة الخلق المستخدمة حُجّة كانت موضوع اهتمامات بلزاك منذ أيام مطلع الشباب في **فالثورن** ١٨٢٠ ، **وستيني**، وبعض **ملاحظات فلسفية**؛ وأن تداخلاً قد حصل بين الفصل الرابع من سرافيتا (نهاية آذار ١٨٣٥) والصيغة الثانية لرسالة لويس لامبر لخاله (المعدّة في ١٧ تموز والمنشورة في ٢٣ آب)، حيث طرحت القضية؛ والتتمات والتصحيحات التي تناولت خلال شهر تشرين أول هذا الفصل من **سرافيتا**. ومن المؤكد أن عناصر متنوعة ذات صيغة صوفية تتعلّق بمصير البشرية، والأجواء السماوية، تظهر في الفصل الثاني، في الحلم ذي العلاقة بالتنويم

المغناطيسي الذي تُخضع سرافيتا ولفرد له؛ والمفترضات الميتافيزيقية المتعلقة بقوانين المادة، وتنظيم القوى والقدرة الخفية للملكات التي عبّر عنها في الفصل نفسه، خلال شرح ولفرد لأعمال السحر. يبقى أن وضع الشكل التأمّلي، واستثمار الانتروبولوجية البلزاكية المرتبطة بالكوسمولوجية لم يتمّا إلا خلال صياغة المؤلّف وبعد الرؤيا المؤكّدة للمصير الصوفي للإنسان والكون.

أما فيما يتعلّق بالشخصية، فقد شكّلت دفعة واحدة- وفقاً لترابط داخلي دون صدع- وبناءً على حدسيات عامة للمنهج الذي ما يزال دون صياغة، وبإحدى هذه السيرورات النفسية التي يمكن وصفها «بغير المدركة» والتي يبدو تأثيرها، في آن واحد، ، كأنه «محتوى» في العالم الذهني للكاتب، و«غير مستوعب» إذ ما يزال دون بلوغ الحالة القطعية التي يكسبه إياها الفكر التأملي، في الاليات غير المدركة للخلق الأدبي، تنتظم حركة حاذقة من التوازنات بين الأسطورة والشخصية التي تجسّدها، بين المناهج التصوّرية قيد التكون، والكتابة التي تصوغها آلياً؛ بين الصورة المبتكرة التي تأخذ مدلولها في ذات الوقت الذي تتشكل فيه، والعالم الكلي لأفكار الفنان الذي تصوغه. وقد تصدى فليكس داڤن «للعلم المجهول الذي يقود الفكر فيه الكاتب رغماً عنه وكتب أيضاً عن بلزاك: «لقد لاحظ - ربما رغماً عنه- أنّه يفضّل النص الموجود في روحه. . . ، ويصمّم الحدث، وقصيدة عالمه قبل أن يظهر إلى النور الصيغ الفيزيولوجية [1]»

-II-

يصرّح بلزاك أنّه أراد أن يصورّ في سرافيتا: «الكائن الكامل وفق الشروط التي تتطلبها قوانين سويدنبرغ مطبّقة بدقة [2]» والبيان الذي ألقاه القس بكر عن حياة

---

(١) – مقدمة الدراسات الفلسفية.

(٢) – مقدمة الكتاب الروحاني.

سويدنبرغ ومذهبه يبدو في طوله وتفصيله كأنه ملحق بالنص ويتخذ ذريعة للتبحر، وكان من تأثيره أن خلق جواً من الصوفية الضرورية للقصة ولتبرير وجود شخصية فريدة هي مركزها. وقد كان هذا أيضاً حرصاً من كاتب عرف كرائد في الواقعية، وسيداً في رسم هذا النوع، أن يضع تحت سلطة عالية مهيمنة على العديد من المشايعين، مذهباً جسوراً يمكن في عصر شكّاك أن يشوّش قسماً كبيراً من الجمهور. صحيح أن بلزاك كان يريد أن ينتمي إلى هذا المذهب وقد كتب الى السيدة هانسكا: «إن السويدنبرغية، وهي تكرار للأفكار القديمة في الاتجاه المسيحي، هي ديانتي مع ماأضيفه عليها من عدم إمكانية فهم الله وإذا كان قد خصّ الكاثوليكية بمهمة تأمين حكم معنوي للشعوب فإنه اتخذ مكانه بين نخبة أولئك الذين يصبون إلى معتقد داخلي يبحثون عن صيغته في الصوفية.

تعتبر القضية الحرجة التي تطرحها علاقات سويدنبرغ وبلزاك مضاعفة: ماذا فهم بلزاك منه؟ وماذا حفظ عنه؟ وإذا كانت حياة سويدنبرغ كما قصها القس بيكر لاتطرح كثيراً من الأسئلة، فلأن مصدرها «الخطاب التمهيدي» من **مختصر مؤلفات عمانوئيل سويدنبرغ** لدايان دي لاتوش، ومختصر مذهبه كان موضوع جدل بين الاختصاصيين مدة طويلة؛ وعبر الاستعارات المستمدة من هذا المختصر، أمكن الكشف عن أخطاء نصيّة، وماهو أخطر من ذلك، افتراضات مغلوطة متعلقة، بمفاهيم رئيسة. ولم ندهش؟ فعلى غرار القسّ بكر الذي يصرح بعجزه، فإن بلزاك، باختصاره لهذا المذهب، يستخدم تعابير من بنات أفكاره تغيّر من طبيعة الفكرة، أو على الأرجح تفسّرها بتكييفها لوجهات نظره الخاصة.

ماهو جدير بالملاحظة أيضاً أن فهم بلزاك لعلم أسرار «السويدي»، قد تغير على مدى عدة سنوات حول نقطة رئيسة هي نظرية الملائكة والكائن الداخلي، والشاهد تطوّر لويس لامبر، إذ وهو المولع بالصوفية السويدنبرغية في الطبعة الأولى، العام ١٨٣٢، يرفض في العام ١٨٣٣ نظام الطبيعة المضاعفة للملائكة كما فعل بلزاك نفسه في تشرين أول ١٨٣٢ في **رسالته إلى شارل نوديه**، لكنه يعود مجدداً إلى سويدنبرغ في طبعة ١٨٣٥.

هذه المواقف المتناوبة تتفسّر بوضوح بقراءة مضاعفة لسويدنبرغ وبتقويم جديد للمنهج بفضل مصادر معلومات مختلفة. فمنهج سويدنبرغ المعروض باختصار في ١٨٣٢ في **لويس لامبر** يبدو قائماً على ازدواجية الكائن البشري: يوجد في الانسان مخلوقان متميّزان، يمارسان وجوداً مضاعفاً يتعلّق بطبيعتين، الطبيعة الملائكية للكائن الداخلي، والطبيعة المادية للكائن الخارجي. غير أن نظرية الملائكة هي الأقل غموضاً، فالملاك على الأرض هو من ينتصر فيه الكائن الداخلي على الكائن الخارجي، فهو إذاً طريقة وجود؛ وهذا أيضاً نداء باطني في الانسان؛ أخيراً فهو مخلوق متميز متأصل في الإنسان. ونحس أن المذهب قد أسيء تمثّله، لكن الخطأ في رأينا ناتج عن مقتبس سويدنبرغ الذي اتبعه بلزاك، والواقع أننا نجد في **مختصر أعمال سويدنبرغ** لدايان دي لاتوش، هذا التفسير للكائن الداخلي والكائن الخارجي.

تستند ثنائية الإنسان المؤكدة صراحة، على التعارض بين الكائن الداخلي والكائن الخارجي، ممثلين على التوالي بالروح والجسد، في تمييز ثنائي تقليدي. إن هذا التعارض هوما توصل لويس لامبر إلى رفضه «تحت تأثير الوقائع»، وجعله يهجر نظرية الملائكة، كما كان يتصوّرها آنذاك، الملاك موجود في الانسان ككائن متميز يتحرّر من الجسم، ليبدأ بعد الموت حياته الحقيقية. هذا التصوّر يبين إضافة إلى ذلك أن بلزاك في تلك الفترة أساء فهم حتى **مختصر** دايان دي لاتوش الذي يذكره أيضاً في **سرافيتا** والذي يستمد منه تعريفاً للملاك غير ذلك الذي يعطيه في **لويس لامبر**.

تبدي **سرافيتا** أيضاً فهماً آخر للمذهب الرئيس للكائن الداخلي والكائن الخارجي، وفق سويدنبرغ، بفضل قراءات جديدة، وإذا كان بلزاك قد أعاد قراءة دايان دي لاتوش فإنه استوحى أيضاً من **مختصر النقاط الرئيسة لمذهب العقيدة المسيحية الحقيقية وفقاً لكتابات سويدنبرغ** المعد من قبل روبير هندمارش والذي ظهر في العام ١٨٢٠ لدى تروتل وورتز، وقد قرأه بلزاك في ربيع ١٨٣٤. والحال أن

هذا المختصر يصوغ النظرية السويدنبرغية بشكل مختلف، فالتمييز بين الكائن الداخلي والكائن الخارجي لا يُعَرض أبداً وكأنه تعارض بين الروح والجسد؛ فالانقسام موجود في نفس الإنسان بالذات، مما يستدعي تسمية ثلاثية: النفس الداخلية، والنفس الخارجية والجسد؛ إضافة الى ذلك ووفقاً لتوجّه النفس نحو الخير والحق، أو نحو الشرّ والباطل، فإنها تؤهل الكائن بكليته على سلّم القيَم، فالانسان روحاني أو طبيعي، نسبة الى **مجموع نفسه**، وفقاً لكون خارجه تابعاً أو غير تابع لداخله، باعتبار أن داخله تحت تأثير السماء، وخارجه تحت تأثير العالم المادي. ضمن هذا المنظور فإنّ الوحدة الجوهرية للنفس البشرية مصانة، ونتصورّ منذ ذلك الحين عودة لويس لامبر الى سويدنبرغ ومنهجه المتلائم هذه المرّة مع وجهات نظر بلزاك، وإمكانية الكاتب في تكوين شخصية وفقاً للقوانين الكبرى التي استنها معلم الأسرار.

إن بيان القس بكر يتّبع جيّداً تعاريف هندمارش أكثر من اتباعه لتلك المنصوص عليها لدى دايان دي لاتوش، مبيّناً عبر تحوّلات الانسان الداخلي السيطرة التدريجيه للكائن الروحي على الكائن الطبيعي؛ وكذلك الأمر في المذهب الصوفي لسرافيتا، عندما تصف مراحل الحياة الروحية، ومرحلتها الأخيرة هي حياة الصلاة: الحالة الوجدية الانخطافية التي تضع الكائن الداخلي في اتصال مع الله؛ وحياتها بالذات إبانة لهذه المفترضات: كل شيء يشهد، منذ ولادتها حتى صعودها، على التدرّج السامي لكائن، داخلي بكليته آنفاً، يتحرّر من آخر روابط العالم الطبيعي ليأخذ انطلاقته نحو العالم الالهي.

وباختصار، فقد استمد بلزاك من سويدنبرغ بعض الأفكار الرئيسة وتبناها، انقسام العوالم الى عالم طبيعي، وعالم روحي، وعالم سماوي (أو الهي)، ونظرية الإتصالات التي تربط هذه العوالم فيما بينها، وهي نظرية ليست بالنسبة للكاتب طريقة شاعرية مخصصة لإرضاء التخيّلات كما نزع إلى التفكير بير نيكروغ[1]، وإنما هي أساس انتروبولوجية كونية، وجمالية روائية؛ يعتمد عليها المبدأ الميتافيزيقي

---

(١) - بير نيكروغ: مؤلف كتاب: «فكر بلزاك في الملهاة الانسانة» (كوبنها غن- مونكسغارد ١٩٦٥)

الذي يعتبر قدر الانسان في الارتداد إلى أصله، ومنه يتفرع المبدأ المستمد من الأسرار والقائل بأن الملاك هو تحوّل انسان؛ والوجود على الأرض ليس للملائكة، وإنما لأنفس ملائكية؛ أي لكائنات روحانية معدّة للسماء؛ أخيراً التمييز في نفس الإنسان بين الكائن الداخلي والكائن الخارجي متصوَّرَين في نهاية الأمر كقدرتين موجّهتين على التوالي ومن حيث الأصل، نحو عالمين متعارضين وتحدّد نسبة القوتين ميزة الإنسان بكليته وتبيّن موقعه بين درجات تطوره.

لكن بلزاك ليس ناسخاً للأفكار وإنما هو مبتكر للوجوه والمناهج، ومن المؤكد أن سويدنبرغ معتبر لديه كغطاء لكن ليس له في مبادئه الكبرى استحقاق الابتكار أما في تصوّراته الاشراقية المتيمز بها، وخاصة وصف الملائكة، فإن كان بلزاك يتسلى في سردها، فإنه لا يطبقها، وإنما يخلق أسطورته الخاصة ببناء شخصية روايته بوسائله الخاصة. وللتوصل إلى ذلك فإنه يحرّر من التيار الصوفي العام رؤيا مشتركة للعالم والإنسان، يتناولها ثانية ويصوغ استنباط قواعدها لحسابه الخاص. وأفضل وصف للسيرورة العقلية لبلزاك يتمثل بتطبيق هذا التصريح لليبنيتز عليه: أبحث في كل علم عن شيء جديد. . . ثم لا يهدأ لي بال حتى أنفذ إلى مبادئ هذا العلم حيث يمكنني بعد ذلك أن أجد كل شيء بنفسي.

-III-

كان هدف بلزاك أن يطابق رؤية فلسفية للعالم مع علوم زمانه؛ ومن هنا جهد مضاعف: من الفحص، والنقد، وحتى من تفنيد المذاهب التقليدية مترافقاً مع إعادة بناء تأمليّة وفقاً لمبادئ بسيطة وموحّدة؛ ومن ثم إقامة منهج كلّي مستشفّ بحدس متخيّل. عمد البيان الأول لسرافيتا في **سحب المعبد** إلى إقامة كوسمولوجية عقلانية وأعطاها البيان الثاني في **الطريق للذهاب الى السماء** غائية صوفيّة.

والعلاقة بين وسيلتي المعرفة المستخدمتين والفرضية الميتافيزيقية المتحرّرة من الملاحظة التجريبية للوقائع تشكّل خاصّة المنهج المعرفي البلزاكي النقدي (الإبستمولوجي).

تحققت سرافيتا بسؤالها الفلسفات والعلوم أنها عاجزة عن تعريف الله، أو البرهان على وجوده لأن هذه وتلك لا تقدم أيّة نظرة إلى الحقيقة، وكانت نقطة الانطلاق للنقاش ذات طابع أو نطولوجي: وهي الجدل الشامل حول طبيعة المادة والروح؛ وسرافيتا ترفض دفعة واحدة الفلسفات التي تلغي الواحد أو الآخر من هذين المبدأين: «لم تكن جهود الأجيال الروحانية التي ذهبت عبثاً لإنكار المادة أقل عدم جدوى من محاولة أجيال الماديين إنكار الروح». وهي تؤكد، فيما يتعلق بها، مشاركة المادة والروح في الوجود؛ لكنها ترفض التعاريف المتناقضة التي تعطيها النظريات العقلانية أو المثالية، وتتبنى موقف السيكو- فيزيولوجيين الذين لا يعتبرون المادة والروح عنصرين مختلفين ويرون أنهما طرازان من عنصر واحد، وبالنسبة لها فإن الأجسام والقوى، والأشياء وإدراك نسبها، أي الأفكار. «وكل ما يوجد»، هو كتلة مادة خالصة «فسرافيتا الصوفية تلتحق في هذه النقطة مع لويس لامبر الطبيعي؛ لكنها تؤكد أيضاً أن في الانسان تبدأ عوالم غير مرئية ولا متناهية والارتباط بين هذه العوالم يشكّل القضية التي يجب حلّها.

إنها تتعلّق بقضية الخَلْق وقد برهنت سرافيتا باستعمالها دلائل من الواحدة لرفض الأخرى بطلان الفلسفات الدينية التي تلخصها بالفلسفتين الرئيسيتين: الأَحَدِيَّةوالثنوية (المانوية) حيث نهايتهما المعضلة اللامعقولة: إمّا كل شيء هو الله أو أن الله هو لا شيء. ويبقى الله غامضاً ومبهماً باللجوء إلى علوم الروح وحدها؛ لكن علوم المادة، كما هي مطبقة ليست أقل عجزاً. صحيح أنها لا تعارض وجود الله، فغير القابل للشرح لا يعني بالضرورة أنه غير موجود؛ وسرافيتا بشرحها المسهب للرقم تبين أن العلماء يعتقدون بحقيقة التجريد الذي لا يمكنهم البرهان عليه، وهم يدفعون بحذق وبخداع هذا البرهان، وتستخلص من اللامتناهي

الرقمي أن الإنسان لا يمكنه التقاط فكرة اللانهاية الالهية، وأن بوسعه القبول بها دون ادراكها. من جهة أخرى، فإن العلم حتى في ميدانه الخاص يكشف عن تفاوت بين الوقائع التي يحلّلها والنتائج التي يحرّرها العقل وتستمد أمثلتها من الرياضيات، ومن الهندسة المستقيمة أو المنحنية الخطوط؛ ومن علم السكون، ومن علم الصوت ومن البصريات، ومن الكيمياء، ومن الفيزياء؛ ويحلو لسرافيتا أن تبين أن الطبيعة في كل خطوة تعطي تكذيباً للقوانين العلمية. وتكون النتيجة ذات أهمية: «هكذا، فمعظم مسلماتكم العلمية صحيحة بالنسبة للإنسان، لكنها خاطئة بالنسبة للمجموع» وكذلك: «تستند مواضيعكم الأكثر يقينية على تحليل الأشكال المادية حيث الروح دون انقطاع مهملة من قبلكم».

تستحق السيرورة التي تتمفصل عليها هذه البرهنة، التنويه بها، فنقطة انطلاق ظاهراتية: في الإنسان عنصران متناقضان، وفي الطبيعة عاملا تركيب. والحدس الرئيس هو أنه ليكون هذان العنصران توافقيين، لا يمكن أن يكونا تبسيطيين فيما بينهما؛ وقد بيّنت التجربة أنه فيما إذا كانت المشاركة في الوجود صراعية، فالنتيجة هي انفصام الكائن؛ وبالعكس إذا اقترنا في توازن متناسق يتم الحصول على تركيب قابل للحياة، وعلى شكل كامل. ومن ملاحظة الظواهر يستخلص بلزاك قانوناً للمجموع، قانوناً للمنطق. إذا كانت هذه العناصر تتحد؛ إذا كانت متوافقة في الواقع، فلا يمكن أن تكون متناقضة في نظر الفلسفة. ويرفض بلزاك الأنظمة المؤسسة على مبدأ التناقض، فبموجب الصلات التي تربط جميع عناصر المخلوق، يتصوّر التعايش بين المادة والروح باعتباره اتحاداً لضدين متكاملين وليس تنافراً بين عنصرين متناقضين. وهكذا يجد هنا التصوّر الغنوصي «التطابق المتقابل». ولشرح التعارضات التي يقدمها الواقعي فإن مبدأ التناقض ليس مولّداً: ومبدأ المعاكسة يسمح خلافاً لذلك بتركيب عناصر متصوّرة كأنواع موجودة من عنصر واحد خضعت لتأثير الفعل ورد الفعل. الأجسام والقوى تتوافق لتشكل المنتج؛ والثنائية الظاهرة في طرق الوجود تنحلُّ إلى أحدية أو نطولوجية

يستتبع نقد العلم نتائج مماثلة، فالعلم ناقص ونسبي، ليس لعجز جوهري، وإنما لاستخدامه بشكل سيء أوصله إلى مسلّمات تتناقض. يمكن أن نحرّض على الاعتقاد بأن بلزاك يقبل بوجه مضاعف للأشياء، وبحقيقة مضاعفة وفقاً لوجهات النظر التي يوضع فيها. من المؤكد أنه يعترف أن الحقيقة ذات وجيهات متنوعة- ومن هنا تضارب التقويم- لكن «الحقيقي» بالنسبة للإنسان الذي يلاحظ ظاهرة. خاصة ليست موضوعاً بالتوازي أو بالتساوي مع «الباطل» بالنسبة للعقل الفائق الذي يتصوّر المجموع والأسباب المولدة. إن كل السياق يبين أن الحقيقة المفترضة لاتتعلق إلا بوصف سطح الأحداث ولاتأخذ بالاعتبار الحقيقة العميقة[1]، ولايمكن أن يعتبر بلزاك، وخاصة في هذا المجال، مؤيّداً لثنائية علومية- الحق والباطل مقبولان بالتضامن- متناظرة مع ثنائية أو نطولوجية يرفضها.

إن الفلسفة منقسمة بالنسبة للمبادئ الأولى، والعلم منقسم، وقد راود الطموح بلزاك في أن يقيم وحدتهما الداخلية، وأن يصلح بينهما في نظرة سامية. والعلم الفلسفي الحقيقي بالنسبة إليه هو الذي يعتبر الأجسام في آن واحد «في مجموعها» قاعدة أولى؛ وفي «صلاتها الخفية» قاعدة ثانية. وعند ذاك فكلّ شيء سبب ونتيجة بالتناوب، والعوالم المرئية متناسقة فيما بينها، وتخضع للعوالم غير المرئية. والعلم السامي الذي تطريه سرافيتا يتطلب وحدة التركيب لجميع الأكوان والتناسق العميق لجميع المخلوقات المشتقة من مصدر واحد «فهو إذا عنصر واحد مع الحركة نبتة واحدة، حيوان واحد، لكن علاقات مستمرة»؛ الحقيقة واحدة والعلم سيتوصل إليها فيما إذا ضمّ جميع العلاقات التي تتجلى عبر المظاهر المختلفة للحقيقي، لوحدة الكائن.

---

(١) - كما ورد في متن الرواية: «العلم هو لغة العالم الزمني» (ص٥٥)؛ والعلوم الإنسانية ليست بالنسبة لسرافيتا (الروح الملائكية التي ترى وتدرك كل شيء) إلا مظاهر الحقيقة (ص٥٠).

- IV -

ينتج مذهب سرافيتا الاطلاعي[1] عن هذه المفترضات، وهو مذهب يريد لذاته أن يكون شاملاً. فالانتروبولوجية، والكوسمولوجية، والميستاغوجية[2] علوم تشكل لوحاً ثلاثياً حيث المرئي واللامرئي يكشف كل منهما الآخر، وكل يتعاضد لجمع الإنسان والعالم والله في إدراك تأليفي بين المخلوق واللامخلوق. وتقدم سرافيتا المشهد الاجمالي لأرض البشر والآفاق الروحية، والعالم الإلهي. والحيّ يظهر فيها كإنسان وكروح وكساروفيم[3] يتحد بجوهر الله: كائن واحد في مختلف أنماطه يربط بواسطة ذاته، وفي ذاته مختلف العوالم؛ فالمنهج البلزاكي يقوم على أساس التماسك والكليّة

من المؤكد أن نظرية وحدة الأكوان كانت طرازاً سائداً منذ أن جمّل الرومنسيون بشاعرية أحداس الإشراقيين؛ ومن المؤكد أن سويدنبرغ قد نشر عبر رؤاه- وبالأحرى بشكل تأمّلي فكرة التوافقات والمدلولات المتبادلة بين الطبيعي والروحي والسماوي؛ ومن المؤكد أن الفلاسفة القدماء والصوفيين الشرقيين قد أعدوا نظريات في نشأة الكون (كوسموغونية) معقّدة ليشرحوا العلاقات الموجودة بين الخالق والمخلوق، وقد اطلع بلزاك على جميع هذه المذاهب. ولكن مايجدر ذكره هو أنه كان يبحث من خلالها عن نقطة اتصال بين جميع الأديان، متعلقاً بمبادئ رئيسة دفعته إلي التصريح بوجود دين واحد فقط، وهو مشترك للإنسانية جمعاء.

---

(١) - اطلاع المريد على مذهب باطني؛ وهذا وارد في كل النظريات المعرفية.

(٢) - الانتروبولوجية ANTHROPOLOGIE (علم الانسان)، كوسمولوجيةCOSMOLOGIE (علم الكون)؛ ميستاغوجية MYSTAGOGIE (علم الإطّلاع على الاسرار).

(٣) - ساروفيم SERAPHIN: روح سماوية في مصاف الملائكة، يقابلها شروبين CHEROBINS: سادة الملائكة المقربّين.

كان هدفه أن يؤسس منهجاً شاملاً بدءاً من رموز أساسية، كما تمنى ذلك في مقال نشره في ٢٢ آب ١٨٣٣ في «لاكوتيديين» عن الدور الميتولوجي في السيرة العالمية لميشو اعتمد فيه على فحص تيّار ديني كان أساساً للاشراقية؛ ذلك أن التيار المذكور ليس إلا كما ذكّر في نظريات سويدنبرغ، تكراراً، في الاتجاه المسيحي، للأفكار القديمة» والمقصود الغنوصية التي صهرت في القرنين الثاني والثالث في الاسكندرية، الفلسفات وحركات التصوف في الهند، وفلسطين، واليونان، ومصر ثم انتشرت في أوروبة عبر اللاهوتيات الصوفية للعصر الوسيط، وكانت مصدر وحي للتيوزوفيين والإشراقيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر [1].

اشتق بلزاك لنفسه تصوراً غنوصياً عن العالم، فمسيرته التي قادته من الملاحظة التجريبية إلى التحليل العلمي فالفرضية المولّدة، دفعته إلى «تفكيك الانسان» قبل تركيب الأكوان. وهكذا التحق بموقف الغنوصيين، والفلاسفة أو التيوزوفيين الذين نهضوا ببيان مساهمات العلوم الحيوية والفيزيائية ورؤوا «تفسير الأشياء بالانسان، وليس تفسير الانسان بالأشياء» كما قال بادر في عبارة منقولة عن لويس كلود دي سان مارتن.

سادت إعداد النظرية ثلاث مسلمات: **الانسان صورة الكون. الانسان الداخلي مثال العالم الروحي. الانسان الطبيعي والروحي- هو أثر العالمين المرئي وغير المرئي في وقت واحد، ينطوي على وجود العالم الالهي**. ينتج عن ذلك تداخل ثابت للعناصر الثلاثة: الانسان، والعالم، والله، وكذلك وجود غائية صوفية للانتروبولوجية والكوسمولوجية. وفي نهاية الأمر إذاً الوصول إلى الوحدة. والواقع أن مجموع النظام قائم على صيغة ثلاثية تتضمن ثالوثا بنيوياً، وأثنية حيوية، وأحديّة أونطولوجية (بالمعنى الاشتقاقي وليس بمعنى الجوهر الفرد

(١) - كان في متناول بلزاك مراجع عديدة عن أصل وتاريخ العبادات والأديان من تأليف (منيو وبرونة، و كور دي جبلين، ودوبوي، ودومسنيل وكروزه) وبصورة خاصة مؤلف ج. ماتر: **التاريخ النقدي للغنوصية وتأثيره على الملل الدينية والفلسفية**، لفرو ١٨٢٨.

الذي يقول به ليبنيتز). - العدد «ثلاثة» هو صيغة المخلوق. - العدد «اثنان» هو صيغة القواعد والتركيب (المكمّل أو المضاد) لقوتين، هو صيغة الحياة - «الواحد» هو صيغة الالهي [1]. إن المظهر الآلي لهذا النظام الذي دفع بلزاك في الواقع إلى إقامة ترسيمات باختصار العناصر قد توازن مع ذلك، بديناميكية مستمرة تقود المعقّد بين حدّ وآخر، إلى الوحدة.

يعيد بلزاك الجهاز البشري إلى ثلاثة عناصر: الجسم والنفس والروح؛ أو الرأس، والعضلات، والقلب؛ أو القلب والحواس والدماغ؛ أو حياة القلب، وحياة المخ، والفعل. ثم يعيّن بدقة: «الرجل العصب: الفعل أو القوّة، ولرجل المخ: العبقرية؛ ولرجل القلب: الإيمان» [2] ففي الانسانية إذاً ثلاثة أنواع: الفيزيائي، والنفسي، والروحي.

وهناك تقسيم آخر يتعلق «بالعالم المعنوي» أو عالم الأفكار، الذي يتوزع وفق ثلاث مستويات: مستوى **الغريزة** (وهو لا يشمل إلا العالم الطبيعي) ومستوى **المجرّدات** (وهو يسمح بمعرفة العلاقات والأسباب التي تتأسّس عليها الفنون والقوانين) ومستوى **الاختصاص** (أو هبة الرؤيا الثانية التي تسمح بالتقاط أصل العاملين الطبيعي والروحي ونهايتهما والعلاقات بينهما بشكل مباشر ومجمل، ولديها الحدس بالعالم الالهي)

هذا التقسيم يتضمّن على المستوى الروحاني تسمية الكائنات، وفقاً لسويدنبرغ المصنّفة إلى «غير مجدّدة» و«مهيّأة للسماء» وأرواح ملائكية» وبشكل أدق يحيل إلى الغنوصيين الذين يميزون «المتحجرين» المتعلقين بالمادة والنفسيين الذين يسوّدون النفس على الجسم، و«الأثيريين» الذين يعيشون في الروحاني كما الأمر بالنسبة لسرافيتا التي وهبت جميع قدرات «المختص» وتعيش في حالة صلاة

---

(١) - انظر لويس لامبر- الفكرة XV- القسم الثاني (منشورات وزارة الثقافة- روايات بلزاك ١٣ ، ١٩٩٤).

(٢) - انظر «لويس لامبر».

وَجديّة. غير أن هذه الأنواع المتيمزة تظل نسبيّة بعضها إلى بعضها الآخر؛ وسيرورة الخلاص تقوم على الارتفاع من أحدها إلى الآخر: وغائية الانسان هي الذهاب من الفعل الى الفهم الى الحب [1]: وخلال عدة «وجودات» وبفضل تقشّف يُطهِّر الكائن الداخلي فيه، فإنه يعبر المسافات التي تفصل بين العوالم ويصل الى المكان الالهي لغبطته.

هذا التدرّج في الملفات، وهذا التقسيم إلى أنواع، وهذه الغائية الصوفيّة تتوافق مع البنيات الكوسمولوجية التي هي النسخ المطابقة للبنيات الانتروبولوجية التي تعطيها تبريراً ميتافيزيقياً. الانسان كون مجهري (ميكروكوسم) وبالعكس فالكون انسان كبير؛ ومع حالات الوجود البشري تتوافق العوالم التي تشكل الكون المنظور وغير المنظور. الغريزي والمجرّد ينتميان إلى **العالم الطبيعي** وهو تعبير يعني في آن واحد الكون الفيزيائي، كون الطبيعة، ويعني في الإنسان الجسم والفكر وكلاهما من جوهر مادي؛ والنفس الملائكية أو الأثيرية، مهما تكن أرضية، هي في **العالم الروحاني** الذي يشكل المجال غير المرئي للكائن الداخلي، مجال النفس. أخيراً فان **العالم الالهي** المؤلف من سبعة أفاق كما العالم الروحاني (فالسبعة هي الرقم المقدّس) مسكون بجحافل الملائكة الناتجة عن التحوّلات البشرية، وهو يمتد حتى المعبد حيث يوجد نبع جميع العوالم «والمركز الوحيد» للحياة.

غير أن تقسيماً ثنائياً يتضمن هذه البنيات الثلاثية، فحياة الانسان تخضع لتأثير قوتين يعبر عنه بالفعل ورد الفعل مقابل العنصرين، الغريزة أو العقل، المخ أو القلب، الارادة أو الفكر، الخ... ويعبر عنه بشكل أساسي بالتركيب غير المتجانس ظاهرياً للمادة والروح. هذا التوتّر الذي يصنع الحياة، يحسّ به ليس كتناقض، وإنما كاستقطاب ثنائي، كما تشهد عليه على المستوى الفيزيرلوجي الوظيفة المضاعفة للإحساسات التي تربط المخ بالبشرة والبشرة بالمخ؛ وعلى المستوى السيكولوجي، السيرورات المعاكسة للانتشار والتركيز؛ وعلى المستوى

---

(١) – لويس لامبير – الفكرة XX – القسم الأول.

الأسطوري ، الرابطة المضاعفة للكائن مع العالم الطبيعي أو المرئي ، والعالم الروحي أو غير المرئي .

وكذلك الأمر بالنسبة للكون ويمثّله الإنسان ويلخصه بشكل نموذجي يقوم خطّ تقسيم بين الأرض والسماء ، كما بين المادي الروحي ، لكن تجدر الملاحظة أن الروحي يتراكب على الأرض والسماء كما أن في الانسان «يؤول كون مرئي إلى الانتهاء ، ويبدأ كون غير مرئي لامتناه» . فالحركة التي تسوس العالم مضاعفة من عدة وجهات نظر : فهي في آن واحد داخلية وخارجية ، جابذة ونابذة ، صاعدة ونازلة ، مقوّسة ومستقيمة الخطوط . والوصف الرائع لصعود سرافيتا يبيّن أن العوالم تنتشر لولبياً ، وتخضع لجذب يشدّ كل نقطة إلى مركز الكرة ، وكل كرة إلى مركز نوعها ، وكل نوع بالذات له «مركزه نحو المناطق السماوية الكبرى التي تتصل مع محرّك كل شيء المتوقّد ، الذي لا ينفد» . فالكرة والدوران الجذبي الحلقي يشكلان إذاً الصور الأولى لهذا الفضاء ، لكن هذا المجموع الدوراني يجتازه دفْق يغمره من الأعلى إلى الأسفل .

ينتج أن الكون الجيبوي - حيث الخطوط في حركة متقابلة من الإنبساط والانقباض ، وفي تناوب مستمر من الحدود القصوى والحدود الدنيا ، يتسع ، ويتصالب ، وينطوي وفق حيوية المخلوق - وهو ينتظم من جهة أخرى حول محور شاقولي يوجهه نحو اللانهاية ويسمو إلى قمة ، هي الأصل والنهاية ، هي الحياة . هذه الحركة المضاعفة الدائرية والخطية توفّق بين القوانين الفيزيائية للجذب الشامل ، والكوسموغونيات (نشأة الأكوان) الغنوصية التي تدرّج الأكوان وتعطيها مصيراً صاعداً ، مترجمة بشكل مجازي وميتافيزيقي تأثير الثقالة المرتبطة بالمادة العاتمة ، وقوّة الرفع التي يتمتع بها مائع الروح النافذ الوضّاء .

هذه الكوسمولوجية المرتبطة بشكل وثيق بالانتروبولوجية ، تنطوي في ختامها الصوفي على ميتافيزيقا موحدة فالخلاص الفردي والنهايات الأخيرية تتماشى مع وحدة تألف الكون وإليها تستند . والبنية الثلاثية - في الانسان : جسم

وفكر وروح؛ وفي الكون: عوالم طبيعية، وروحية، وإلهية- تتمثل ليس كصيغة لعناصر غير متجانسة وإنما كتنظيم رتبوي لأنواع من عنصر واحد. فبين المادة والروح والله توجد وحدة جوهر وتَبَعية، وما بين الواحد والآخر يوجد تيار حياة مستمر وتوق إلى المطلق الذي يشكل غائية المخلوق. وملكات المعرفة، الغريزة، والفكر والاختصاص تنقيها تحولاتها فتصير نوراً ذكياً. فرأي بلزاك في أن الفكر هو ظاهرة ضوء، يتوافق مع رأي الغنوصيين في أن الروح هي العقل بالذات، لأنها «نقطة من ضوء صاف» قسيمة من نور الله؛ وهم يجعلون المعرفة الروحية «الغنوص» وسيلة الخلاص، باعتبار معرفة الحقيقة الغبطة السامية. والعوالم المتراتبة تنقاد بحركة التسامي ذاتها التي هي في نهاية الأمر عودة إلى الأصل. والثنائيات الظاهرة، المشتركة بين العالم و الانسان تنحل أيضاً في أحدية أونتولوجية وديناميكية.

يختفي التناقض التقليدي بين الله والمادة لمصلحة مفهوم آخر، هو الاستقطابية الثنائية للعناصر البنيوية المتمحورة حول الأعلى والأسفل. سمو ودونية تتعلق بهما المزدوجات النوعية: طهارة ونجاسة، نور وظلام، بساطة وتعقيد، وحدة وتنوّع وهي تتواجد مشتركة في الانسان، وفي العالم المحسوس والعالم الروحي. فإذا كان في الانسان كائنان أو نوعان من الكينونة، فذلك لأن الكون منقسم إلى منطقتين يعبر فيهما الناس والأرواح. وبالعكس إذا وجدت منطقتان في الكون فذلك لأن في كل انسان انسانين؛ هذا التقسيم ناتج وفق المعارف الروحية -الغنوص- عن هبوط عنصر إلهي مسؤول عن المادة وانحداره وهو يتفسّر في الرؤى العلمية لبلزاك بتعديلات العنصر البدائي الوحيد الذي يتمثل على درجات في الروح والمادة حسب أنواعها، وهكذا يتحدّد مصير الانسان والعالم. يجب أن يقابل الانحدار، وهو سبب المادة؛ عودة الاندماج للمادة في الروح. وتعدّداً أشكال الخلق التي يفرضها الانقسام على العنصر يجب أن يبطل بسيرورة فلسفية من التراجع في البساطة والوحدة المبدئيتين.

الموضوع المتنازع فيه حول الثنائية أو الأحدية لدى بلزاك يجد في تحليل مذهب **سرافيتا** جواباً ؛ وهو في المضاهاة القائمة بين ثلاثية الحدود البنيوية الناظمة للأشكال الموصوفة من قبل الملاحظ للحقيقي ، وثنائية الحد ، التي تفسّر تضاد القوى في عيني الباحث عن الأسباب العلمية ، وذات الحدّ الأول ، المبدأ الأول الذي يؤكد روح منهج الفيلسوف ، وباكتشاف وحدة المتعدّد وتكاملية الأضداد ، يحلّ بلزاك التعقّد البنيوي والثنائية الوجودية إلى أحدية تصوريّة ؛ لكن يجب أن نلاحظ جيداً أن هذه الأحدية لاتهدف الى اختصار كل الكائن في حدّ واحد ، أو المناداة ، بالمعنى الذي يؤكد عليه غالباً بخفة ، بمادية موحّدة . أما أن تكون الروح عنصراً مادياً مفكراً فهذا لا يناقض الحركة الأصلية التي تحملها إلى ما بعد ذاتها . فالمادة ليست ماهية متراصّة ، خاملة ، وثابتة ، وإنما تتمتع بالحياة ولها القدرة على أن تزداد رقة مع كل مملكة من ممالك الموجودات المادية بحيث تعود فتتصل بالجوهر الخالص الذي انبثقت منه ، والأحدية البلزاكية تقوم على إعادة تنوع الكائنات والأشياء اللامتناهي إلى تجانس الموجود بديناميكية التحول ولا يوجد هنا أُحدية وجود أبداً : فالخالق يبقى متميزاً عن المخلوق فهو «ذلك الخالق الثابت في ماهيته ، وفي قدراته التي ينقلها دون أن يفقدها» .

لن يفوتنا أن نذكّر بأن صياغة المنهج البلزاكي تستدعي التفكير ، فبلزاك لم يكتب «مفصّلاً »ولا «دراسة» رغم نواياه . ومصطلحه «ملتبس» غالباً ، ومواقفه المتخذة يمكن أن تبدو متناوبة ، وفق تصوّره للحجة المؤيدة أو الناقضة- مع أو ضد- ويعرض وجهات نظر جزئية لشخصياته المكلّفة بطرح مختلف وجوه الفكرة المعاصرة . يبقى أن المفاصل الكبرى للمنهج ، وقد رسمت في صفحات متفرقة من النص الروائي تشكل ما يمكن أن نسميه «الشكل الأول» لبذور النظرية ؛ هذا النوع من النص الذي لا شكل له على مستوى الخطاب قائم على التلاعب بالعلائق الذاتية بين المفاهيم الاساسية فبنيته العميقة مسجّلة في النص المكتوب .

من جهة أخرى إذا كان المنهج قد تجسّد بين ١٨٣٢ و١٨٣٥ ، فمن الثابت أن

بنيات موجّهة مماثلة تنتشر في كل نتاج الكاتب. فمنذ بواكير أفكار الشباب عن خلود الروح وتشكل الأفكار، كان «الحدث» الفيزيائي - المعنوي»، وفقاً لتعبير فليكس دافن في مركز اهتمامات الكاتب، وكان طموحه أن يبرهن على أن «الانسان جوهر واحد عين ذاته». والملهاة الانسانية هي في نهاية الأمر تساؤل قلق واسع عن طبيعة النفس البشرية، ووظيفتها، واستطاعتها ومصيرها. ولهذا الغرض يسأل بلزاك أولاً مدارس الفلسفة التأمليّة فيقرأ من بين فلاسفتها خاصة ديكارت، ومالبرانش، وسبينوزا، وليبنيتز، ويتثقّف في العلوم الطبيعية، والحيوية، ذات الأساس المادّي؛ ويسبر علوم السيكولوجية السحرية التي تعالج المغناطيسية الحيوانية أو النفسية؛ ويطّلع على الديانات الكبرى والميتافزيقات ذات المنطلق الصوفي، ويقع بين قطبي المادية والروحانية اللذين يتجاذبانه، فيجرب مرة بعد آخرى الطريقتين ليقدّم تفسيراً لآليات الفكر في علاقاته مع الجسم. لكن يلاحظ بسهولة في المؤلّفات السابقة لسرافيتا، وفي الروايات ذات الايمان بالقوى الخفيّة في مطلع شبابه، والقصص الفلسفية ذات الواقع الخرافي، وحتى في **البحث عن المطلق** أن الأوضاع المتناقضة المنادية بماديّة خالصة أو روحانية خالصة ليست مرضية وتستدعي توفيقها. كذلك فإن العملية التركيبية التي أنشأها بخلطه في **سرافيتا** مادية الفكر بغائيته الفائقة، لم تحدث تأثيراً على مؤلّفاته اللاحقة؛ حتى عندما يتناول مجدداً، في نقاش مفتوح دائماً، فحص الظواهر الغريبة للفكر بمناسبة استبصار الفنان في **ماسيميلا دوني**، وفي النظرة الثانية للحب في **الزنبقة في الوادي**، وفي الرؤيا النومية في **أورسول ميروه**، وفي الاتصال مع الموتى في **اورسول ميروه** أيضاً، وفي المسيح مكلّلاً بالشوك ECCE HOMO، وفي فن التنبؤ في **النسيب بونس**؛ أو في دراسة التحليل الكيمائي الكمي، الذي يصرح عنه لوران روجييري في حول **كاترين دي مديسي**، أنه علمي مادي لكنه ليس إلحادياً.

قضية أخرى تطرح عند رؤية ارتباك بعض النقّاد الذين يهملون سرافيتا أو إن انقادوا للحديث عنها، يعتبرونها زائدة نمو سرطاني في النتاج البلزاكي، أو جناحاً من طراز زائف أضيف إلى بناء متميّز بعصره: ماهي أهمية المنهج الفلسفي وهل له

علاقة مع المناهج الروائية؟ من المدهش- أولياً- أن بلزاك الذي أراد أن يكون منهجاً «يمكن أن يرتكب خطيئة إلى هذا الحد ضد الترابط والمنطق بإفساح المجال «لرسم إضافي» لافائدة منه. بل يبدو الأمر بالعكس فالمنهج الفلسفي هو إسقاط للبنيات الضمنية للكاتب، وهو من هذا الواقع يكشف عن المدلولات العميقة للنتاج الروائي في مجموعه، ويظهر «كنص» دلالي لمقال رمزي.

إن الحركة المدهشة التي عملت على تدويم فكر بلزاك من الملاحظة إلى العلوم إلى الإستبصار، والتي جعلته يترجّح بين الحدث والفكرة والصورة، ودفعته إلى سبر العلاقات الموجودة بين العالم المحسوس، والعالم الذهني وقسم روحي خفيّ اكتشفه في نفسه، هي في شبه تام مع الدوران المحوري للأكوان التي يصفها. وشروح سرافيتا المسهبة عن العدد والحركة، والفكرة الأخيرة ذات المظهر الخفي التي يحدّد فيها لويس لامبر رمزية الأعداد تترجم، بَعدَ براعة التأمل وسحر الصيغ، بعض الإيقاعات الأساسية للفعالية النفسية للروائي فالسعة الدائرية لنظرته الخارجية تعانق مجموع الوجود، والحركة المتناوبة للفعل ورد الفعل لفكره التأملي تمارس على الأشياء وقدرة نظرته الثانية تكتشف عبر لانهاية الأشياء وعلاقاتها وحدة المبدأ المحيي لها؛ وتتعلّق جميعها بقوانين المنهج الفلسفي وتنعكس في البنيات الروائية.

- يعطي المنهج شكله ومعناه للكتابة، ويقتدي تشكّل الشخصيات بالتقنيات وتقاليد المهنة، المنفذة بطريقة رؤية لاشعورية في البدء على الأرجح، لكنها تغدو جليّة وعقلانية، وهي تعود إلى تنظيم نفسي وتصبح طريقة إبداع. والبنيات الآنتروبولوجية العامة التي أثبتناها تحدّد نموذجية روائية تتمايز وفق الأنواع الحيوانية والنفسية والأثيرية، ووفقاً للمجموعات الثقافية التي يرجع المؤلف إليها، وكذلك وفقاً للشكل الأسطوري المستخدم كنموذج، وهي تتعدّل إلى بنيات زمرة، وفي كل زمرة نتعرف على حتميات العوامل المكوّنة لها ضمن الأنساق الثلاثة للجسم والفكرة والروح ووفق توجّه الكائن الداخلي والخارجي نحو الطبيعي والروحي.

يُقدّم المظهر الاجتماعي الذي يرسمه بلزاك في مؤلفه تحالف المظهرين الأساسيين لسيرورته الخلاقة: إثبات الواقع، وإعادة البناء التصوّري. وإذا كان من جهة شاهداً على عصره، ويصف المؤسسات والطبائع كما يراها، ويكشف بشكل وثيق المصالح، والطموحات، والإيديولوجيات التي تسوس تنظيم الطبقات، والأنظمة السياسية، وإذا كان وهو الداخل في اللعبة، يتخذ المواقف العملية والمناسبة، فإنه من جهة أخرى، يقترح منهجاً اجتماعياً يتلاءم مع منهجه الكوسمولوجي، «لأن المجتمعات الجيّدة التنظيم مقولبة وفق الترتيب ذاته الذي فرضه الله على العوالم»[1]. والبيانات النظرية التي يمكن أن نقرأها، ومنها ماورد في كتاب **التعليم الاجتماعي**، أو **طبيب الريف** أو **كاهن القرية**، يستوحي بالتأكيد بعض مذاهب زمنه، لكن هذه متكيّفة ومسبوكة مجدداً في رؤيته الكليّة للعالم والناس.

لاشك أن المسرحية الحيوية لبلزاك التي تفرض مسرحيته المشهدية، موجّهة لسيكولوجية واثقة ودقيقة، لكنها تعبّر عن مفهوم ميتا فيزيقي يعطيها معناها العميق. فالفعل ورد الفعل المؤثران في تركيب الإنسان أو بين أفراد زمرة بشرية يعودان بشكل رئيس إلى نزاع قدرات أسطورية: الذهب، المتعة، والقوة؛ أو المعرفة، والإرادة والقدرة؛ أو الذات، والعالم والله. والهندسة البنيوية للرواية، تفسر المنهج بذاتها. الأوصاف والوجوه تطرح العناصر الثابتة للمكونات العضوية والأوضاع الوجودية للقاعدة؛ والمشاهد والحوارات تظهر ديناميكية الدوافع الداخلية والعلاقات بين الأفراد؛ والنهاية تترجم نجاح الحياة أو فشلها، ووصول الكائن إلى تلاؤمه أو تخلخله وفق توجهه الداخلي والحركة المتوازنة أو المشوشة للقوى المسيطرة عليه.

باختصار فإن ترابطاً يظهر بين الرؤيا والخلق، فالمبادئ المولّدة هي ذاتها في النسقين، وهناك «وحدة التركيب» بين المنهج التصوّري والمناهج الروائية.

---

(١) - عبارة من رواية «أورسول ميروه»

-V-

يفرض سرافيتا – سرافيتوس نفسه كنموذج مثالي للإنسانية، ففي هذا الكائن الفـريد، الواقع في منتـصف الطريق بين الطبـيـعي والالـهي، مكـان تقـارب المادة والروح، يوصف مـزيج طبيعة مضـاعفة، بشرية وملائكيـة؛ عبر الثنائية الأكثر رسوخاً، ثنائية الجنسين التي تقسم الخليقة، وهو يصبو ليحل جميع التناقضات في الحركـة التي تحمله نحو الوحـدة. إن تحليل البنيات الرمـزية لهذه الشـخصيـة تبين الطرق، التي تتعدى الصـورة التقليدية للملاك، والنماذج الأدبية والفنية، والجاذبية الخاصة لصنف ما من النساء؛ هذه الطرق التي يلجأ بلزاك لينضـد ويركب ملاحظاته الطبيعيـة، ودراساته للظواهر البـاراسيكولوجيـة، وأونطولوجيـته الديناميكية، وكوسمولوجيته ذات الإستيحاء الغنوصي. وتقوم شبكة معقّدة من العلاقات الداخليـة بين مـركبات الكائن، والأمر لايتعلق فقط بالمنهج المعروف للتوافـقات النفسية الجسمية؛ فهذا المستوى الأول يؤدي إلى آخر هو مستوى الروح، إن الجسم يكشف بالتأكيد الذهنية التي تعدلّه، لكنه أيضاً دلالة على «الكائن الداخلي» الذي يتحقّق فيـه ويفـرض توجـهـه الروحي على الكائن كله. وهكذا فإن منهجاً من التوافـقات الروحيـة الجسدية يضـاف إلى الأول ويتمّم الصورة البلزاكية وظيـفة مضاعفة: فهي في آن واحد أيقنة للسحري ومسارّة لخفايا الروح.

سنقتـصـر هنا في عـرض بعض مظاهر هذه التوافقـات معلّقين أهميـة على مشكلة الخنثوية، المتنازع فيها، التي سندرسـها بشكل خاص ضـمـن علاقتها مع مفهوم الملاك.

نتساءل عن طبيعة «الشخصية الغريبة التي خلقها بلزاك تحت اسم مضاعف مذكر ومؤنث. هل جعل منها كـائناً دون جنس أو ثنائي الجنس؟ إن طرح السؤال بالذات يشير إلى أن الكاتب قد بلغ هدفه. فـالمشهـد الأول يميل، وفقـاً لطريقـة مألوفة، لطرح لغز. ويعمد بلزاك إلى إبقاء القارئ في حيرة ودفعه إلى القبول بأن شخصيته كائن يصعب تحديد جنسه من أي كـان، حتى من العلمـاء. ولـكن هل

ينبغي الاستنتاج أنّ بلزاك قد تصوّر شخصيته كخنثى تقليدية بلاجنس تجمع قدرات سحرية- دينية للجنسين دون أن تتمثل فيها مميزاتهما الفيزيولوجية؟. سيكون غريباً أن يعمد بلزاك، خلافاً لانتروبولوجيته، وتقنيته، إلى أن يطبق على هذه الشخصية وحدها مثل هذا التفرع بين الشكل والفكرة، بين الجسم والنفس أو الروح. ففي سرافيتا- سرافيتوس، وهي نفس ملائكية وليست ملاكاً، لم تتحقق الخنوثة الصوفية إلى درجة لا تظهر فيها الخنوثة التشريحية والفيزيولوجية.

تبيّن دراسة المخطوطة والمسوّدات الطباعية ظاهرة تستدعي الاهتمام؛ فعدم تحديد الشخصية لم يتمّ إلا بعد جهد من حذف علاقات كثيرة الماديّة لكائن أثيري، وبعد تخفيف مقصود للبنية الأنثوية التي كان بلزاك قد أعطاها بميل غريزي لملاكه. وببراعة في الأسلوب، وبتأويلات من المؤلف، وبحذف وصف بزة المتزلج، وبغياب الملبوسات المميّزة، يتم عدم التمييز الجنسي المطابق للصورة التقليدية. يلاحظ ألبر بِغَن أن تمثيل آدم قبل الخطيئة وإعطاءه شكل الرجل الأول كان مصوّراً كخُنثى فالأعضاء الممثّلة للجنس مخفيّة، ولم تميّز إلا العلامات الثانوية للذكورة والأنوثة وقد لجأ بلزاك للطريقة ذاتها..

إذا لم يُشر في الجسم إلا إلى الصورة الظلية، ومن الأعضاء إلاّ الأطراف، وإذا كان القسم الرئيس من الصورة يتركز على الرأس، ومع ذلك ترتسم مجموعة خطوط تسيطر عليها الاستدارة، والنعومة، ودقة ضبابية، حيث القامة رقيقة نحيلة، والقدمان صغيرتان، واليدان المنسابتان علائم متميزة لأنثى، وحيث الشعر، والشفتان، والحاجبان، والأهداب، والبشرة تشكل صورة شابة، تأتي لتناقض ذلك الشكل الجانبي المذكر للرأس والجبين المتناف المشعّ ذكاء، والعينين الذهبيتين التي يرى فيها غاستون باشلار بحقّ علامات ذكورة تكشف عن سمو الخشونة الحيوانية. والنتيجة الحاصلة هي أن ثنائية القطب الجنسية واضحة في الصورة الجسمية. وعدا عن ذلك يلاحظ أن القامة والأطراف قد أعطيت شكلاً أنثوياً، فإن الفيزيولوجية المحركة تشهد على قوة رجولية، وأن الحركات الغريزية

المشوبة بالرخاوة والحلاوة والغنج تكشف عن أنوثة، بينما التصرّفات الإرادية تعبر عن خاصة ذكورة. والحركات والأوضاع وتغيّرات النظر والصوت تظهر تناوباً لصفات متناقضة. فالجنس المضاعف ظاهر في التصرفات كما هو ظاهر في الأشكال.

هذه القسمات المذكرة والمؤنثة تستمد مدلولها من مرجعيتها للملاك، فلتركيب هذا الكائن ذي الجسد الخفيف والقدرات فوق البشرية، وهو يختصر كل البشرية، ويجعل منها مصيراً متعالياً يحتفظ بلزاك من أجل هذا بمظاهر أنثوية تبرز الرقّة والعذوبة أو تركّز على الطهارة والروحانية، وبخاصيات مذكرة تظهر القوة والذكاء، وهما دالّتا تفوّق؛ فالعناصر الطبيعية المتضادة تغدو في الملاك متكاملة.

وعندئذٍ تطرح المشكلة التي تفرضها العلائق بين المزدوجات: ذكر- أنثى، نفس- جسد؛ مادة- روح. وتختلف تفسيرات النقاد حول هذا الموضوع؛ وتبدو إثباتات المؤلف متناقضة. ففي نهاية المشهد الأوّل، وفي أحد هذه التداعيات التي يميل إليها بلزاك؛ يقيم الثنائية القطبية مذكر- مؤنث على محور شاقولي: فتمتلك شخصيته قدمي فتاة شابة ورأس رجل. ولنشر إلى أن هذه الصورة لا تعيّن المرأة أو المادة، ولا الرجل أو الفكر وإنما تفسّر في صورة متكلفة قليلاً اجتماع الطرفين المختلفين. ويمكن أن نقرأ في المخطوطة، وحتى في النصّ ما قبل الأصلي في مجلة باريس أن هاتين القدمين «لاتلمسان الأرض» أو لا ينبغي أن «تمسا الأرض إلا نادراً» وهذا التعبير الغريب قد حذف، لكنه يوضح النيّة الحقيقية للمؤلف وهي التطبيق على الكائن الحي للتقسيم الكبير في الكوسمولوجية الغنوصية بين الحضيض والذروة، والأدنى والأعلى. من جهة أخرى فإن بلزاك ينسب، بشكل غير صحيح، إلى سويدنبرغ، دون أن يظهر أنه مؤيد أو معارض، فكرة أن المخلوق في صعوده يصل الى «الحالة الالهية التي تكون فيها روحه امرأة وجسمه رجلاً».

يخشى أن يؤدي التباس هذه الصيغ إلى أخطاء حول فكرة بلزاك العميقة وحتى حول المعنى الذي يعطيه لشخصيته، لكن هذا الإلتباس يزول إذا رجعنا إلى

تصوّرات الغنوصيين القدماء التي عرفها بلزاك والتي تشرحها أسطورته أفضل مما تشرح النظرية السويدنبرغية. ففي مذهب «سرافيتا» يتعلّق «الكائن الداخلي» الذي يوجّه «الكائن الخارجي» بالروح الملائكية أو «بالبنوما» الغنوصية، هذا القسم العلوي، انبثاق العنصر الالهي، المنحبس في المادة. إن العلاقة بين الثنائية مذكر- مؤنث، والثنائية جسم- نفس أو الثنائية مادة- روح تتوضح لدى بلزاك بهذه المقارنة.

في المنظور الغنوصي، تأتي الخنوثة من القمة، وتنتشر على كل سلّم الكائنات، وبيتوس اللجّة التي لا تسبر في الكائن، وأنويا فكرته، هما ذكر وأنثى. وفي حالة اتحاده مع إنويا، فإن بيتوس، ذاته يُسمّى ذكر- أنثى. ويعبر عن الفكرة ذاتها بالله، الأب والأم أو الأب الخنثى. والكيانات المتوسطة، الأفكار الالهية، المنحطة من تجسيد إلى تجسيد تتجمع في «سيزيجيات»[1] وتدل بذلك على الوحدة الأصلية للمذكر والمؤنث؛ وأركانتروبوس أو الانسان البدائي يتصوّر غالباً كخنثى. وإذا كانت بنوما قد اعتبرت كعنصر أنثوي فقط، فذلك لأن البنوما، انبثاق المبدأ الإلهي هي الروح الأم للأحياء، وهي مميّزة في القسم الأعلى من الروح إحدى خاصيات الله، المؤنث، المتصوّر كينبوع الحياة[2].

من المؤكد أن بلزاك لا يمكنه أن يفعل شيئاً تجاه التصوّر الغنوصي للكيانات المتوسطة، ومجموعة صورها المعقدة، ولكن يصادف فيها المبادئ الرئيسة، والواقع أننا نلاحظ أن «الروح الملائكية»، وهي كائن متوسط، تمثل روح الله بأقلّ ما يمكن من عدم الكمال، وأن الروح أو «البنوما» في سرافيتا تشكل نفساً وجسداً، كلاهما خنثويان لأنهما تعبير عن تلك الروح. تقترن الذكورة والأنوثة على المستويات الثلاثة الفيزيائية، والنفسية، والأثيرية، دون أن ترتبط دوماً بأحداها أو بالأخرى مفاهيم الماديّة أو الروحية. فالمذكر والمؤنث ينتشران في بنية الجسم وفي قسمات

---

(١) - السيزيجيات: جمع سيزيجي: وهي نقطة اقتران القمر أو مقابلته بالشمس.

(٢) - ج. ماتر: التارخ النقدي للغنوصية.

الوجّه وفي حركات السحنة وتعبيراتها. جميع هذه العناصر، الجسم ذو الغلبة الأنثوية، إنّما الأثيري، والجبين المفكّر الجاد، والنظرات الجذابة مرّة والكئيبة أخرى، تشير إلى توق الكائن الكلي إلى تساميه. ونفسية سرافيتا المحدّدة بتعابير تيوزوفية تقرن «روح الحكمة» المذكرة، بسعة نظراتها، «بروح الحب» الأنثوية بالعاطفة والحدس. و«البنوما» الذي يحدّد الشكل والاتجاه للعوامل الأخرى للمركب الإنساني تتميز «بالروحانية»- والعنصر الأنثوي ومنبع إسباغ الكمال المثالي، وفقاً لغاستون باشلار[١]، - «وبالسمو» الذي يؤمّنه العقل المذكر باتصاله بالعالم اللامنظور.

ثنائية المذكر والمؤنث في هذه الصورة تتعلّق في النهاية جزئياً، بالخاصيات الاصطلاحية. التي تنسب للواحد أو للآخر، وللوزن النوعي الذي نكتشفه «للروحانية» و«للمادية»، وللغريزة، والذكاء، والحبّ، والقوة، على الميزان غير الدقيق حيث يوزن ماهو غير قابل للوزن. الشيء الرئيس هو أن الجسم والروح يكشفان الخواص الأنثوية للروح الملائكية المتصوّرة ككائن ينتمي إلى مجال متجانس من الآفاق السامية.

في هذه النظرة المجملة تتحدّد بدقّة العلاقات بين الفيزيولوجية والصوفية، وكما يلاحظ غاستون باشلار «فإن تفسيراً هرمونياً لسرافيتوس- سرافيتا سيكون خطأً فادحاً[٢] فليست الخنوثة هي التي تقود إلى صورة الملاك وبالعكس فإن الكائن الصوفي يتقلّد كل القيم الإنسانية بتساميه فيها. تتمثل ثنائية الجنسين من بين الثنائيات التي تشكّل الكائن الحي، إنّما بشكل ضعيف لكنه حقيقي: بقية الخنوثة البدائية التي تبرزها أحلام اليقظة إلى النور وتسموبها بإعطائها أصلاً إلهياً تقدم فيه كحلّ تناسق الأضداد.

ينتج من هذه التحاليل أن بلزاك قد قدّم في سرافيتا التأليف بين ملاحظاته، وأفكاره ورؤاه، بعد أن صنعها كرسام مبدع بأشكال دالة، وتسجّل الشخصية التي كوّنها بذاتها، وفي الوقت نفسه تصف في المدى المحسوس، العلاقات التي تربط

---

(١) - غاستون باشلار: مقدمة عن سرافيتا في «أعمال بلزاك ١٩٥٥- ص٧٤.

(٢) - غاستون باشلار: المرجع السابق- ص ٨٠-

الجسم والروح، والإنسان، والكون والروح الكلية وترتد تقنيّة بلزاك إلى ميتافيزيقا وتؤثر الميتافيزيقا في تقنيته. وما يبدو لنا أساسياً ويدعو إلى الاعجاب في مؤلّفه هو التماسك والكليّة. ومفتاح فكره وكتابته هو في مفهوم «النُسَب» فتمر هذه الكلمة غالباً تحت ريشته وبحركة العلاقات الخفيّة المكتشفة بتحليله بين العوامل المكوّنة للكائن البشري، وللمجتمع، أو للحياة الحيوانية بكاملها، وبين البواعث الخفية والوقائع الظاهرة وبين العالم الطبيعي والمرئي، ومملكة الأسباب المجرّدة، وكذلك عبر أشكال إنشائه الروائي التي لا تقل تبعية بعضها لبعضها الآخر. يقيم من الجزئي دلالة على العام، ويضفي على المجموع قيمته في تفسير الظواهر الخاصة.

سواء لاحظ بلزاك الكائنات في صميمها، أم سبر السموات في عمقها، فإن له نظرة تخترق ماوراء ذلك. هذه الملاحظة تتيح تقدير مذهبه، أيّا كانت قيمته الموضوعية.

- فأيّة نظرية فلسفية يمكنها الإدعاء بالوصول الى الحقيقة؟!- ولا يهمُّ كثيراً أن تكون المفاهيم ببعض الغموض نتيجة استخدام مصطلحات غير دقيقة- فبلزاك فيلسوف فطرة، وليس محترفاً؛ والفائدة هي في المجازفة التي أعطاها لمشروعه: أن يفرض منهجاً للتفكير على شاعريةٍ مخيّلةٍ وأن يقدم منطقاً عاماً لتجربته ورؤيته للعالم.

شمل بلزاك في رفض واحد المادية الصرفة والروحانية الصرفة، ودرس الانسان ككل موفّقاً بين جميع ثنائياته، فقدّم بذلك لفكر معاصريه أسطورة رائعة يريد أن يبرّرها بالعقل ويعمل بواسطتها على إكتشاف حقيقة انسانية ساميّة، عبر اشراقية ذات ظاهر صوفي: والقدر الذي يتيح استشفافه للانسان ليس شيئا آخر، بعودته إلى العنصر الأصلي، إلا ذاته في كمالها. فالبحث عن المطلق في المادة، والبحث عن المطلق الالهي يمتزجان في نهاية المطاف في البحث عن الانسان المطلق.

هنري غوتيه

الفهرس

٣٠٠٠ط١/٥/٢٠٠٠

لبلزاك ٢٢ رواية جمعها كلها تحت اسم (دراسات فلسفية) لاعتقاده أنها تعبر عن رؤيته للوجود، جلها نشرته أو ستنشره وزارة الثقافة. منها على سبيل المثال البحث عن المطلق، الكتاب الصوفي، لويلندر... وسرافيتا حيث يحاول الروائي تجاوز تعارضات الوجود الكبرى.

فالوجود عنده جوهر واحد وحركة، وما المادية والمثالية إلا إضافات. كما أن سرافيتا من سيرفان. ملاك بالفرنسية هو في الوقت ذاته إنسان ملاك، ذكر وأنثى.

تأثر بلزاك أكثر وما تأثر بالصوفية سويدبرغ فاختار لوقائع روايته النروج حيث تبدو الطبيعة بكل جبروتها لكأن السماء والأرض شيء واحد.

ليس بلزاك مفكراً لنطالبه بتماسك أفكاره منطقياً، بل هو روائي - شاعر إذا شئت - يبحث عن تسويغ فلسفي - صوفي لشاعرية خياله.

فالمذهب الاشراقي هو الأقرب إلى عقليته.

وهذا يرى حدساً وحدة الكون وموقع الإنسان من هذا الكون.

سرافيتا رواية بالدرجة الأولى، رواية الأصل فيها فن السرد الروائي.

وإذا كان بلزاك قد تجاوز في رواياته الفلسفية واقع الحياة اليومية، فلكي يجعل من ملهاة الإنسانية الصور الأكمل للواقع الإنساني في أواسط القرن التاسع عشر.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٢٠٠ ل.س